

عُظَمَاءُ الْمَاضِي

تأليف

الدكتور أبو جبر مؤيد الفسيحي و الأستاذ أنطون شكرى لورنس

عنيت بنشره

مكتبة بيت المقدس

الحقوق كلها محفوظة

١٩٣٦

الطبعة العصرية — القدس



عُظَمَاءُ الْمَاضِي

تأليف

الدكتور مكيومور الفريسي و الأستاذ انطون شكري لونس

عُنيّت بنشره

مَكْتَبَةُ بَيْتِ الْقُدْسِ

الحقوق كلها محفوظة

١٩٣٦

تمهيد

في كتابنا هذا ، نعرضُ تاريخَ الماضي بسرَدنا وقائعَ حياةِ فريقٍ من عظمائه . فإنَّ عُظماءَ البشرِ أشبهُ بِمراحلَ قائمةٍ على طريقِ الماضي . وفي الإمكان أن نفهم التاريخَ بكامله ، بوقوفنا على ما وقع لهؤلاء العظماء من الحوادثِ ، وما قاموا به من الأعمال .

ويرى الكثيرون من صغار الناشئة أن التاريخَ يقومُ بحوادثٍ مستقلةٍ ، وأسماءٍ ومواقيتَ ، وأنه إذا سقطَ أحدُ هذه الأسماءِ والمواقيتِ ، فكلُّ اسمٍ أو ميقاتٍ آخرَ يصلُحُ لأن يسدَّ الفراغَ . وعلى هذا ، فكلُّ الذين مضوا يُمدَّدون ، في عُرف هؤلاء ، قد حاصر بعضهم بعضاً ، وكلُّ حادثٍ وقع في الماضي كان في الإمكان وقوعه في الوقت الذي وقع فيه أيُّ حادثٍ سواه . فالتاريخُ ، والحالة هذه ، تنعدم الفائدةُ المتوخاة منه ، ويُصبحُ درسُه جافاً .

ليس من شأن الكاتين أن يقضوا على اهتمام الناشئة بحكاية النوع البشري، بل من شأنهم أن يُنبِّهوا فيهم هذا الاهتمام ويُقوِّوه، ويوحوا اليهم المثل العليا . وفي التاريخ عبرٌ تسبق عبر الزمن . وسنصبح كلنا حكماء غداً بما تعلمه بالاختبار، ولكننا ندرس التاريخ لنكون حكماء اليوم .

اقرأ حكاية حياة رجل عظيم ، من أولئك الذين هم في الحقيقة عظماء في نظر العالم، وأنسَ قوميته، ولكن تبصّر في محيطه، وأنظر هل كانت له غايةٌ جُلِّي في الحياة ؟ وهل ثمة وجه شبه بين تلك الناية وغايتك نفسها ؟ وما الذي أتاه هذا الرجل من العظائم ؟ وما هي عناصر العظمة والضعف في أخلاقه ؟ وهل تُعجب به اليوم ؟ وهل في إمكانك أن تُصلح أخطائه ؟ وما هي العبر التي أفدتها بطلانك وقائع حياته ؟

في الإمكان أيها القارئ الكريم أن تُقاد الكثير بوقوفنا على حياة العظماء . ففيها مناوَرُ قامت على المشارف لتضيء سبلنا . وقد توخينا أن نُعيد هؤلاء العظماء الى الحياة بآمالهم ، وبما أصابوه من فوزٍ ، وصادفوه من خيبة ، لنجعل تاريخ البشرية مفيداً لك

مُتَمِّعًا. ففي الماضي القصيِّ، جعلنا بطل الحكاية، كما في حكاية
خوفو ابن النبل، يحيا حياته البسيطة، ليَقِفْنَا على نشأة المدينة.
ونرى أبطالنا في فجر تاريخ الشرق يحاهدون في سبيل غاياتٍ
أسمى، ويعملون على إخضاع قوى الطبيعة، لنستمتع بثمره جهادهم.
ويسيرُ العالم من ثمَّ الهونا في طريق النُشوء، وعندما نصلُ الى
اليونان والرومان، نرى أن كلَّ بطل عظيم يقوم بما هو من
شأن الرجال. ثم يُكشف الستارُ شيئًا فشيئًا عن وجه أوربتا،
إلى أن يسطعَ النور على الجُزُرِ في البحار الغريئة. فلا تلبثُ
الكواكب الوضائة أن تتألقَ في كبد السماء، بيد أن الأنوار الضئيلة
تظلُّ ظاهرةً للعيان.

ويبدو أبطالنا أحيانًا في مظهر الأطفال، ويبدون أحيانًا في غيره
من المظاهر المختلفة. وفي الواقع أننا أطفالٌ من وجوه عدَّة، ونودُّ أن
نُعالَ ونُعاملَ كما يُعالُ الأطفالُ ويُعاملون. بيدَ أن كلَّ قصَّةٍ
تاريخيةٍ المادَّة، مهما كان مبلغها من السذاجة، وفي كلِّ منها
عِزَّةٌ حريَّةٌ بالتأمُّل والإعجاب على حدٍ سوى.

وإذا كان هذا الكتاب يزيد مطالعه معرفةً بماضي النوع البشري

ووجوه معيشته، وأوضاعه، وجهاده، وما صادفه من فوز ولقيته من خيبة؛ وإذا كان يُبين، بوجه ما، شيئاً من أصولِ مدينتنا الحديثة، وعاداتها، وأوضاعها، ومثلها العليا، وسيرتها؛ وإذا كان فيه العونُ على أن يبعثَ فينا قوَّةَ الحكم على مظاهر الحياة، التي تحدِّقُ بنا، بما هي أهلُّ له؛ وإذا كان يهيجُ النفسَ ويُلهمُّها، بما فيه من حكايات الرجال ذوي العزم، والحزم، والإبداع، الذين كَيَّفُوا حظَّ النوع البشري؛ وإذا لم يكن فيه إلاَّ واحدةٌ من هذم الفوائد، ولم تَعُدْ هذم الفائدة الواحدة من الناس، فلا يكونُ المؤلفان قد أخطأ القصد.



جوف ابن النيل وقبلة

لَمَّا كَانَ الْبَشَرُ، فِي قِفَارِ أَوْرُبَا الْفَسِيحَةِ، لَا يَزَالُونَ مُنْعَمِينَ
 فِي هَمَجِيَّةٍ ^(١) الْعَهْدِ الْحَجَرِيِّ، أَيَّامَ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَعْمِلُونَ سِوَى
 الْأَدَوَاتِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْحَجَرِ، كَانَتْ حَيَاةُ الْحَضَارَةِ ^(٢) قَدْ
 ابْتَدَأَتْ فِي مِصْرَ، عَلَى ضِفَافِ النَّيْلِ. وَيَنْقَسِمُ تَارِيخُ هَذِهِ الْحَضَارَةِ
 الَّتِي نَشَأَتْ فِي وَادِي النَّيْلِ، إِلَى ثَلَاثَةِ أَغْصُرٍ كَبِيرَةٍ، يُدْعَى أَوَّلُهَا
 عَصْرُ الْأَهْرَامِ ^(٣) (مِنْ سَنَةِ ثَلَاثَةِ آلَافٍ إِلَى سَنَةِ خَمْسِ مِئَةِ
 وَالْفَيْنِ قَبْلَ الْمَسِيحِ). وَقَدْ اكْتُشِفَ الْمِصْرِيُّونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ
 الثُّلُثِ، فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ سَيْنَا، وَأُسْتَعْمِنُوا بِهِ عَلَى بِنَاءِ تِلْكَ الْقُبُورِ
 الضَّخْمَةِ الَّتِي نَدْعُوهَا الْأَهْرَامَ. وَكَانَ هَذَا الْعَصْرُ أَمْجَدَ عُصُورِ
 التَّارِيخِ الْمِصْرِيِّ. وَثَلَاثَةُ عَصْرَانِ آخَرَانِ عَظِيمَانِ :

جَاءَ بَعْدَ عَصْرِ الْأَهْرَامِ مَا نُسَمِّيهِ عَصْرَ الْإِقْطَاعِ ^(٤) (نَحْوُ

(١) الهمجية : التوحش . (٢) الحضارة : المدنية . (٣) الأهرام جمع هرم :
 المخروط المثلث الذي تكون قاعدته مثلثة أو مربعة أو كثيرة الأضلاع. وعلى هذا الشكل بنيت
 أهرام مصر الشهيرة لتكون مدافن الملوكها. (٤) الإقطاع مصدر أقطع : تقول أقطع الأمير
 الجند أرضاً أي جعل لهم غلتها رزقاً .

سَنَةِ الْفَيْنِ، قَبْلَ الْمَسِيحِ). وَقَدْ أَشْتَدَّتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ شَوْكَةُ^(١) الثُّبُلَاءِ، يَمَا كَانَ يُقْطِعُهُمْ إِيَّاهُ الْمَلِكُ، مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ^(٢). نَعَمْ، كَانَ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَرَاعِنَةٌ، أَوْ مُلُوكٌ، كَمَا فِي عَصْرِ الْأَهْرَامِ، بَيَدَ أَنَّهُمْ كَانُوا أَقَلَّ سَطْوَةٍ^(٣). وَقَدْ أُرْتَقَتْ الْمُلُومُ فِي عَصْرِ الْإِفْطَاعِ، حَتَّى إِنَّ قَوَاعِدَ الْحِسَابِ الْبَسِيطَةِ كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ وَتُسْتَبْدَلُ. وَهَيَأَ فِرْعَوْنُ جَيْشًا صَغِيرًا ثَابِتًا، كَثِيرًا مَا غَزَا^(٤) بِهِ فِلِسْطِينَ.

وَفِي نَحْوِ سَنَةِ ثَمَانِي مِئَةٍ وَالْفِ، قَبْلَ الْمَسِيحِ، ضَعُفَتْ سُلْطَةُ فَرَاعِنَةِ الْعَصْرِ الْإِفْطَاعِيِّ، حَتَّى صَارَتْ إِلَى الزَّوَالِ. وَجَاءَ عَصْرُ جَدِيدٍ، هُوَ عَصْرُ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ (مَا بَيْنَ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ وَالْفِ، وَسَنَةِ خَمْسِينَ وَمِئَةٍ وَالْفِ، قَبْلَ الْمَسِيحِ). فَجِيءَ بِالْحَيْلِ مِنْ آسِيَا، وَأَصْبَحَ فِرْعَوْنُ قَائِدَ جَيْشٍ، وَلَمْ تَلْبَثْ مِصْرُ أَنْ صَارَتْ لِمِمْبَرَاطُورِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ أَمْتَدَّتْ شَرْقًا، حَتَّى نَهْرِ الْفُرَاتِ. وَدَامَتْ هَذِهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ، مِنْ الْقَرْنِ السَّادِسِ عَشَرَ، إِلَى الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، قَبْلَ الْمَسِيحِ. وَقَدْ بُنِيَ، فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ، كَثِيرٌ مِنْ عِظَامِ

(١) الشوكة : ألقوة والبأس . (٢) بقاع جمع بقعة (بضم الباء) : القطعة من الأرض .

(٣) السطوة : ألقوة على قهر الغير . (٤) غزا القوم : سار إلى قتلهم وانهابهم فيديارهم .

الرَّوَّاعِ^(١) الَّتِي نَشَاهِدُهَا فِي مِصْرَ الْيَوْمَ. وَلَكِنْ جَاءَ وَقْتُ،
سَقَطَتْ فِيهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ مِصْرُ
مُسْلَطَةً عَلَى آسِيَا الْغَرْبِيَّةِ، أَصْبَحَتْ آسِيَا الْغَرْبِيَّةُ مُتَسَلِّطَةً عَلَى مِصْرَ.

❖

❖ ❖
فِي عَصْرِ الْأَهْرَامِ، كَانَ لِأَحَدِ الْفَرَاغَةِ، مُلُوكِ مِصْرَ، وَلَدٌ يُدْعَى
خُوفُو. وَكَانَ يُقِيمُ بِمَدِينَةٍ، تُدْعَى مَمْفِيسَ، وَاقِعَةٍ عَلَى نَهْرِ النَّيْلِ،
فِي مِصْرَ السُّفْلَى، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ مَدِينَةُ
الْقَاهِرَةِ الْيَوْمَ، وَحَيْثُ يَبْتَدِئُ شَعْبُ^(٢) النَّيْلِ لِيَكُونَ الدَّلْتَا.
وَكَانَ هَذَا النَّهْرُ الْعَظِيمُ يَطْمُو^(٣) مِائَةً، وَيَقِضُ فِي كُلِّ سَنَةٍ
مِنْ صِفَّتَيْهِ^(٤)، فَيَعْمُرُ^(٥) الْأَرْضَ عَلَى جَانِبَيْهِ، مِنْ شَهْرِ تَمُوزَ إِلَى
شَهْرِ أَيْلُولَ. وَكَانَ خُوفُو يَبْتَهِجُ بِذَلِكَ، لِعِلْمِهِ أَنَّ الْأَرْضَ، بَعْدَ
الْفَيْضَانِ، تَتَغَطَّى بِطَبَقَةٍ مِنَ الطِّينِ النَّاعِمِ الْخَصِيبِ، فَيَرْعُ فِيهِ
الْفَلَاحُونَ الْحَبَّ.

وَكَانَ خُوفُو، عِنْدَ أَبْتِدَاءِ الْفَيْضَانِ، يَسِيرُ مَعَ أَبِيهِ، إِلَى نَهْرِ

(١) الروائع جمع رائحة ورائع : الذي يسحب الناس بحسنه . (٢) شعب النهر :

تفرقت منه أنهار . (٣) طما الماء يطمو : لمرهم وملأ النهر . (٤) الضفة : جانب النهر .

(٥) عممه الماء : علاه وغطاه .

النَّيْلِ فِي مَوَكِبٍ ^(١) عَظِيمٍ، فَيَتَقَدَّمُ فِرْعَوْنُ الْجَمْعَ، يَتْبَعُهُ
صَفٌّ طَوِيلٌ مِنَ الْكَهَنَةِ، لَابِسِينَ الْحُلَّ ^(٢) الْبَيْضَ. وَيَأْتِي
وَرَاءَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْخَدَمِ، يَحْمِلُونَ سِلَالاً مَمْلُوءَةً قَحْحًا، وَغَرًّا،
وَتِينًا. وَيَتْلُو ^(٣) هُوْلَاءُ فَرِيقٌ مِنَ الشُّبَّانِ، يَقُودُونَ ثَوْرًا أَبْيَضَ.
وَيَتَّجِهُ الثَّوْرُ إِلَى الِئَمِينَ حِينًا، وَإِلَى الشُّمَالِ حِينًا آخَرَ، لِأَنَّ
جَمَاعَاتٍ مِنَ الْفَتَيَاتِ، يَكُنَّ عَلَى جَانِبَيْهِ، يَرْقُصْنَ وَيُغَنِّنَ، عَلَى
نَعْمِ الزَّمَامِيرِ وَالْدُفُوفِ. وَتَتَّبِعُ جَاهِدُ الشَّعْبِ الْمَوَكِبَ،
تُنَشِّدُ التَّسَامِيحَ ^(٤) لِلَّهِ النَّيْلِ.

وَقَدْ كَانَ لِلْمِصْرِيِّينَ إِلَهَةٌ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَخْضَعُونَ
اِثْنَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْإِلَهَةِ بِأَعْظَمِ الْعِبَادَةِ. فَالشَّمْسُ الَّتِي تُشْرِقُ، فِي
جَلَالٍ عَظِيمٍ، فِي سَمَاءِ مِصْرَ الصَّافِيَةِ، كَانَتْ أَعْظَمَ إِلَهَةِ الْمِصْرِيِّينَ.
وَكَانُوا يُسَمُّوْنَهَا رَعً. وَكَانَ النَّيْلُ الْمُتَأَلَّقُ ^(٥)، هُوَ الْإِلَهَةُ الْعَظِيمَةُ الثَّانِيَّةُ
الَّذِي كَانَ الْمِصْرِيُّونَ يُبَالِغُونَ ^(٦) فِي عِبَادَتِهِ وَإِكْرَامِهِ. وَكَانُوا يُسَمُّوْنَهُ
أَوْزِيرِسَ. ^(٧) وَقَدْ كَانَ جَمِيلًا مِنَ الْمِصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءِ أَعْتَقَادُهُمْ أَنَّ مَا

(١) الموكب: الجماعة مركباً أو مشاة. (٢) الحلل جمع حلة: الثوب الجديد أو عموماً الثوب الساتر
لجميع البدن. (٣) تلا تلو: يتبع. (٤) التساميح جمع تسبحة: الصلاة. (٥) المتألق: اللاصق.
(٦) يبالغون: يفرطون ويزيدون. (٧) الأخرى أن اليونان والذين أطلقوا عليه هذا الاسم

كَانَ يَجُودُ عَلَيْهِمُ بِالنُّورِ، وَالْقُوَّةِ، فِي هَذَا الْعَالَمِ، يُعْنَى بِهِمْ^(١) أَيْضًا
فِي الْعَالَمِ الْآتِي .

وَكَانَ خَوْفُهُ، هُوَ أَيْضًا، يُشَارِكُ الْقَوْمَ فِي الْإِنْشَادِ، لِأَنَّهُ
كَانَ نَظِيرَهُمْ، يَعْتَقِدُ أَنَّ فِي أَحَدِ الْأَقْطَارِ^(٢) النَّائِيَةِ^(٣)، حَيْثُ
مَنْابِعُ النِّيلِ، إِلَهًا وَلِلْهَةِ يَحْرُسَانِ الْمَاءَ. وَلَمَّا كَانَ الْمَوْكِبُ يَصِلُ
إِلَى النِّهَرِ، كَانَتْ الْأَعْمَارُ وَالْحُبُوبُ تُطْرَحُ فِي الْمَاءِ، وَكَانَ الْكَاهِنُ
الْأَعْظَمُ يُجَرِّدُ سِكِّينَهُ الْمُقَدَّسَةَ، وَيَذْبَحُ الثَّورَ، ثُمَّ يُلْقِيهِ فِي النِّهَرِ.
وَكَانَ خَوْفُهُ يَسْجُدُ لِلنِّهَرِ، شَاكِرًا لِلْإِلَهِ الْعَظِيمِ، لِأَنَّهُ جَادَ بِالْمَاءِ
الْغَزِيرِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤْتِيَ^(٤) بِلَادَهُ غَلَّةً طَيِّبَةً .

وَتَنْقُضِي بَضْعَةً أُسَابِيْعَ، لَا يَرَى فِيهَا خَوْفَ سَيَوَى بَحْرِ عَظِيمٍ،
وَيَنْتَظِرُ، صَابِرًا، أَنْ يَرْتَفِعَ النِّهَرُ إِلَى الْحَدِّ الْأَعْلَى، ثُمَّ يَذْهَبُ
مَرَّةً أُخْرَى، وَيُقَدِّمُ التَّقَادِمَ^(٥) لِلْإِلَهِ. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ النِّهَرُ يَفِضُّ،
لَمَكَانَ خَوْفِهِ يَهْتَمُّ^(٦) وَيَكْتَسِبُ، لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ الْإِلَهَ غَضْبَانُ.

(١) يعنى بهم: يهتم بهم. (٢) أقطار جمع قطر (بضم الفاء): الأقسام والناحية .
(٣) النائية: البعيدة. (٤) يؤتي مضارع آت: أعطى. (٥) التقادم جمع تقدم (بكسر
اللام): الهدية. (٦) يهتم: يهتم.

وَكَانَتْ عَيْشَةُ خَوْفُ الصَّغِيرِ، بَوَجْهِ الْإِجْمَالِ، عَيْشَةُ بَهِيْجَةٌ^(١)
 رَاضِيَةٌ، لِأَنَّهُ كَانَ، بَعْدَ أَنْ تُزْرَعَ الْحُجُوبُ، فِي الْغُرَيْنِ^(٢)
 الْجَدِيدِ الْخَصْبِ، وَيَأْتِي زَمَنُ الْحِصَادِ، يُخْرَجُ لِزِيَارَةِ الْمَزَارِعِ،
 مَعَ أَحَدِ عُمَالِ فِرْعَوْنَ، وَيُمَازِنُ الْكُتَابَ، يَكْتُبُونَ حِسَابَ مَا
 يَكُونُ الْفَلَاحُونَ قَدْ اسْتَنْبَتُوهُ^(٣) مِنَ الذَّرَّةِ، وَالْفُولِ، وَالْقُطْنِ.

وَكَانَ الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ يَرَى أَهْجَ لَهُ أَنْ يَرْكَبَ حَارَهُ، لِأَنَّ
 الْخَيْلَ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُدْخِلَتْ إِلَى مِصْرَ وَقَتَيْدٍ، وَيَسْتَرْهَ بَيْنَ
 الْمَزَارِعِ، مِنْ أَنْ يَظْلُ فِي الْقَصْرِ، يُشَاهِدُ النَّاسَ يَسْجُدُونَ لِأَيِّهِ.
 وَكَانَ يَذْهَبُ أحيانًا إِلَى النَّهْرِ، وَيَرْجِعُ مِنْ نَهْمٍ^(٤) إِلَى مَنْزِلِهِ،
 حَامِلًا، فِي الْغَالِبِ، أَزْهَارًا، وَشَيْئًا مِنْ قَصَبِ الْبَرْدِيِّ^(٥)، لِيَصْنَعَ
 مِنْهُ وَرَقًا يَكْتُبُ عَلَيْهِ.

وَكَانَ خَوْفُ يَعْلَمُ بِفَائِدَةِ قَصَبِ الْبَرْدِيِّ، لَدَى عَوْدَتِهِ إِلَى
 مُوَاصِلَةِ الدَّرْسِ، لِأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ، وَهُوَ ابْنُ فِرْعَوْنَ، أَنْ

(١) بهيجه: حسنة. (٢) الغرين: الطين الذي حله السيل فيبقى على وجه الأرض
 رطباً كان أو يابساً. (٣) استنبتوه: زرعه لينبت. (٤) نهم: اسم يشار به إلى البعيد
 بمعنى هناك. (٥) البردي: نبات كالقصب كان قدماء المصريين يستعملون قصره للكتابة.

يَتَعَلَّمُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ . وَكَانَتِ الْمَدْرَسَةُ فِي قَصْرِ أَبِيهِ ،
وَتُدْعَى دَارَ الْكُتُبِ . وَالْأَوْلَادُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْغَبُونَ أَنْ يَصِيرُوا
كُتَبَةً ، وَيَتَعَلَّمُوا كَيْفَ يَمْسَحُونَ^(١) أَرْضَ فِرْعَوْنَ ، كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ
مَعَ خَوْفِهِ . وَكَانَ الْأَوْلَادُ يَصْنَعُونَ ، هُمْ أَنْفُسَهُمْ ، مَا يَحْتَاجُونَ
إِلَيْهِ مِنَ الْأَقْلَامِ وَالْوَرَقِ . أَمَّا الْأَقْلَامُ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَهَا مِنْ
قَصَبٍ ، يَبْرُونَ أَطْرَافَهُ ، وَأَمَّا الْوَرَقُ ، فَكَانُوا يَصْنَعُونَهُ مِنْ
الْقَصَبِ أَيْضًا ، بِأَنْ يُشَقُّوهُ شِقْقًا^(٢) دَقِيقَةً^(٣) مُسْتَطِيلَةً^(٤) ، ثُمَّ
يَضَعُونَهَا الْوَاحِدَةَ إِلَى جَانِبِ الْأُخْرَى ، عَلَى شَيْءٍ مُسَطَّحٍ^(٥) ،
وَيَضَعُونَ أُخْرَى فِيمَا بَيْنَهَا ، فِي الْمَرْضِ ، ثُمَّ يُبَلِّلُونَهَا بِالْمَاءِ ،
وَيَضْغَطُونَهَا بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ ، حَتَّى تَجِفَّ ، وَيَلْتَصِقَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ،
وَتَصِيرَ صَحَائِفَ^(٦) ، مُعَدَّةً لِلصَّقْلِ^(٧) . وَبَعْدَ أَنْ تُصَقَّلَ هَذِهِ
الصَّحَائِفُ ، تُجْعَلُ أَدْرَاجًا^(٨) ، يَسْتَطِيعُ التَّلَامِيذُ ، فِي دَارِ الْكُتُبِ ،
أَنْ يَتَمَرَّنُوا بِهَا عَلَى الْكِتَابَةِ .

(١) يمسحون الأرض : يغيسونها ويغسونها . ٢ شقق جمع شقة (بكسر العين) .
ما شق مستطيلًا . (٣) دقيقة : ضد غليظة . (٤) مسطح : منبسط جدًا . (٥) صحائف
جمع صحيفة : الورقة . (٦) الصقل : الجلاء والتمليس . (٧) أدراج جمع درج (بفتح الدال) :
الورقة الملقوفة .

وَكَانَ خَوْفُو يَعْمَلُ مُجْتَهِدًا ، وَغَشَى ^(١) كَثِيرًا مِنْ أَدْرَاجِ
الْبَرْدِيِّ بِالرُّسُومِ ، لِأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَ ، لِلْكِتَابَةِ ،
صُورًا ، بَدَلًا مِنَ الْحُرُوفِ ، وَكَانَ يَلْزِمُهُمْ مِرَاسٌ ^(٢) طَوِيلٌ ،
لِإِتْقَانِ هَذِهِ الصُّورِ .

وَلَمْ يَكُنْ خَوْفُو يَرْكُنُ ^(٣) إِلَى الْكَسَلِ إِلَّا فِيمَا تَدَرَّجًا ،
لِإِلْمِهِ أَنَّهُ يُصْبِحُ ، يَوْمًا مَا ، فِرْعَوْنًا . وَلَمَّا كَانَ الْأَوْلَادُ يُخْرَجُونَ
مِنَ الْمَدْرَسَةِ لِيَلْعَبُوا ، كَانَ هُوَ يَذْهَبُ إِلَى الْهَيْكَلِ ، لِيَتَعَلَّمَ
كَيْفَ يُقَدِّمُ الذَّبَائِحَ ، وَيُخَاطِبُ الْأَلِهَةَ ، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ
رَأِيسَ الْكَهَنَةِ فِي مِصْرَ .

وَقَدْ تَعَلَّمَ خَوْفُو ، فِي جُمْلَةٍ مَا تَعَلَّمَهُ مِنَ الْكَهَنَةِ ، أَنَّ رُوحَهُ ،
يَعُدُّ مَوْتَهُ ، تُسَافِرُ سَفَرًا طَوِيلًا ، إِلَى أَنْ يَحِينَ وَقْتُ عَوْدَتِهَا ، إِلَى
مَنْزِلِهَا الْقَدِيمِ . وَلَمَّا كَانَ الْمِصْرِيُّونَ يَتَقَدِّدُونَ أَنَّ الرُّوحَ لَا
يُذْ أَنْ تَعُودَ ، يَوْمًا ، إِلَى الْجَسَدِ ، فَقَدْ ظَنُّوا أَنَّ الْجَسَدَ يَنْبَغِي أَنْ
يَكُونَ مُجَهَّزًا عَلَى الدَّوَامِ ، لِكَيْ يَتَيَسَّرَ لِلرُّوحِ أَنْ تَهْتَدِيَ

(١) غشى : غطى . (٢) مِرَاس : مزاولة ومعاينة . (٣) يركن . يميل

إِلَيْهِ. وَلِذَا كَانُوا يُحْتَضُّونَ^(١) الْجَسَدَ بِأَنْوَاعِ الْخَنُوطِ^(٢)، لِيَحْفَظُوهُ مِنْ أَلْبِلَى^(٣)، وَيَلْقَوْنَهُ بِعَصَائِبٍ^(٤) حَتَّى لَا يَمَسَّهُ شَيْءٌ. ثُمَّ يَضْمُونَ الْجُثَّةَ، الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهَا مُومِيَا، فِي صُنْدُوقٍ، وَيُصَوِّرُونَ وَجْهَ الْمَيِّتِ بِالأَصْبَاغِ^(٥)، عَلَى خَارِجِ الصُّنْدُوقِ، حَتَّى إِذَا مَا رَجَعَتِ الرُّوحُ مِنْ سَفَرَةِ الْمَوْتِ، يَسْهُلُ عَلَيْهَا الْإِهْتِدَاءُ إِلَى مَنَزِلِهَا الْقَدِيمِ.

وَلَمَّا كَانَ فَرَاغَةُ مِصْرَ يَتَعَقِدُونَ أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ، فَقَدْ بَنَوْا لِأَنْفُسِهِمْ قُبُورًا عَظِيمَةً جَمِيلَةً جَدًّا، وَصَوَّرُوا عَلَى جُذُرِهَا صُورًا، تُشِيرُ إِلَى حَيَاتِهِمِ الْيَوْمِيَّةِ وَأَعْمَالِهِمِ الْعَظِيمَةِ. وَلَمَّا كَبُرَ خَوْفُهُ فِي السَّنِّ، وَصَارَ فِرْعَوْنًا، هُوَ أَيْضًا، صَمَّمَ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ قَبْرٌ، أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ مَا بُنِيَ مِنَ الْقُبُورِ. وَيُمْكِنُكُمْ، إِذَا ذَهَبْتُمْ إِلَى مِصْرَ الْيَوْمِ، أَنْ تَرَوْهُ هُنَاكَ، قَبْرَهُ قَائِمًا عَلَى حَاشِيَةِ^(٦) الصَّحْرَاءِ، قَرِيبًا مِنْ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ، وَيُسَمَّى الْهَرَمَ الْأَكْبَرَ.

(١) يحضنون الميت : يجلسون جثته ويحشونها بالخنوط كي لا يسودها فساد.

(٢) الخنوط : كل طيب يمتزج بالفساد تحمى به جثة الميت بعد تجفيفه فتخفظه من البلى طويلا . (٣) البلى : الفساد . (٤) عصائب جمع عصاية (بكسر العين) : ما عصب به من حديد ونحوه . (٥) أصباغ جمع صبغ (بكسر الصاد) ما يصبغ به . (٦) الحاشية : الجانب

وَقَدْ أَقْبَلَ الْعُمَالُ عَلَى الرِّمَالِ، فَأَزَاحُوهَا وَمَهَّدُوا^(١) الْمَكَانَ .
وَكَانَ الْبَنَّاوُونَ يَشْتَغِلُونَ طَوْلَ النَّهَارِ فِي الْحَرْبِ . وَلَمَّا كَانَ فِي
الْعَزْمِ أَنْ يُجْعَلَ قَبْرُ خَوْفٍ كَبِيرًا جِدًّا، فَقَدْ دَعَتْ الْحَاجَةُ إِلَى
بِنَاءِ ظُلَلٍ^(٢)، تَنْسَعُ لِأَرْبَعَةِ آلَافٍ حَامِلٍ . ثُمَّ مَهَّدَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ
الْعُمَالِ طَرِيقًا طَوِيلًا، لِكَيْ تُجَرَّ عَلَيْهِ قِطْعُ الْحِجَارَةِ الْكَبِيرَةِ،
وَأُشْتَقَلَ آخَرُونَ فِي مَقَاطِعِ الْحِجَارَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَبْعُدُ سَبْعَةَ
أَمْيَالٍ، عَلَى صِفَةِ النَّهْرِ الْآخَرِ .

وَرَأَى خَوْفٌ، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ عِدَدَ الْعُمَالِ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا،
إِذْ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مَا عُرِفَ مِنَ الْقُبُورِ .
وَأُحْتَاجَ إِلَى عُمَالٍ آخَرِينَ، لِيَشْتَغِلُوا فِي مَقَاطِعِ الْحِجَارَةِ،
وَأَخَرِينَ، لِيَنْحَتُوا الْحِجَارَةَ الْمُحَبَّبَةَ^(٣) وَالْجِيرِيَّةَ^(٤)، وَإِلَى آخَرِينَ،
لِيَرْفَعُوا تِلْكَ الْحِجَارَةَ الضَّخْمَةَ إِلَى أَمَاكِينِهَا، وَإِلَى غَيْرِهِمْ، لِيُسَيِّرُوا
الْمَرَائِبَ الَّتِي كَانَتْ تَنْقُلُ هَذِهِ الْحِجَارَةَ فِي نَهْرِ النَّيْلِ . وَلِذَا،

(١) مهد الطريق : بسطها وسهلها . (٢) ظل جمع ظلة (ضم الظاء) : ما يستظل

به من الحر والبرد (٣) الحجارة المحببة : حجارة من الصوان (يفتح الصاد) تدعى

بالفرائيت - (٤) الحجارة الجيرية : الحجارة الكلسية .

لَمَّا كَانَ الثَّلُيْ يُفِيضُ، فَلَا يَقْدِرُ النَّاسُ عَلَى الْعَمَلِ فِي الْمَزَارِعِ،
كَانَ خَوْفُ يُرْسِلِ الرُّسُلَ إِلَى أَنْحَاءِ^(١) الْمَمْلَكَةِ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ،
فِي كُلِّ قَرْيَةٍ، أَنْ يَأْتُوا لِمُسَاعَدَةِ الْبَنَانِينَ. فَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ مِنْ
الْمُحَالِ، عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، نَحْوُ^(٢) مِثَّةِ أَلْفٍ، كَانُوا يَشْتَغِلُونَ،
إِلَى أَنْ يَهْبِطَ الْمَاءُ، ثُمَّ يَمُودُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ.

وَقَدْ أَهَمَّ خَوْفُ بِقَبْرِهِ، فَكَانَ يُرَاقِبُ الْبَنَانِينَ، وَهُمْ
يَرْفَعُونَ الْحِجَارَةَ الضَّخْمَةَ إِلَى أَمَاكِينِهَا. وَكَانَتْ هَذِهِ الْحِجَارَةُ
ثَقِيلَةً جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَّيَّأُ^(٣)، إِلَّا لِكَثِيرِينَ مِنَ الْعَمَلَةِ
مُجْتَمِعِينَ، أَنْ يَرْفَعُوهَا، شَيْئًا فَشَيْئًا، بِالْعِتَلَاتِ^(٤). وَكَانَ الْمُحَالُ، إِذَا
رَفَعُوا الْجَانِبَ الْوَاحِدَ، مِنْ أَحَدِ هَذِهِ الْحِجَارَةِ، يَدْعُمُونَهُ^(٥)
بِقِطْعَةٍ مِنَ الْخَشَبِ، حَتَّى يَسْتَقِرَّ^(٦) فِي مَوْضِعِهِ. وَكَانُوا، إِذَا رَفَعُوا
الْجَانِبَ الْآخَرَ، يَدْعُمُونَهُ بِقِطْعَةٍ أُخْرَى مِنَ الْخَشَبِ. وَهَكَذَا
اسْتَطَاعُوا أَنْ يَرْفَعُوا هَذِهِ الْحِجَارَةَ، رُويْدًا^(٧) رُويْدًا، حَتَّى
أَثْقَلَهَا، إِلَى أَمَاكِينِهَا.

(١) أَنْحَاءُ جَمْعُ نَحْوٍ: الْجِهَةُ (٢) النَحْوُ: الْقَدَارُ. (٣) يَتَّيَّأُ: يَمُكِّنُ.
(٤) الْعِتَلَةُ: الْعَصَا الضَّخْمَةُ مِنْ حَدِيدٍ. (٥) دَعَمَ الْحَجَرُ: أَسْنَدَهُ لِثَلَاثِمْثِيلٍ. (٦) يَسْتَقِرُّ:
يَثْبِتُ. (٧) رُويْدًا: بَرَقَ وَتَعَمَلُ.



قبر خوفو أو الهرم الاكبر

وَزَلَّ الْعَمَلَةُ يَسْتَفِلُونَ ، فِي قَبْرِ خُوفُو ، عِشْرِينَ سَنَةً ،
وَفَرَّغُوا مِنْهُ ^(١) أَخِيرًا ، بَعْدَ أَنْ بَنَوْا فِيهِ سُلَّمًا ، وَسَرَبًا ^(٢) ، يُودِّيَانِ
إِلَى مَحْدَعَيْنِ ^(٣) ، أَحَدُهُمَا لِمُومِيَا الْمَلِكِ ، وَالْآخَرُ لِمُومِيَا الْمَلِكَةِ .
وَكَانَ إِلَى جَانِبِ الْقَبْرِ هَيْكَلٌ صَغِيرٌ . وَلَمَّا مَاتَ خُوفُو ، تَسَلَّ

(١) فرغوا منه : أتموه . (٢) السرب : الطريق تحت الأرض (٣) المحدع :

البيت داخل البيت الكبير .

الْكَبَّةَ هُنَاكَ الصَّلَوَاتِ الْمُقَدَّسَةِ ، وَقُوفاً عَلَى أَرْضِ الْهَيْكَلِ
الصَّخْرِيَّةِ ، وَتَمَنَّنُوا ، لِروحِ فِرْعَوْنَ التَّيْتِ ، سَقِراً سَمِيداً آمِناً .
وَلَمَّا أَنْتَهَوْا مِنَ الصَّلَوَاتِ ، هَمَّسُوا ^(١) بِالنِّيَابَةِ عَنْ خَوْفِ التَّيْتِ
بِقَوْلِهِمْ :

«إِنِّي لَنْ أَمُوتَ ، بَلْ سَأَعُودُ إِلَى كِيَانِي ^(٢) وَأَحْيَا ، وَأَفُوزُ
بِالْفَلَاحِ ^(٣) . إِنِّي سَأَقُومُ بِسَلَامٍ » .

ثُمَّ سَدَّوْا بَابَ الْقَبْرِ ، وَرَقَدَ خَوْفُهُ ، تُحِيطُ بِهِ الْكُنُوزُ
الْجَمِيلَةُ الثَّمِينَةُ الَّتِي دُفِنَتْ مَعَهُ .



(١) همسوا : قالوا بصوت خفي . (٢) الكيان : الطبيعة والحياة . (٣) الفلاح :
صلاح الحال .

فَجْرُ الشَّرْقِ^(١)

كُلُّكُمْ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ عَنْ بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَلِذَا لَا أَطِيلُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا ، وَلَكِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنِ الْأَقْوَامِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهَا .

تَكَادُ بِلَادُ الْعَرَبِ تَكُونُ قَفْرًا ، فَهِيَ خَالِيَةٌ مِنَ الْأَنْهَارِ ، وَلَا يَسْقُطُ فِيهَا الْمَطَرُ إِلَّا بِضَعَةِ أَسَابِيعَ ، فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ . فَكَانَتْ لِذَلِكَ ، عَلَى رُحْبِهَا^(٢) ، عَاجِزَةً عَنِ الْقِيَامِ بِحَاجَةِ أَهْلِهَا مِنَ الْمَعَاشِ . وَكَانَ سُكَّانُهَا ، مُنْذُ أَقْدَمِ الثُّمُورِ ، وَلَا يَزَالُونَ ، مِنَ الْجِنْسِ الْأَبْيَضِ الْكَبِيرِ الْمَدْعُوعِ بِالسَّامِيِّينَ .

وَالسَّامِيُّونَ ، وَهُمْ نَسْلُ سَامِ بْنِ نُوحٍ ، مُنْقَسِمُونَ ، مُنْذُ الْقِدَمِ^(٣) ، إِلَى قَبَائِلَ أَوْ أَقْوَامٍ عَدِيدَةٍ . وَتَحْنُ نَعْرِفُ اثْنَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَامِ كُلِّ الْمَعْرِفَةِ ، وَهُمَا الْعَرَبُ وَالْعِبْرَانِيُّونَ . وَقَدْ خَلُّوا أَغْصَرًا يَظْلَعُونَ^(٤) مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ ، مُتَجَبِّحِينَ^(٥)

(١) الرّحب : السعة . (٢) القدم : الزمان القديم . (٣) يظنون : يرحلون .

(٤) لإتباع القوم الكلا : ذهبوا لطلبه في مواضعه .

مَوَاقِعَ الْغَيْثِ ^(١) وَالْكَلَّاءِ ^(٢) لِقُطْمَانِهِمْ . وَكَانُوا ، إِذَا أَعْوَزَهُمْ ^(٣)
الْكَلَّاءُ ، يَخْرُجُونَ مِنْ أَرْضِ الصَّخْرَاءِ . وَقَدْ نَزَحَتْ ^(٤) جَمَاعَاتُ
مِنْهُمْ ، فِي الْأَزْمِنَةِ الْقَدِيمَةِ ، إِلَى فِلِسْطِينَ ، وَإِلَى الْأَرْضِ الَّتِي
تُدْعَى الْيَوْمَ الْعِرَاقَ ، وَكَانَتْ تُدْعَى ، وَقَتئِذٍ . مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ .
وَكَانَتْ أَرْضُ مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ هَذِهِ كَثِيرَةُ الْخِصْبِ ، يُرْوِيهَا
نَهْرَانِ عَظِيمَانِ ، هُمَا دِجْلَةُ وَالْفَرَاتُ . وَقَدْ أَزْدَهَرَتْ ^(٥) أَقْدَمُ مَدْيَنَةٍ
فِي الْعَالَمِ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ النَّهْرَيْنِ . فَإِنَّ السَّامِيِّينَ حَلُّوا بِسَهْلٍ أَكْثَرَ ،
قَبْلَ الْمَسِيحِ بِثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ ، وَاسْتَقَرُّوا ^(٦) هُنَاكَ . وَكَانَ يُقِيمُ
إِلَى الْجَنُوبِ مِنْهُمْ شَعْبٌ عَظِيمٌ حَازِقٌ ، يُقَالُ لَهُمُ السُّومِرِيُّونَ ،
لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَجْنَسِ السَّامِيِّ . وَقَدْ تَعَلَّمَ السَّامِيُّونَ مِنْ هَؤُلَاءِ
السُّومِرِيِّينَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ ، لِأَنَّ السَّامِيِّينَ ، وَمَنْ أَهْلُ بَادِيَةِ
رَحَّالُونَ ، كَانَتْ مَعَارِفُهُمْ قَاصِرَةً ^(٧) عَلَى النَّزْرِ ^(٨) الْيَسِيرِ .
فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، كَانَتْ لِإِخْدَى الْأَمِيرَاتِ السَّامِيَّاتِ تَعِيشُ عَلَى

(١) الغيث : المطر . (٢) الكلاء : السب رطب ، وابسه . (٣) أعوزهم الكلاء :
احتاجوا اليه . (٤) نزح عن دياره : بعد . (٥) ازدهرت : أضاءت وتلاوت .
(٦) استقروا بالمكان : سكنوا وثبتوا . (٧) قاصرة على القليل : لا تتجاوز به الى
غيره . (٨) النظر : القليل النافه

صِيفِ الْفُرَاتِ . وَقَدْ وَضَعَتْ ^(١) غُلَامًا ذَكَرًا ، دَعَتْهُ سَرْغُونَ .
وَحَشِيَّتْ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ ^(٢) أَحَدٌ ، إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ نَسْلِ مَلِكِي ،
فَوَضَعَتْهُ فِي سَفَطٍ ^(٣) ، وَأَرْسَلَتْهُ مَعَ تَيَّارِ ^(٤) النَّهْرِ . فَأَنْقَذَ أَحَدُ
السَّقَّائِنِ الْطِفْلَ ، وَرَبَّاهُ كَأَنَّهُ وَلَدٌ لَهُ . وَظَهَرَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ
الْغُلَامَ مِنْ نَسْلِ الْمُلُوكِ ، فَوَضَعَ التَّاجُ الْمَلِكِي عَلَى رَأْسِهِ ، وَكَانَ
أَوَّلَ مَلِكٍ سَامِيٍّ عَظِيمٍ ، وَدُعِيَ سَرْغُونَ الْأَوَّلَ . وَقَدْ أَخْضَعَ
السُّومِرِيِّينَ ، وَغَزَا سُورِيَّةَ وَفِلِسْطِينَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ . وَفِي الْأَنْبَاءِ أَنَّهُ
تَسَلَّطَ عَلَى أَفْطَارِ ^(٥) بَحْرِ الشَّمْسِ الْغَارِبَةِ (أَيْ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ) .
وَكَانَ أَوَّلَ الْفَاتِحِينَ ^(٦) فِي الْعَالَمِ ، وَلِإِمْبَرَاطُورِيَّتِهِ أَقْدَمَ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ
عَرَفَهَا التَّارِيخُ . وَتَوُفِّيَ سَنَةَ ثَمَسٍ مِئَةٍ وَالْفَيْنِ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ .

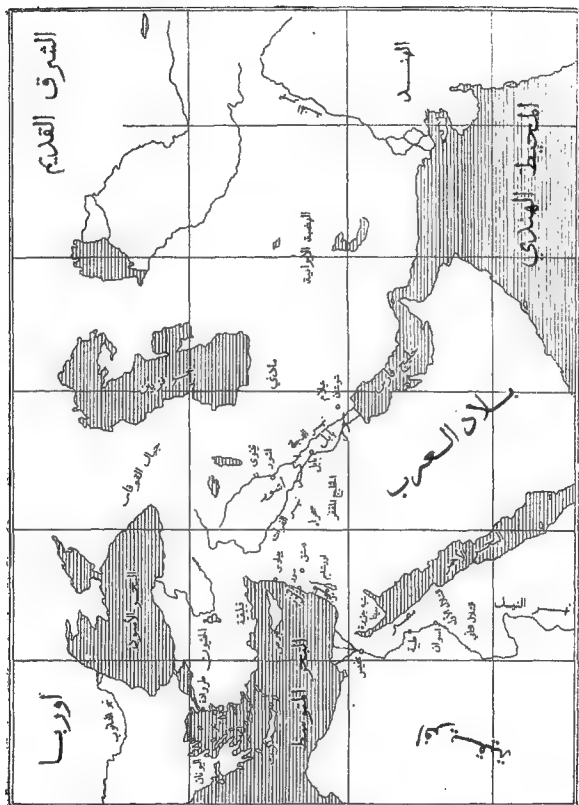
وَاتَّحَدَ السُّومِرِيُّونَ وَالْأَكْدِيُّونَ ، بَعْدَ سَرْغُونَ ، وَنَشَأَتْ
مِنْ الْقَرِيقَيْنِ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ ، عَظُمَ شَأْنُهَا ^(٧) جِدًّا ، وَدَامَتْ نَحْوَ
ثَلَاثِ مِئَةِ سَنَةٍ . وَلَوْ أُتِيحَ ^(٨) لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ،

(١) وضعت للمرأة : ولدت . (٢) يفتك به : يفتله . (٣) السفط : وعاء كالقفة .

(٤) تيار النهر : موجه . (٥) أفطار جمع قطر (بضم الفاف) : الاقليم والتاجية .

(٦) الفاتح : الذي يظلب على البلاد ويملكها قهراً . (٧) الشأن : الحال . (٨) اتاح

أفقه له الخبر : قدره .



وَاتَّفَقَ لَكُمْ أَنْ تَنْحَدِرُوا فِي نَهْرِ الْفُرَاتِ . وَتَزُورُوا إِحْدَى
الْمَدُنِ ، لَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا مِنَ الْبَدَائِعِ ^(١) الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهَا نَظِيرٌ
وَقَتِّدْ ، فِي أَيِّ قُطْرٍ آخَرَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، حَتَّى فِي مِصْرَ .
هُنَاكَ كَانَ فِي إِمْكَانِكُمْ أَنْ تُنَمِّزُوا السُّومِرِيِّ الْحَافِي الْقَدَمَيْنِ ،
وَالْحَلِيقَ الرَّأْسِ وَاللَّحِيَّةَ ، مِنَ السَّامِيِّ الْمُتَمَتِّلِ ^(٢) ، ذِي اللَّحِيَّةِ
الْكَثِفَةِ ^(٣) ، وَالشَّعْرَ الْغَزِيرَ . وَتَجْتَازُونَ فِي مَدِينَتِهِمْ ، ذَاتِ
الْأَكْوَاخِ الْمَبْنِيَّةِ بِاللِّبْنِ ^(٤) ، فَتَرَوْنَهُمْ يَبِيعُونَ الشَّعِيرَ ، وَالْحِنْطَةَ ^(٥)
وَالْبَقَرَ ، وَالضَّأْنَ ^(٦) ، وَالْمَاعِزَ ، وَالْخَيْرَ ، مَا عَدَا الْخَيْلَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ
لَدَيْهِمْ وَقَتِّدُ شَيْءٍ مِنْهَا . وَالْأَغْرَبُ أَنْ تَرَوْا الْحَمِيرَ تَجْرُ الْمَجَلَاتِ ^(٧) ،
وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ أَحْتَالَ بِالْمَجَلَةِ لِتَنْقُلَ الْأَثْقَالَ . وَقَدْ أَتَوْا
إِبَّانَ ^(٨) حُرُوبِهِمْ بِالْمَعْدِنِ مِنْ مِصْرَ ، حَيْثُ وُجِدَ أَوَّلًا .

وَكَانَ أَوَّلَادُهُمْ فِي مَدَارِسِهِمِ الْمَبْنِيَّةِ بِالطِّينِ ، يَنْهَمِكُونَ ^(٩)
فِي الْعَمَلِ . فَقَدْ كَانَ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ ، أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ لَوْحًا مُسَطَّحًا ^(١٠)

(١) البدائع جمع بديع : المخترعات . (٢) المتتمل : لايس النمل . (٣) الكتفة :
الكثيفة الغزيرة الشعر . (٤) اللبن : ما ضرب من الطين مريباً للبناء . (٥) الحنطة :
القمح . (٦) الضأن : اسم جنس لخلاف الماعز من الغنم . (٧) السجلات : الآلات التي
تحمل عليها الأثقال . (٨) إبان الحرب : حينها . (٩) ينهمكون في العمل : يجودون .
(١٠) المسطح : المنبسط .

مِنَ الطِّينِ اللَّيِّنِ ، لِيَرْسُمَ عَلَيْهِ صُورًا أَوْ عِلَامَاتٍ ، بِقَصَبَةٍ طَرَفُهَا
كَالْ^(١) مُرْبَعِ . وَكَانَ كُلَّمَا أخطأ يَسْطُ الطِّينَ ، وَيَعُودُ إِلَى
الرَّسْمِ مَرَّةً أُخْرَى . وَلَمْ يَكُنْ يَحْمِلُ فِي جَنِبِهِ مِمْحَاةً ، كَمَا يَفْعَلُ
صِنَارُ الْأَوْلَادِ فِي أَيَّامِنَا . وَمَتَى انْتَهَى مِنْ عَمَلِهِ ، يَذُرُّ^(٢)
قَلِيلًا مِنَ التُّرَابِ الْجَافِّ عَلَى لَوْحِهِ ، ثُمَّ يَضَعُهُ فِي الْخَارِجِ ،
لِيَقْسُوَ فِي الشَّمْسِ ، أَوْ يَضَعُهُ فِي فُرْنٍ ، لِيَصِيرَ خَزَفًا^(٣) .

وَلَمَّا تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ ، أَخَذُوا يُجِيبُونَ بِحِكَايَاتٍ بَسِيطَةٍ ،
عَنِ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى الْخَاصَّةِ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ بِنَا
رَأْيُ الْمِصْرِيِّينَ ، فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ .

وَهَكَذَا جَاءَتْنا تِلْكَ الْحِكَايَةُ الْجَمِيلَةُ عَنْ أَتَانَا الَّذِي بَحَثَ
عَنْ بَقْلَةٍ ، زَعَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ كَامِنَةٌ^(٤) فِيهَا . وَهِيَ أَقْدَمُ حِكَايَةٍ ،
عَنْ طَيْرَانِ الْإِنْسَانِ .

وَتَقُولُ الْحِكَايَةُ : « إِنَّ أَتَانَا أُغْتَمَّ جِدًّا ، لِأَنَّ امْرَأَتَهُ تَسَرَّ
عَلَيْهَا أَنْ تَضَعَ أَوْلَدَ الَّذِي حِيلَتْ بِهِ . وَكَانَ يَعْلَمُ بِوُجُودِ بَقْلَةٍ

(١) كال : غير حاد . (٢) يذر : يرش . (٣) الخزف : ماشوي من الطين
يالنار فصار فخاراً (يفتح الفاء) . (٤) كامنة : مخفية .

فِيهَا أَلْعُونُ لِمَرَأَتِهِ ، إِذَا وَجَدَ إِلَيْهَا مَبِيلًا . فَأَسْتَفَاتَ ^(١) بِشَمْسٍ ،
 الشَّمْسِ إِلَهِ ، لِإِسَاعِدِهِ عَلَى وَجْدَانِهَا . فَأَشَارَ عَلَيْهِ شَمْسٌ ، أَنْ
 يَسْتَشِيرَ بَعْضَ النُّسُورِ . فَاهْتَدَى أَتَانَا إِلَى النَّسْرِ ، وَأَعَانَهُ عَلَى قِتَالِ
 إِحْدَى الْحَيَّاتِ ، عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، لِيَسْتَنْفِثَ بِالْهَةِ
 الْوِلَادَةِ ، وَيَفُوزَ ^(٢) بِتِلْكَ الْبَقْلَةِ لِمَرَأَتِهِ ، فَمَسَكَ أَتَانَا بِالنَّسْرِ ،
 فَحَلَّقَ ^(٣) بِهِ إِلَى السَّمَاءِ . وَبَعْدَ سَاعَتَيْنِ ، بَدَتْ الْأَرْضُ تَحْتَهُمَا
 شَبِيهَةً بِتَلٍّ ، وَالْبَحْرُ شَبِيهًا بِخَيْرَةٍ . وَبَعْدَ سَاعَتَيْنِ أُخْرَيْنِ ،
 وَصَلَا إِلَى سَمَاءِ آتُو ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَجِدَا الْبَقْلَةَ هُنَاكَ ، فَوَاصِلَا
 الطَّيْرَانِ . وَبَعْدَ أَنْ طَارَا سَاعَتَيْنِ ثَلَاثَتَيْنِ اخْتَفَتِ الْأَرْضُ عَنْ
 أَعْيُنِهِمَا ، وَعَادَ أَتَانَا لَا يَرَى الْبَحْرَ ، فَتَوَجَّسَ ^(٤) خَوْفًا ، وَأَمَرَ
 النَّسْرَ أَنْ يَكُفَّ ^(٥) عَنِ الصُّعُودِ ، وَيَعُودَ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ .
 وَحِينَئِذٍ سَقَطَ هُوَ وَالنَّسْرُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَمَاتَا . وَلَمْ تُغْلِمْنَا
 الْحِكَايَةَ بِمَا جَرَى لِلْوَلَدِ ، وَالْمُظْنُونُ أَنَّهُ لَمْ يُولَدْ .
 وَأَدَّى سِرُّ الْمَوْتِ الْغَامِضِ ^(٦) إِلَى حِكَايَةِ الصَّيَّادِ أَدَابَةَ .

(١) استفأت : استعان . (٢) يفوز بالشيء : يظفر به . (٣) حلّق الطائر :

ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة . (٤) توجّس خوفًا : أحس به . (٥) كف عن
 الصعود : امتنع . (٦) الغامض : الخفي المبهم .

وَنَقُولُ الْحِكَايَةُ: «إِنَّ أَدَابَةَ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ، وَأَبْنَ الْإِلَهِ
إِيَّاهُ، نَالٌ مِنْ أَيْدِي الْحِكْمَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْلِ مِنْحَةً^(١)
الْخُلُودِ^(٢). وَفِيمَا هُوَ يَصْطَادُ ذَاتَ يَوْمٍ، حَطَمَتْ^(٣) رِيحُ الْجَنُوبِ
زَوْرَقَهُ، وَأَلْقَتْهُ إِلَى الْبَحْرِ. فَأَشْتَدَّ بِهِ الصَّقُّ^(٤)، وَكَسَرَ جَنَاحَيْ
رِيحِ الْجَنُوبِ انْتِقَامًا. وَبَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، دُعِيَ أَدَابَةُ لِيَمِثُلَ^(٥)
أَمَامَ آتُو، أَبِي الْآلِهَةِ وَمَلِكِهَا، لِلْمُحَاكَمَةِ. فَأَشْفَقَ^(٦) إِيَّاهُ
عَلَى ابْنِهِ، مِنْ الْمَكْرُوهِ^(٧) الَّذِي تَعَرَّضَ لَهُ، وَأَوْصَاهُ أَنْ
يَتَرَفَّقَ^(٨) فِي مُخَاطَبَةِ بَوَائِي السَّمَاءِ، وَأَنْ يَلْبَسَ ثَوْبَ الْحُزَنِ،
وَيُظْهِرَ الْأَسَى^(٩) وَالْأَسْفَ لِمَا وَقَعَ. وَأَعْلَمَ إِيَّاهُ أَدَابَةُ أَنْ
«الْبَوَائِيَّ لَا بُدَّ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ خُبَرَ الْمَوْتِ وَمَاءَهُ، وَثَوْبًا وَدُهْنًا،
وَحَذَرُهُ أَنْ يَأْكُلَ أَوْ يَشْرَبَ، وَلَكِنَّهُ أَوْصَاهُ أَنْ يَقْبَلَ الثَّوْبَ
وَيَلْبَسَهُ، وَيَقْبَلَ الدُّهْنَ وَيَدَّهِنَ بِهِ».

وَلَمَّا مَثَلَ أَدَابَةُ أَمَامَ عَرْشِ آتُو، جَرَى مَا أَنْبَأَ^(١٠) بِهِ إِيَّاهُ.

(١) المنحة: العطية. (٢) الخلود: العوام والبقاء. (٣) حطمت: كسرت.
(٤) الحق: شدة الاغتيال. (٥) يمثّل: يقوم متعصباً. (٦) أشفق: خلف.
(٧) المكروه: الشر. (٨) يترفق: يخلطف. (٩) الأسى: الحزن.
(١٠) أنبأ: أخبر.

وَلَمَّا أَبَى ^(١) أَنْ يَأْكُلَ وَيَشْرَبَ ، قَالَ آتُوا بَيْنِي :

— أَعِيدَاهُ إِذَنْ إِلَى الْأَرْضِ .

وَهَكَذَا خَسِرَ أَدَابَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ، نِعْمَةَ الْخُلُودِ
الَّتِي كَانَ آتُوا مُزْمِعًا ^(٢) أَنْ يَجُودَ بِهَا عَلَيْهِ . وَلَا شَكَّ أَنَّ إِلَهَهُ ، رَبَّ
الْحِكْمَةِ ، كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ خُبَرَ الْحَيَاةِ وَمَاءَهَا ، لَا بُدَّ أَنْ يُقَدِّمَ
لِلْأَدَابَةِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ تَعَمَّدَ ^(٣) الْكَلَامَ عَلَى خُبْرِ الْمَوْتِ
وَمَائِهِ لِئَلَّا يُصْبِحَ أَدَابُهُ خَالِدًا نَظِيرَهُ .

عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، حَاوَلَ ^(٤) أَجْدَادُكُمْ أَنْ يَحْتَلُوا مَسْأَلَةَ
الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ الْعَظِيمَتَيْنِ . وَسْتَطَاعُوا ، فِيمَا يَأْتِي مِنْ أَيَّامِكُمْ ،
حِكَايَاتٍ أُخْرَى كَثِيرَةً ، مِنْ مِثْلِ هَاتَيْنِ الْحِكَايَتَيْنِ ، فَتَقِفُونَ ^(٥)
مِنْهَا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَجْدَادُكُمْ مِنَ الْآرَاءِ وَالْمُتَعَقَّدَاتِ ^(٦) .

وَفِيمَا كَانَ أَمْرُ مُلُوكِ سُومَرٍ وَأَكَّدَ يَصِيرُ إِلَى الضَّعْفِ
شَيْئًا فَشَيْئًا ، أَخَذَتْ قَبِيلَةُ سَامِيَّةٍ جَدِيدَةً ، تَنَحَدِرُ إِلَى أَرْضِ

(١) أَبَى : رَفَضَ . (٢) مُزْمِعًا : عَلَزَمًا . (٣) تَعَمَّدَ : قَصَدَ . (٤) حَاوَلَ :

الْمُحَاوَلَةَ . (٥) وَقَفَ عَلَى الْأَمْرِ : فَهِمَهُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ . (٦) الْمُتَعَقَّدَاتُ :
الْأُمُورُ الَّتِي يَصْدُقُهَا الْإِنْسَانُ وَتَقْدِرُ بِهَا .

الفرات السفلى. وَقَدْ أُسْتَوَلَتْ هَذِهِ الْقَبِيلَةُ ، بُعَيْدَ ^(١) سَنَةِ
 أَلْفَيْنِ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، عَلَى بَابِلَ ، وَكَانَتْ وَقْتِيذَ قَرْيَةٍ حَقِيرَةٍ ،
 لَا ذِكْرَ لَهَا ، قَائِمَةً عَلَى عَدْوَةٍ ^(٢) الْفُرَاتِ . وَكَانَ مُلُوكُ بَابِلَ
 الْجُدُدُ ، مِنْ كِبَارِ الْمُحَارِبِينَ ، وَلَا سِيَّامَا حَمُورَابِي الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ،
 وَقَدْ مَلَكَ هَذَا فِي بَابِلَ ، نَحْوَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَتِسْعِ مِثَّةٍ وَأَلْفٍ
 قَبْلَ الْمَسِيحِ ، وَكَانَ ثَانِي مَلِكٍ عَظِيمٍ ، بَيْنَ الْمُلُوكِ السَّامِيِّينَ .
 وَقَدْ كُشِفَتْ رَسَائِلُ عَدِيدَةٍ ، كَتَبَهَا حَمُورَابِي ، تُشِيرُ إِلَى أَعْمَالِ
 هَذَا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ وَأَخْلَاقِهِ ^(٣) . وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي التَّارِيخِ ،
 وَقَفْنَا ^(٤) هَذِهِ الرِّسَائِلُ ، عَلَى طَرَفٍ ^(٥) مِنْ حَيَاةِ عَامِلَةٍ ، قَضَاهَا
 مَلِكُ آسِيَوِيٍّ قَدِيرٌ . فَقَدْ كَانَ الْمَلِكُ يُجْلِسُ ، فِي مَكْتَبِهِ فِي بَابِلَ ،
 مُسْتَعِدًّا لِيُثْلِمَ رَسَائِلَهُ إِلَى الْحُكَّامِ . وَكَانَ كَاتِبُ السَّرِّ يُخْرِجُ
 قَصَبَةً مِنْ مِثْلِهِ ^(٦) الْجَلْدِيَّةِ ، وَيُغَطِّي بِسُرْعَةٍ لَوْحًا صَغِيرًا
 مِنْ الطِّينِ بِالْعَلَامَاتِ . ثُمَّ يَذُرُّ ^(٧) قَبْضَةً ^(٨) مِنَ التُّرَابِ الْجَفِّ ،

(١) بعيد : تصغير بعد اي بعد قليل . (٢) العدو : شاطئ النهر والوادي .

(٣) إختلاق جمع خلق (بضم الخاء) : الطبع والمادة . (٤) وقفنا : اطلعتنا .

(٥) الطرف : الجانب والقطعة من الشيء . (٦) اللطقة : ما يشد به الوسط . (٧) ينثر

التراب : ينثره ويرشه . (٨) القبضة : ملء الكف .

عَلَى اللّٰوْحِ النَّدِيِّ^(١) ، لِئَلَّا يَلْتَصِقَ بِالْغِلَافِ الطِّينِيّ الَّذِي يُدْرَجُ^(٢) فِيهِ الرُّسَالَةُ . وَيَكْتُبُ الْعُنْوَانُ عَلَى الْغِلَافِ ، وَيَبْعَثُ بِالرُّسَالَةِ إِلَى الْفُرْنِ ، لِتَشْوَى فِيهِ . وَهَذِهِ الرُّسَائِلُ ذَاتُ شَأْنٍ ، وَفِي قِرَائَتِهَا مَا يُبْهِجُ^(٣) ، وَقَدْ تُرْجِمَتْ إِلَى لُغَاتٍ عَدِيدَةٍ .

غَيْرَ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَلْخَذَرُ^(٤) بِالْإِهْتِمَامِ ، مِنْ هَذِهِ الرُّسَائِلِ ، وَهُوَ الشَّرَائِعُ الَّتِي سَنَّا^(٥) حَمُورَابِي لِشُعْبِهِ . وَقَدْ أَمَرَ أَنْ تُحْفَرَ هَذِهِ الشَّرَائِعُ فِي حَجَرٍ عُلوُّهُ ثَمَانُونَ قَدَمًا . وَهِيَ كُمْ^(٦) بَعْضُهَا :

١ - إِذَا كَذَبَ أَحَدُ الشُّهُودِ ، فِي جُرْمٍ^(٧) يَسْتَوْجِبُ الْمَوْتَ ، وَعَجَزَ عَنْ تَأْيِيدِ^(٨) مُدَّعَاهُ بِالْحُجَّةِ^(٩) يُقْتَلُ .

٢ - إِذَا أُصْدَرَ حَاكِمٌ حَكْمًا ، وَتَقَضَّهَ^(١٠) فِيمَا بَعْدُ ، يُجَاكَمُ ، وَيَتَدَفَّعُ اثْنَيْ عَشَرَ ضِعْفَ^(١١) الْمُبْلَغِ الَّذِي حَكَمَ بِدَفْعِهِ ، وَيُعْزَلُ عَنْ عَمَلِهِ ، وَلَا يَعُودُ بَعْدَهَا ، إِلَى مَنْصِبِ الْحُكْمِ .

(١) الندي : اللبل . (٢) يدرج الشيء في الشيء : يدخله . (٣) يبهج : يفرح ويسر . (٤) ألخذر : أحمق . (٥) سن الصرعة : وضعها . (٦) هاكم : اسم فعل بمعنى خفوا . (٧) الجرم : الذنب . (٨) التأييد : الاثبات . (٩) الحجة : البرهان . (١٠) قضه ابطله . (١١) ضعف المبلغ : مثله في القدر .

- ٣ - مَنْ يَسْرِقْ مِنْ الْهَيْكَلِ ، أَوْ مِنْ الْقَصْرِ ، يُقْتَلُ ،
وَمَنْ يُلْفَ^(١) عِنْدَهُ أَلْمَالُ الْمَسْرُوقِ يُقْتَلُ أَيْضًا .
- ٤ - قَاطِعُ الطَّرِيقِ يُقْتَلُ ، مَتَى قُبِضَ عَلَيْهِ .
- ٥ - إِذَا أَسْلَمَ الْمَدِينُ أَمْرَأَتَهُ ، وَوَلَدَهُ ، وَبَنَتَهُ إِلَى
الدَّائِمِ ، لِيَعْمَلُوا لَهُ ، فَلَهُمْ يَقُومُونَ بِالْعَمَلِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ ،
ثُمَّ يُطْلَقُ سِرَاحُهُمْ .
- ٦ - إِذَا أَهَانَ الرَّجُلُ أَمْرَأَتَهُ ، وَلَمْ تَأْتِ^(٢) عَيْنًا
تَتَوَخَّأْ^(٣) عَلَيْهِ ، يَحِقُّ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ مَهْرَهَا^(٤) وَتَعُودَ إِلَى بَيْتِ أَيْهَا .
- ٧ - إِذَا ضَرَبَ الرَّجُلُ أَبَاهُ تُقَطَّعُ يَدُهُ .
- ٨ - إِذَا أَتْلَفَ رَجُلٌ عَيْنَ رَجُلٍ آخَرَ تُقْلَعُ عَيْنُهُ .
- ٩ - إِذَا أَسْقَطَ رَجُلٌ سِنَّ رَجُلٍ آخَرَ تُقْلَعُ سِنُّهُ .
- ١٠ - إِذَا ضَرَبَ عَبْدٌ رَجُلًا حُرًّا تُصَلَّمُ^(٥) أُذُنُهُ .
- ١١ - إِذَا جَرَحَ رَجُلٌ آخَرَ عَرَصًا^(٦) فِي مُشَاجَرَةٍ ،
يُدْفَعُ أَجْرَ الطَّيِّبِ .

(١) يُلْفَى : يَوجَدُ . (٢) يَأْتِي الْقِيَاءُ : يَفْعَلُهُ . (٣) أَخَذَهُ عَلَى ذَنْبِهِ : عَاقَبَهُ عَلَيْهِ . (٤) الْمَهْرُ : الصَّدَاقُ (بِكسْرِ الصَّادِ) وَهُوَ مَا يَجِبُ لِلرَّأْسِ مِنَ الْمَالِ تَنْتَضِعُ بِهِ شَرْعًا . (٥) سَلَّمَ الْأُذُنَ : قَطَعَهَا مِنْ أَصْلِهَا . (٦) فَعَلَهُ عَرَصًا : بَلَا رُوءِيَةً أَوْ قَصْدًا .

١٢ - إذا عالَجَ طَبيبٌ جُرْحَ رَجُلٍ نَمِيلٍ ، وَدَمَلَ^(١) ذَلِكَ الْجُرْحَ ، أَوْ قَامَ بِعَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ فِي عَيْنِهِ ، بِمَبْذُوعٍ^(٢) مِنَ النَّحَاسِ ، يَقْتَضِي^(٣) عَلَى عَمَلِهِ عَشْرَ وَزَنَاتٍ مِنَ الْفِضَّةِ أَجْرًا . وَإِذَا أَجْرَى ذَلِكَ لِرَجُلٍ فَقِيرٍ ، يَقْتَضِي خَمْسَ وَزَنَاتٍ . وَإِذَا أَجْرَى ذَلِكَ لِعَبْدٍ ، يَقْتَضِي^(٤) سَيِّدَهُ وَزَنَتَيْنِ .

١٣ - إذا قَامَ طَبيبٌ بِعَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ بِمَبْذُوعٍ مِنَ النَّحَاسِ ، وَمَاتَ الْأَعْلَى ، تُقَطَّعُ يَدُ الطَّيِّبِ .

١٤ إذا اسْتَكْرَى رَجُلٌ ثَوْرًا وَسَبَّ لَهُ الْأَعْمَى ، يَدْفَعُ نِصْفَ ثَمَنِهِ لِصَاحِبِهِ .

١٥ - إذا اسْتَكْرَى رَجُلٌ ثَوْرًا ، وَصَرَبَ اللَّهُ الثَّوْرَ فَمَاتَ ، يُكَلَّفُ^(٥) الْحَلْفَ ، وَ لَا يُطَالَبُ بِالثَّوْرِ .

هَذِهِ بَعْضُ الشَّرَائِعِ ، وَكُلُّهَا يَشْغُلُ^(٦) ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَسِتٍّ مِثْقَ سَطَرٍ فِي الْحَجَرِ . وَإِذَا قَرَأْتُمُوهَا كُلَّهَا يَأْخُذُكُمْ الْعَجَبُ مِنْ جَوْدَتِهَا .

(١) دمل المرح : أبرأه . (٢) للبضع : آلة يشق بها الجلد . (٣) يقتضي :

يطلب ويأخذ . (٤) قاضاه الدين : طلبه وقبضه منه . (٥) يكلف الشيء : يطلب منه

عمله على مشقة أو على خلاف عادته . (٦) يشغل : يملأ

وَلَمَّا مَاتَ تَحْزُورَانِي ، تَفَضَّتْ^(١) هَذِهِ الْحَيَاةَ الْهَادِئَةَ الرَّغْدَةَ^(٢) قِبَائِلُ جَدِيدَةٍ ، يُقَالُ لَهُمُ الْأَشُورِيُّونَ . وَكَانَ هُوَ لَأَسَامِيَّتَيْنِ أَيْضًا ، وَأَتَوْا مَعَهُمْ بِحَيَّوَانٍ غَرِيبٍ ، دَعَوْهُ « حَيَّوَانُ الْجِبَالِ » . وَهُوَ الْفَرَسُ الَّذِي أَخَذُوهُ مِنَ الْهُنُودِ الْأَوْرُيَّتَيْنِ ، وَهُمْ قَوْمٌ ، عَاشُوا فِي آسِيَا وَأُورُبَّا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا سَامِيَّتَيْنِ .

وَقَدْ جَاءَ الْأَشُورِيُّونَ مِنْ أَشُورَ ، عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْ نَهْرِ دِجْلَةَ . وَكَانُوا قَدْ تَعَلَّمُوا الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَقْوَامِ حَوْلَهُمْ ، وَلَا سِيَّامِ الْمِصْرِيِّينَ . وَقَدْ تَعَلَّمُوا الْكِتَابَةَ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ لَا مِنَ السُّومِرِيِّينَ وَالْأَكَدِيِّينَ . وَكَانُوا بِأَلَاخَصٍّ مِنْ كِبَارِ الْمُحَارِبِينَ ، وَأَسْبَقَ السَّامِيَّتَيْنِ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْخَيْلِ فِي الْحَرْبِ . فَزَحَفُوا جَنُوبًا إِلَى بَابِلَ ، وَأَسْتَوْلُوا^(٣) عَلَيْهَا ، وَغَدَوْا فِي نَحْوِ سَنَةِ ثَلَاثِ مِئَةٍ وَالْأَلْفِ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ ، تَمْلِكَةَ قَدِيرَةٍ . وَكَانَ إِلَى الْغَرْبِ مِنْهُمْ أُمَّمٌ قَوِيَّةٌ أَيْضًا . فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ مِصْرُ ، ثُمَّ فِلِسْطِينُ الَّتِي حَلَّ بِهَا الْعِبْرَانِيُّونَ ، ثُمَّ الْمُدُنُ الْفِينِيقِيَّةُ ، عَلَى سَاحِلِ

(١) تنص الحياة : كدحها . (٢) الحياة الرغدة : الطيبة النسعة . (٣) استولى

على المدينة : ملكها .

فِلِسْطِينَ وَسُورِيَّةَ ، وَأَخِيرًا الْأَرَامِيِّونَ أَوِ الشُّورِيِّونَ فِي سُورِيَّةَ ،
وَكَانَتْ عَاصِمُهُمْ دِمَشْقَ .

وَأَخَذَتْ أَشُورُ تَزْدَادُ قُوَّةً ، سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ ، وَابْتَنَتْ لَهَا
عَاصِمَةً كَبِيرَةً فِي نِينَوَى . وَلَمْ يَطُلِ الزَّمَنُ ، حَتَّى خَضَعَتْ آسِيَا
الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا لِنِينَوَى . فَقَدْ قَامَ فِي الْأَشُورِيِّينَ ، بَيْنَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ
وَعِشْرِينَ وَسَبْعِ مِئَةٍ ، وَسَنَةِ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَمِئَةٍ مِئَةٍ ، قَبْلَ
الْمَسِيحِ ، أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ عَظَمَاءَ ، هُمُ سَرْغُونُ الثَّانِي ،
وَسَنْطَارِبُ ، وَأَسْرَحَدُونُ ، وَأَشُورَبَانِيدَالُ . وَتَقْرَأُ فِيهَا خَلْفُوهُ ^(١) ،
مِنْ الْأَنَارِ الْمَكْتُوبَةِ ، مَا هُوَ نَظِيرُ هَذَا :

« قَدْ أَخَضَعْتُ أَقْطَارًا وَجِبَالًا وَمُدُنًا ، وَحَارَبْتُ سِتِينَ
مَلِكًا ، وَوَصَلْتُ فِي غَزَوَاتِي إِلَى جِبَالِ لُبْنَانَ . »
وَنَقْرَأُ أَيْضًا :

« أَرْسَلْتُ شَبِيهًا بِإِلَهِ الرِّغْدِ مَطْرًا هَطَالًا ، ^(٢) وَنَثَرْتُ
أَشْلَاءَ ^(٣) الْقَتْلَى ، وَوَقَفْتُ بِهَا نَهْرَ أَوْرُثُشَ (العاصي) عَنْ نَجْرَاهُ . »

(١) خلف العمي : تركه وراءه . (٢) المطر الهطل : النازل متتابعاً عظيم القطر

(بفتح الحاف) . (٣) أشلاء جمع شلو (بكسر الهمزة وسكون اللام) : عضواً للسان بعد
التفريق ، والجسد .



ملك اشوري

وَتَقْرَأُ أَيْضًا :

« حَاصِرْتُ مَدِينَةَ السَّامِرَةِ : وَاسْتَوْلَيْتُ عَلَيْهَا ، وَسَبَيْتُ^(١) سَبْعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَغَنِمْتُ خَمْسِينَ مِنْ مَرْكَبَاتِهِمْ ، وَأَطْلَقْتُ أَيَادِيَ خَدَمِي فِي مُمْتَلَكَاتِهِمْ ، وَأَقَمْتُ عَلَيْهِمْ ثُمَالِي ، وَفَرَضْتُ عَلَيْهِمْ الْجِزْيَةَ^(٢) الَّتِي كَانَ قَدْ فَرَضَهَا عَلَيْهِمُ الْمَلِكُ السَّابِقُ » .

وَيُعْزَى^(٣) هَذَا الْبَيَانُ الْأَخِيرُ ، إِلَى سَرْعُونَ الثَّانِي ، الَّذِي كَانَ أَمِيرَ الْجَيْشِ ، وَغَدَا مَلِكًا ، وَهُوَ مُحَاصِرُ مَدِينَةِ السَّامِرَةِ ، وَهِيَ نَابِلُسُ الْيَوْمِ . وَهَذَا الْبَيَانُ الْأَخِيرُ يُعَلِّمُنَا بِمَا أَصَابَ فِلِسْطِينَ ، بِأَيْدِي الْأَشُورِيِّينَ ، وَمِثْلُ هَذَا أَصَابَ مِصْرَ أَيْضًا .

وَخَضَعَ الْعَالَمُ الْقَدِيمُ لِنَيْنَوَى ، وَمِنْ هُنَاكَ ، كَانَ الْإِمْبَرَاطُورُ الْأَشُورِيُّ يُصْدِرُ أَوَامِرَهُ . وَقَدْ جَعَلَ نِظَامًا خَاصًّا ، لِسُعَاةِ^(٤) يَحْمِلُونَ رَسَائِلَهُ إِلَى الْأَطْرَافِ^(٥) ، فَكَانَ هَذَا النِّظَامُ شَبِيهًا بِنِظَامِ الْبَرِيدِ^(٦) فِي أَيَّامِنَا .

(١) سبي سكان المدينة : أسرهم وابعدهم وغربهم . (٢) الجزية : خراج الارض ، وما يؤخذ من الغنوب . (٣) عزى : ينسب . (٤) السعاة : جمع الساعي : البريد والرسول (٥) الاطراف : النواحي . (٦) البريد : ما تسميه العامة بالبوسطة .

وَكَشِفَتْ بِمَجْمُوعَةِ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ أَتْنَيْنِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ لَوْحٍ ،
 فِي عُزْرِ مَكْتَبَةِ أَشُورَبَانِيَالٍ فِي نِينَوَى . وَقَدْ بَقِيَتْ هُنَا
 الْأَلْوَا حُ عَلَى أَرْضِ الْمَكْتَبَةِ ، مُدَّةَ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَالْفَيْنِ .
 وَهِيَ الْيَوْمَ فِي لُنْدُنَ . وَعَلَيْهَا كُلُّهَا طَابِعٌ ^(١) الْمَلِكِ الْخَاصِّ ،
 عَلَى نَحْوِ ^(٢) مَا تَوْسَمُ ^(٣) بِهَذَا الْكُتُبِ فِي إِحْدَى مَكْتَبَاتِنَا الْحَدِيثَةِ .
 وَلَكِنِّي تُصَانُ هَذِهِ الْأَلْوَا حُ ، فَلَا يَأْخُذُهَا أَحَدٌ ، أَوْ يَكْتُبُ
 اسْمَهُ عَلَيْهَا ، ضَمَّنَ ^(٤) الطَّابِعُ هَذَا التَّحْذِيرَ ^(٥) :

« كُلُّ مَنْ يَأْخُذُ هَذَا اللَّوْحَ ، أَوْ يَكْتُبُ اسْمَهُ عَلَيْهِ إِلَى
 جَانِبِ اسْمِي ، فَلْيَحِلَّ عَلَيْهِ سُخْطُ ^(٦) أَشُورَ وَيَلِيَتْ وَغَضَبُهَا ،
 وَلْيَقْرَضْنَا ^(٧) اسْمَهُ وَنَسْلَهُ فِي الْأَرْضِ .

وَكَانَ أَشُورُ وَيَلِيَتْ مِنْ آلِهَةِ الْأَشُورِيِّينَ .
 وَوَقَعَ الْأَمْرُ الْعَظِيمُ جَفَاءً . فَلِإِنَّ نِينَوَى إِمْبَرَاطُورِيَّةَ
 الْأَشُورِيِّينَ الْقَدِيرَةَ حَاجَلَهَا الْقَضَاءُ ^(٨) فَحَقَّقَهَا ^(٩) . وَكَانَ السَّبَبُ فِي

(١) الطابيع : الحاتم يختم به . (٢) التحو : التل (بكسر الميم) والطريقة
 (٣) رسم المي : أثر فيه بلامه ما . (٤) ضمن الطابع تحذيراً : جعل التحذير فيه .
 (٥) التحذير : التنبيه . (٦) السخط : الغضب . (٧) قرض النسل : اهلكه .
 (٨) حاجلها القضاء : لم يعملها حكم الله . (٩) عققها : أبطلها وعماها .

ذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَسْقَطَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّاتِ الْعَظِيمَةَ كُلَّهَا . فَإِنَّ الْفَلَاحِينَ كَانُوا يُدْعَوْنَ الْمَقْبَالِ فِي الْحُرُوبِ ، فَلَمْ يَنْقُضِ طَوِيلُ زَمَنٍ ، حَتَّى حَلَّ الْفَقْرُ بِالْبِلَادِ . فَالْفَلَّاحُونَ أَصْحَابُ الْمَزَارِعِ ، وَلَا سِوَا الصَّغِيرَةِ مِنْهَا ، هُمْ قِوَامُ ^(١) كُلِّ مِصْرٍ ، وَلَوْلَا هُمْ لَمَا قَامَتْ لِأَيِّ قُطْرٍ عَظِيمٍ قَائِمَةٌ ^(٢) .

ثُمَّ نَشَأَ ^(٣) أَعْدَاءُ جُدُدٍ ، فَجَاءَتْ قَبِيلَةٌ أُخْرَى مِنَ الصَّخْرَاءِ ، يُقَالُ لَهُمُ الْكَلْدَانِيُّونَ . وَجَاءَ مِنَ الشَّمَالِ الْهُنُودُ الْأَوْرُبِيُّونَ ، وَالسَّكِيثِيُّونَ ، وَالْمَادِيِّونَ ، وَالْفُرْسُ . وَأَصْبَحَ مُعْظَمُ تِجَارَةِ الْبِلَادِ فِي أَيْدِي الْأَرَامِيِّينَ . وَكَانَ ، مِنْ تَأْمِيرِ ذَلِكَ ، أَنْ غَدَتِ الْأَرَامِيَّةُ آخِرَ أَلْفَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ كُلَّهَا ، وَحَلَّتْ فِي فِلِسْطِينَ مَحَلَّ الْأَلْفَةِ الْعِبْرِيَّةِ .

وَهَكَذَا دَبَّ الضَّعْفُ إِلَى نِيَّوَى ، فَسَقَطَتْ سَنَةٌ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ . وَنَمَعْنَا مِنْ قَمَرِ النَّبِيِّ الْعِبْرِيِّ نَاحُومَ صَدَى ^(٤) هُنَافٍ ^(٥) الْفَرَحِ ، الَّذِي رَدَّدَتْهُ ^(٦) الْأَفَاقُ ، مِنْ بَحْرِ

(١) قوام الأمر : نظامه وعماده . (٢) قائمة الشيء : ما يقوم عليه . (٣) نشأ :

حدث وتجدد . (٤) الصدى : ما يردده الجبل أو غيره إلى المصوت مثل صوته .

(٥) الهتاف : الصوت العالي . (٦) ردد الصوت : كرده .

اشوريون يهاجمون العدو في مركبات حربية



قَزَيْنَ إِلَى نَهْرِ التِّل، لَمَّا دَرَتِ الْأُمَمُ أَنَّ بَلِيَّةَ الشَّرْقِ الْمُطْمَى
قَدْ سَقَطَتْ، فَلَا تَقُومُ لَهَا قَائِمَةٌ أَبَدَ الدَّهْرِ^(١). وَلَمَّا جَازَ^(٢)
الْيُونَانُ هُنَاكَ بَعْدَ قَرْنَيْنِ، كَانَتْ الْأُمَّةُ الْأَشُورِيَّةُ قَدْ بَادَتْ،
وَكَاذَ ذِكْرُهَا يَضْمَحِلُ^(٣)، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نِينَوَى، مَدِينَتِهِمِ الْعَظِيمَةِ
سِوَى رُكَّامٍ^(٤) عَظِيمٍ مِنَ الْأَنْقَاضِ^(٥) كَمَا هِيَ الْيَوْمَ.

وَهَضَّتْ إِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْكَلْدَانِيِّينَ الْجَدِيدَةُ، وَاتَّخَذَتْ بَابِلَ
حَاصِمَةً لَهَا. وَكَانَ أَعْظَمُ مُلُوكِهَا نَبُوخَذَنْصَرُ (بِمُخْتَصَّرٍ)، الَّذِي
مَلَكَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، بَلَغَ فِيهَا، مِنْ الْعَظَمَةِ وَالْمَجْدِ، مَا جَمَلَهُ مِنْ
أَعْظَمِ الشَّخْصِيَّاتِ النَّابِئَةِ^(٦) فِي تَارِيخِ الشَّرْقِ.

وَقَدْ اغْتَاطَ نَبُوخَذَنْصَرُ مِنْ تَمَرُّدِ أُورَشَلِيمَ عَلَيْهِ لَمَرَّةً
بَعْدَ الْمَرَّةِ، فَهَدَمَ الْمَدِينَةَ، سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسَ مِثَّةٍ،
قَبْلَ الْمَسِيحِ، وَسَيَّ مُعْظَمَ أَهْلِهَا إِلَى بَابِلَ.
وَقَدْ جَعَلَ بَابِلَ مِنْ أَجْمَلِ مُدُنِ الْعَالَمِ. هُنَاكَ، كَانَ قَصْرُهُ

(١) أَبَدَ الدَّهْرِ : طَرَفَ زَمَانٍ لَتَأْ كِيدِي السَّيْئِلِ غَيًّا وَابْتِغَاءً . (٢) جَازَ : مَرَّ .

(٣) يَضْمَحِلُ : يَطْلُؤُ . (٤) الرُّكَّامُ : التُّرَاكِمُ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ كَالرَّمْلِ وَمِثْلِهِ .

(٥) أَنْقَاضٌ جَمْعُ قَفْصٍ (بِضَمِّ النُّونِ) : مَا تَهْدِمُ مِنَ الْبِنَاءِ . (٦) النَّابِئَةُ : الْبَهِيرَةُ .

(٧) يَهْرَفُ عَلَيْهِ : يَطْلُعُ عَلَيْهِ مِنْ فَوْقِ .

الْمَلَكِي يُشْرِفُ^(١) عَلَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ التَّلُّ، الَّذِي كَانَ يَقُومُ
عَلَيْهِ الْمَيْكَلُ، وَتَلِيهِ^(٢) سَطُوحٌ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كُسِيتَ
مِنْ نَبَاتِ الْبِلَادِ الْحَارَّةِ حُلَّةٌ خَضَاءَ، فَكَانَتْ حَدَائِقَ شَاخَةً^(٣)
فِي الْمَوَاءِ. فِي هَذِهِ الْحَدَائِقِ، كَانَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ يَجْلِسُ فِي ظِلِّ
النَّخِيلِ الظَّلِيلِ^(٤)، وَيَقْضِي سَاعَاتِ فَرَاغِهِ^(٥) مُتَمَتِّعًا بِالطَّرْفِ^(٦)
بِحِمَالِ مَدِينَتِهِ. وَهَذِهِ الْحَدَائِقُ، الَّتِي أُقِيمَتْ سَطُوحًا مُتَدَرِّجَةً
فِي الصُّعُودِ، كَانَتْ هِيَ الْجَنَّاتِ الْمَعْلَقَةِ، الَّتِي أَمْتَدَّ ذِكْرُهَا إِلَى
الْقُرْبِ، وَعَدَّهَا الْيُونَانُ فِي جُمْلَةِ مَجَائِبِ الدُّنْيَا. وَلَمْ يَبْقَ الْآنَ
إِلَّا آثَارُ ضَيْلَةٍ^(٧)، مِنْ كُلِّ تِلْكَ الرُّوَائِعِ وَالْغَرَائِبِ، الَّتِي
أَذَاعَتْ شُهْرَةً بَابِلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ.



(١) ولي الشيء يليه : قرب منه . (٢) شاخنة : عالية . (٣) الظليل : ذو
الظل أو الدائم الظل . (٤) الفراغ : الخلو من العمل . (٥) الطرف : العين .
(٦) ضئيلة : قليلة حقيرة .

ضُحَى الشَّرْقِ (١)

تَقَدَّمَ بِنَا الْحَدِيثُ عَنْ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْكَلْدَانِيَّةِ ، وَمَلِكِهَا
الْعَظِيمِ ، نَبُوخَذَنْصَرَ ، الَّذِي مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ وَخَمْسٍ مِثَّةً ،
قَبْلَ الْمَسِيحِ . فَهَذَا الْمَلِكُ كَانَ آخِرَ الْمُلُوكِ الْعَظَمَاءِ ، قَبْلَ سُقُوطِ
الْأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ الْعَظِيمَةِ . وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ أَفْطَارَ الْمَشْرِقِ الْمُتَمَدِّدَةَ
الْقَدِيمَةَ فَقَدَتْ ، مُنْذُ ذَلِكَ الْوَقْتِ فَصَاعِدًا ، مُعْظَمَ مَا كَانَ لَهَا
مِنْ الْإِقْتِدَارِ عَلَى السَّيْرِ إِلَى الْأَمَامِ ، وَالْقِيَامِ بِأَكْثِشَافَاتِ وَفُتُوحِ
جَدِيدَةٍ ، فِي مِصْرٍ (٢) الْحَضَارَةِ ، كَمَا كَانَ شَأْنُهَا فِي الْأَعْصَرِ
الثَّلَاثَةِ الْكَبِيرَةِ ، عَلَى الرَّافِدَيْنِ (٣) .

وَفِي الْوَاقِعِ ، أَنَّ زَعَامَةَ (٤) الشُّعُوبِ السَّامِيَّةِ ، فِي الْعَالَمِ
الْقَدِيمِ ، كَانَتْ قَدْ شَارَقَتْ (٥) النَّهَابَةَ ، وَأَنَّ هَذِهِ الشُّعُوبَ
أَوْشَكَتْ أَنْ تُخْلِي السَّبِيلَ أَمَامَ شُعُوبٍ جَدِيدَةٍ . وَكَانَ أَهْلُ

(١) الضحى : حين تفرق الشمس . (٢) المصغر : الفسحة الواسعة للسياق . (٣) الرافدان :

نهر دجلة والفرات . والرافد مجرى ماء يصب في نهر كبير . (٤) الزعامة : الرئاسة .

(٥) شارفت النهاية : فاربتها ودنت منها .

الصَّحْرَاءِ الْجَنُوبِيَّةِ الرَّحَالُونَ قَدْ أَوْشَكُوا أَنْ يَخْضَعُوا لِلشُّعُوبِ
الْأَشْدَاءِ، أَهْلِ الْجِبَالِ وَالشُّهُولِ الشِّمَالِيَّةِ وَالشَّرْقِيَّةِ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ
الرَّحَالُونَ الْقَادِمُونَ مِنَ الشِّمَالِ جِنْسًا أَيْضًا، نَدَعُوهُ الْجِنْسَ
الْهِنْدِيَّ الْأَوْرُبِّيَّ، لِأَنَّ أَنْسَالَهُمْ ^(١) مُتَشَبِّهُونَ الْيَوْمَ، فِي آسِيَا
الْعَرَبِيَّةِ وَأُورُبَّا، مِنْ تَخُومِ ^(٢) الْهِنْدِ إِلَى الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ.

وَقَدْ عَاشَ أَجْدَادُهُمُ الْأَوَّلُونَ عَيْشَ الْقَبَائِلِ الرَّحَالَةِ،
يُطَوِّفُونَ ^(٣) فِي الْأَمْرَاعِي الْقَسِيحَةِ، فِي أُرُبَّا وَآسِيَا الْوُسْطَى،
مِنْ بَحْرِ الْبَلْطِيكِ إِلَى الْجِبَالِ، فِي غَرْبِي الصِّينِ. وَاتَّخَذَتْ
قَبَائِلُ كَثِيرَةٌ مِنْهُمْ جَنُوبًا، إِلَى الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، وَإِلَى الْجَنُوبِ
الْعَرَبِيِّ مِنْ آسِيَا. وَأَخَصَّ ^(٤) هَذِهِ الْقَبَائِلُ هُمُ الْآرِيُّونَ الَّذِينَ
حَلَوْا بِشِمَالِي الْهِنْدِ، وَالْحِثِّيُونَ بِآسِيَا الصُّغْرَى، وَالْفُرْسُ
وَالْمَادِيُّونَ بِإِيرَانَ، وَالْيُونَانُ، وَالرُّومَانُ، وَالْقَبَائِلُ الْإِيطَالِيَّةُ.

وَتَلَبَّثَتْ ^(٥) بِالْشِّمَالِ قَبَائِلُ أُخْرَى، تَحَدَّرَ ^(٦) مِنْهَا أَخَصُّ
شُعُوبِ أُرُبَّا الْحَدِيثَةِ، وَمِنْهُمْ الرُّوسُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الشُّعُوبِ

(١) أنسال جمع نسل : ذرية . (٢) تخوم جمع تخم (بضم التاء وفتحها وسكون

الحاء) : حدود . (٣) يطوفون في المراعي : يسبون فيها ويجولون . (٤) أخص :

أفضل وأوجه . (٥) تلبثت : توقفت . (٦) تحدَّر : نزل وتولد .

السَّلاَفِيَّةِ، وَالْجِرْمَانُ، وَالْبَرِيْطَانِيُّونَ، وَالْفِرَنْسَاوِيُّونَ، وَكَثِيرُونَ غَيْرُهُمْ.

وَكَانَ الْمَادِيُّونَ وَالْفُرْسُ أَوَّلَ الشُّعُوبِ الْكَبِيرَةِ، الَّتِي اخْتَلَتْ^(١) بِمَحْضَارَةِ الشَّرْقِ الْقَدِيمَةِ، الَّتِي تَكَلَّمْنَا عَلَيْهَا فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ. وَكَانُوا يُقِيمُونَ بِالْجِبَالِ، إِلَى الشَّرْقِ مِنْ دِجْلَةَ. وَكَانُوا قَوْمًا جَبَلِيِّينَ، جُفَاءً^(٢) أَشِدَّاءَ، يَعِيشُونَ عَلَى الْفِلَاحَةِ، لَا يَعْرِفُونَ فَنًّا، وَلَا أَدْبًا، سِوَى ذِكْرِيَّاتِ الْمَاضِي الْمُثِيرَةِ. وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى نَوْعٍ رَاقٍ مِنَ الدِّينِ، وَأَخْلَاقٍ سَامِيَةٍ.

وَكَانَ أَحَدُ مُلُوكِ الْمَادِيِّينَ يُدْعَى أَسْتِيَايُجُسَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ الْأَوْلَادِ سِوَى بِنْتٍ وَاحِدَةٍ، تُدْعَى مَنَدَانَةَ. فَزَوَّجَهَا رَجُلًا مِنَ الْفُرْسِ يُدْعَى قَمِيزَ. وَبَعْدَ انْقِضَاءِ سَنَةٍ عَلَى هَذَا الزَّوْاجِ، رَأَى أَسْتِيَايُجُسُ، فِي رُؤْيَا، كَأَن كَرَمَةً^(٣) نَجَمَتْ^(٤) مِنْ أَحْشَاءِ^(٥) مَنَدَانَةَ، وَأَمْتَدَّتْ حَتَّى ظَلَلَتْ آسِيَا كُلَّهَا. فَأَذْرَكَ مَغْزَى^(٦) الرُّؤْيَا، وَأَرْسَلَ فِي طَلَبِ ابْنَتِهِ، وَفِي عَزْمِهِ أَنْ يَفْتِكَ^(٧)

(١) اخلك به : اتصل به . (٢) الجفأة جمع الجفافي : الغليظ الخشن . (٣) الكرمة

شجرة النعنع . (٤) نجمت : ظهرت وطلعت . (٥) أحشاء جمع حشا : ما انضمت عليه

العضلوع . (٦) المغزى : القصد . (٧) فتك به : قتله .

بوكليها لدى موليه . فَوَضَعَتْ مَنَدَانَةً غُلَامًا ذَكَرًا ، دُعِيَ
كُورُش . فَاسْتَدْعَى اسْتِيَا جُسُ قَائِدَهُ الْأَمِينِ هَرَبَاغُوسَ
وَخَاطَبَهُ قَائِلًا :

— إِنِّي مُوَلٌّ^(١) عَلَيْكَ فِي أَمْرٍ ، وَأَمَلُّ أَنْ تَكُونَ عِنْدَ
يَقْتِي بِكَ ، وَأَلَّا تَكِلَ^(٢) إِلَى آخِرِينَ الْقِيَامَ بِمَا أَرْغَبُ أَنْ تَقُومَ
بِهِ ، أَنْتَ نَفْسُكَ . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمُرُكَ بِهِ ، كَانَتْ الْعَاقِبَةُ
وَخِيمَةً^(٣) عَلَيْكَ . وَالْآنَ خُذِ الْغُلَامَ كُورُشَ وَأَقْتُلْهُ .

فَأَجَابَ هَرَبَاغُوسُ :

— عَلَيَّ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ .

وَلَمْ يَشَأْ هَرَبَاغُوسُ أَنْ يَحْمِلَ دَمَ الْغُلَامِ ، فَسَلَّمَهُ إِلَى رَاعِيهِ
مِتْرِيدَاتٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فِي الْجِبَالِ غُرُضَةً^(٤) لِلسَّبَاعِ .
وَأُتِّقَ أَنْ زَوْجَةَ الرَّاعِي مِتْرِيدَاتٍ كَانَتْ قَدْ وَضَعَتْ ، قَبْلَ يَوْمٍ ،
وَلَدًا مَيْتًا . فَلَمَّا رَأَتْ الطِّفْلَ الْجَمِيلَ ، وَعَرَفَتْ أَصْلَهُ ، عَرَضَتْ

(١) عول عليه : استعان به وانكل عليه . (٢) وكل اليه الأمر يكل : سله

وفوضه اليه . (٣) العاقبة الوحيدة : الآخرة الرديئة الضارة . (٤) جعلته عرضة للسباع :
لصبته لها .

عَلَى زَوْجِهَا أَنْ يَحْمِلَ وَلَدَهَا الْمَيِّتَ إِلَى الْجِبَالِ . فَوَافَقَهَا مِثْرِدَاتُ
عَلَى ذَلِكَ ، وَعُنِيَتْ ^(١) زَوْجَةَ الرَّاعِي بِتَرْيِيسَةِ كورُش .

وَلَمَّا بَلَغَ كورُشُ الْعَاثِرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ، عَلِمَ اسْتِیَاجِسُ
بِالْمَكِيدَةِ ^(٢) ، وَلَمْ يُظْهِرْ شَيْئًا مِنَ الْغَضَبِ ، بَلِ اسْتَدْعَى
هَرَبَاغُوسَ وَقَالَ :

— إِنِّي أَغْرِفُ أَنَّ الْوَلَدَ لَا يَزَالُ حَيًّا ، فَلَا بَأْسَ ^(٣) عَلَيْكَ . وَقَدْ
أَشْجَانِي ^(٤) أَمْرُ الْغُلَامِ ، وَلَسْتُ أَقْوَى عَلَى عِتَابِ بَنِي فِي شَأْنِهِ .
وَالْآنَ ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ ^(٥) خَيْرًا ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُرْسِلَ وَلَدَكَ ،
لِيَكُونَ فِي مُحَبَّةِ كورُش ، وَأَنْ تَكُونَ أَنْتَ فِي مُحَبَّةٍ عَلَى
الْمَلَأْدَةِ هَذَا الْمَسَاءِ . فَقَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَقِيمَ عِيدًا ، شُكْرًا لِلْإِلَهِ الَّتِي
تَسَبَّبَتْ ^(٦) بِنَجَاتِهِ الْغُلَامِ .

وَأَمَرَ اسْتِیَاجِسُ أَنْ يُقَطَعَ وَلَدُ هَرَبَاغُوسَ لَدَى وُصُولِهِ ،
فَارْبَا إِرْبَا ^(٧) ، وَأَنْ يُشْوَى بَعْضُهُ ، وَيُسْلَقَ الْبَعْضُ الْآخَرُ ، وَيَهَيَّأَ

(١) عنيت بتريجه : اهتمت . (٢) المكيدة : الخديعة والحيلة . (٣) لا بأس
عليك : لا خوف . (٤) أشجاني : احزنني . (٥) أقوى عليه : اقدر . (٦) العاقبة :
آخر كل شيء . (٧) تسببت بِنجاته : كانت سبباً لها . (٨) اربباً اربباً : عضواً عضواً .

كُلُّهُ لِيُقَدَّمَ عَلَى الْمَائِدَةِ . وَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الْعِشَاءِ ، قُدِّمَتْ
الْمَصَافُ^(١) مِنْ لَحْمِ الضَّانِ إِلَى سَائِرِ الْمَدْعُوعِينَ ، وَأَمَّا هَرَبَاغُوسُ
فَقُدِّمَ إِلَيْهِ جَسَدُ ابْنِهِ كُلُّهُ ، مَا عَدَا الرُّأْسَ وَالْأَطْرَافَ^(٢) ، فَإِنِهَا
وُضِعَتْ عَلَى حِدَةٍ^(٣) فِي سَلَةٍ مُنْطَاطَةٍ . وَبَعْدَ أَنْ أَكَلَ هَرَبَاغُوسُ
جَاءَ الْخَدْمُ بِالسَّلَةِ . فَلَمَّا رَأَاهَا ، سَأَلَهُ أَسْتِياجُسُ قَائِلًا :

— أَتَذَرِي مِنْ لَحْمِ أَيِّ وَحْشٍ ضَارٍ^(٤) أَكَلْتُ ؟
فَأَجَابَ هَرَبَاغُوسُ :

— نَعَمْ يَا مَوْلَايَ . وَكُلُّ مَا يَسُرُّ الْمَلِكَ يَسُرُّنِي أَنَا أَيْضًا .
وَقَدْ دَرَى هَرَبَاغُوسُ بِالْأَمْرِ ، فَحَقَّدَ عَلَى الْمَلِكِ . وَبَلَغَ
كُورُشُ مَبْلَغَ الرُّجَالِ ، وَسَاعَدَهُ هَرَبَاغُوسُ سِرًّا فِي التَّمَرُّدِ^(٥) عَلَى
الْمَلِكِ . فَاسْتَوَلِيَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ ، وَطَرَحَا أَسْتِياجُسَ فِي السِّجْنِ .
وَلَمْ يَلْبَثْ كُورُشُ أَنْ غَدَا سَيِّدَ الْبِلَادِ . وَلَمْ تَنْقُصِ خَمْسُ
مِائَتِينَ حَتَّى كَانَتْ قُوَاتُ الْمَمْلَكَةِ الْفَارِسِيَّةِ الصَّغِيرَةِ قَدْ

(١) المصاف جمع صفة : القصعة المنبسطة . (٢) اطراف البدن : اليدين
والرجلان والرأس . (٣) وضعت على حدة : أي متباعدة من غيره . (٤) ضري بالصيد :
نموده واولع به واقتنسه . (٥) التمرد . المعيان (بكسر الميم) .

اُكْتَسَحَتْ^(١) آسِيَا الصُّغْرَى بِقِيَادَةِ كورُشَ، وَبَلَّغَتْ الْبَحْرَ
الْمُتَوَسِّطَ، وَأَصْبَحَتْ زَعِيمَةَ الْمَمَالِكِ فِي الْعَالَمِ الشَّرْقِيِّ. وَأَخَذَ
أَهْلُ الْغَرْبِ يَنْظُرُونَ إِلَى كورُشَ نَظَرَ الْإِعْجَابِ وَالْخَوْفِ.

وَكَانَ الْجَيْشُ الْفَارِسِيُّ الَّذِي قَادَهُ كورُشُ مُؤَلَّفًا مُعْظَمُهُ مِنْ
الْأَسَاوِرَةِ^(٢). وَكَانَ هَؤُلَاءِ يُنْطَرِقُونَ الْعَدُوَّ عَنْ بُعْدٍ وَابِلًا^(٣)
مِنْ سِهَامِهِمْ، قَبْلَ الْتِحَامِ^(٤) الْحَرْبِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ. ثُمَّ تَشَدُّ^(٥)
عَلَى الْعَدُوِّ كَوَاكِبُ^(٦) مِنْ مَهَرَّةِ الْفُرْسَانِ، تَظَلُّ حَتَّى ذَلِكَ
الْوَقْتِ تُحَوِّمُ^(٧) عَلَى جَنَاحَيْهِ، فَتُجْهِزُ^(٨) عَلَيْهِ.

وَسَرَّعَانَ^(٩) مَا أَقْبَسَ^(١٠) الْفُرسُ مِنْ الْمَدَنِيَّةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي
وَجَدُوهَا، فِيمَا أَسْتَوْلَوْا عَلَيْه مِنْ الْبِلَادِ، وَكَوَّنُوا مِنْهُ إِمْبَرَاطُورِيَّةً
كَبِيرَةً، اُمْتَدَّتْ مِنْ نَهْرِ الْهِنْدُوسِ إِلَى بَحْرِ الْبَحَّةِ، وَمِنْ الْمُحِيطِ
الْهِنْدِيِّ إِلَى بَحْرِ فَرْزِين. وَمِثْلُ هَذِهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْوَاسِعَةِ
الْمُتَمَدِّدَةِ الْأَطْرَافِ كَانَ يَقْتَضِي، مِنْ الْقُدْرَةِ عَلَى إِدَارَتِهِ،

(١) اُكْتَسَحَ الْبِلَادُ: ذَهَبَ بِهَا وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا. (٢) الْأَسَاوِرَةُ جَمْعُ الْأَسْوَارِ (بضم
الهمزة وكسرهما): الزَّامِي بِالسَّهَامِ. (٣) الْوَابِلُ: الْمَطَرُ الشَّدِيدُ. (٤) التَّحْتَمُ الْحَرْبُ:
اشْتَبَكَتْ. (٥) شَدَّ عَلَى الْعَدُوِّ: حَمَلَ عَلَيْهِ. (٦) كَوَاكِبُ جَمْعُ كَوْكَبَةٍ: الْجَمَاعَةُ.
(٧) حَوِّمَ عَلَى الْعَدُوِّ: دَارَ بِهِ. (٨) أَجْهَزَ عَلَيْهِ: شَدَّ عَلَيْهِ وَاتَمَّ قَتْلَهُ. (٩) سَرَّعَانَ:
اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَسْرَعَ. (١٠) أَقْبَسَ: بِمَعْنَى تَعَلَّمَ.

وَالْأَضْطِلَاعُ بِشُؤْنِهِ ^(١) مَا لَمْ يُعْهَدْ فِي ^(٢) مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ فِيمَا مَضَى .
وَقَدْ كَانَ هَذَا الْعَمَلُ عَظِيماً جِداً ، بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعٍ ^(٣)
كُورُشَ إِنْجَازِهِ ^(٤) . وَلَكِنَّهُ كَانَ أَبَادِيٌّ بِهِ ، وَأَتَمَّهُ بَعْدَهُ
دَارِيُوسُ الْكَبِيرُ (سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ إِلَى سَنَةِ
خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ) . فَكَانَتْ إِمْبَرَاطُورِيَّتُهُ
الْمُنَظَّمَةُ أَحْسَنَ تَنْظِيمٍ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ ، فِي تَارِيخِ الشَّرْقِ
الْقَدِيمِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ .

وَكَانَ دَارِيُوسُ عَادِلاً فِي حُكْمِهِ ، رَفِيقاً ^(٥) حَكِيماً ، غَيْرَ أَنَّ
رَعِيَّتَهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا ، وَلَا رَيْبَ ، رَأْيٍ فِي إِدَارَةِ الْبِلَادِ . بَلْ
كَانَ كُلُّ مَا يَأْمُرُ بِهِ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ يُعَدُّ شَرِيعَةً ، وَلَمْ يَكُنْ
عَلَى شَعْبِهِ سِوَى أَنْ يُذْعِنَ صَاحِغراً ^(٦) لِإِرَادَتِهِ . وَقَدْ أُنْشِأَ طُرُقاً
جَيِّدَةً ، وَصَلَتْ أَقْسَامَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، فَكَانَ
السَّعَاءُ الْمَلَكِيَّوْنَ يَجْمَعُونَ أَوَامِرَهُ إِلَى الْجِهَاتِ فِي آسِيَا ، وَفِي
مِصْرَ أَلَّتِي كَانَتْ ، هِيَ أَيْضاً ، خَاضِعَةً لَهُ . وَرَبَّمَا لَمْ تَكُنْ رَسَائِلُهُ

(١) اضطلع بالعمل : قوي عليه . (٢) عهد : يعرف . (٣) الوسع : القدرة .
(٤) انجز العمل : قضاه . (٥) الرفيق : اللطيف . (٦) أذعن صاغراً : خضع ذالاً .

تَصِلُ إِلَى أَصْحَابِهَا فِي مِثْلِ السَّرْعَةِ الَّتِي تَصِلُ فِيهَا رَسَائِلُنَا الْيَوْمَ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَصِلُ فِي سُرْعَةٍ لَمْ تُعْهَدْ فِيهَا مَضَى. وَلَمْ تُثَقِّلْ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ الرِّسَالِ وَخَذَهَا، بَلْ ثَقَلَتْ أَنْوَاعُ السَّلْعِ^(١) أَيْضًا. وَفِي جُمْلَةٍ مَا حَمَلَهُ الثَّجَارُ مِنَ الْهِنْدِ الدَّجَاجِ، الَّذِي كَانَتْ الْهِنْدُ مَوْطِنَهُ الْأَصْلِيَّ، وَظَلَّ يَجْهولًا فِي أَقْطَارِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ، حَتَّى حَمَلَتْهُ الْمَوَاصِلَاتُ الْفَارِسِيَّةُ مِنَ الْهِنْدِ إِلَى أَوْرُبَّا.

وَكَانَ الْحُكْمُ الْفَارِسِيُّ، لِلْعَالَمِ الشَّرْقِيِّ حَامَةً، عَهْدٌ^(٢) غَيْبَةٌ^(٣) وَسَلَامٌ. وَقَدْ دَامَ هَذَا الْحُكْمُ زُهَاءً^(٤) مِثْقَلِ سَنَةٍ (إِثْنَتَيْ نَحْوِ سَنَةٍ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ مِثَّةٍ، قَبْلَ الْمَسِيحِ). وَكَانَ تَرَاخِي^(٥) الزَّمَنِ دَبَّ الضَّعْفُ إِلَى مُسْلُوكِ الْفُرْسِ، وَلَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ نَظِيرُ كُورُشَ وَدَارِيُوسَ قُوَّةً وَجِدْقًا، بَلْ مَالُوا إِلَى التَّرَفِ^(٦)، وَرَكَنُوا إِلَى الدَّعَةِ^(٧)، وَتَرَكُوا كَثِيرًا مِنْ مَهَامِ الْمُلْكِ لِلْحُكَّامِ وَالْمَوْطَنِيِّينَ. فَكَانَ بِذَلِكَ مِنَ الْفَسَادِ وَالْخَلَلِ^(٨) فِي الْإِدَارَةِ مَا آدَى إِلَى الضَّعْفِ وَالْإِلْحِطَاطِ.

(١) السلع جمع سلعة : المتاع وما يتاجر به . (٢) العهد : الزمان . (٣) الغيبة :

حسن الحال . (٤) زهاء : مقدار . (٥) تراخي الزمن : امتداده . (٦) الترف :

التنعم ورغد العيش . (٧) الدعّة : الراحة وخفض العيش . (٨) الخلل : الوهن والفساد .

وَلَمَّا كُنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي دِيَانَةِ الْمِصْرِيِّينَ وَالسَّامِيِّينَ الْقَدَمَاءَ ،
يَجْدُرُ^(١) بِنَا أَنْ نَنْظُرَ أَيْضًا فِي دِيَانَةِ هَؤُلَاءِ الْهُنُودِ الْأَوْرُمِيِّينَ
أَوِ الْآرِيِّينَ :

لَمْ يَكُنِ الْآرِيُّونَ الْقَدَمَاءَ يَعْرِفُونَ الْكِتَابَةَ ، وَلَمْ يُخَلِّفُوا
شَيْئًا مِنَ الْأَثَارِ الْمَكْتُوبَةِ ، غَيْرَ أَنَّ مُعْتَقِدَاتِ أَنْسَالِهِمْ تَدُلُّ
عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَهُمْ نَوْعٌ رَاقٍ مِنَ الدِّينِ ،
يُخَصِّرُ سُلُوكَ الْإِنْسَانِ فِي « الْأَفْكَارِ
الصَّالِحَةِ » وَ « الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ » . وَلِلنَّارِ
فِي هَذَا الدِّينِ مَنْزِلَةٌ سَامِيَةٌ . وَكَانَ لَهُمْ
لَفَيْفُ^(٢) مِنَ الْكَهَنَةِ دُعَا « مَوْقِدِي
النَّارِ » .



الملك داريوس

غَيْرَ أَنَّ الْمَادِيِّينَ وَالْفُرسَ دَانُوا^(٣)
بِدِينٍ جَدِيدٍ ، مِنْ أَلْخَطَرِ^(٤) بِمَكَانٍ ، لَا
يَرَالُ يَدِينُ بِهِ قَوْمٌ فِي إِيرَانَ ، يُدْعَوْنَ

(١) يجدر : يحسن . (٢) اللفيف : الجمع العظيم من اخلاط شتى . (٣) دان
بالدين : اتخذه ديناً . (٤) الخطر : ارتهاق القدر .

زَرْدُشْتِيَّيْنِ . وَمُؤَسَّسُ هَذَا الدِّينِ رَجُلٌ أَسْمُهُ زَرْدُشْتُ ، نَشَأَ نَحْوَ
 مِائَةِ سَنَةٍ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، فِي الْجِبَالِ الشَّرْقِيَّةِ . وَيُؤَثَّرُ ^(١)
 عَنْ هَذَا الرَّجُلِ أَنَّهُ ضَحِكَ فِي يَوْمِ مَوْلِدِهِ نَفْسِهِ . وَكَانَ فِي
 حَدَائِهِ ^(٢) يُحِبُّ الْحِكْمَةَ وَالْإِسْتِقَامَةَ ، وَأَعْتَزَلَ ^(٣) النَّاسَ ،
 وَأَقَامَ مُنْفَرِدًا فِي أَحَدِ الْجِبَالِ ، حَيْثُ كَانَ يَعِيشُ عَلَى الْجُبْنِ . وَقَدْ
 دَمَّرَتِ النَّيْرَانُ الْجَبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ ، غَيْرَ أَنَّ زَرْدُشْتَ نَجَا سَالِمًا ،
 وَأَخَذَ مِنْ تَمَّ يَعْظُمُ النَّاسَ .

وَعَلَى رَأْيِ زَرْدُشْتَ أَنَّ عَهْدَ جَمَشِيدَ ، مَلِكِ إِيْرَانِ الْقَدِيمِ ،
 كَانَ هُوَ الْعَهْدُ الذَّهَبِيُّ لِبِلَادِهِ . «وَكَانَ جَمَشِيدُ أَبَا شَعْبِهِ ، وَأَعْظَمَ
 إِنْسَانٍ أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ . فَلَمْ يَهْلِكْ فِي أَيَّامِهِ حَيَوَانٌ ، وَامَّ
 تَدْعُ الْحَاجَةُ إِلَى الْمَاءِ ، أَوْ إِلَى أَشْجَارٍ مُثْمِرَةٍ ، أَوْ إِلَى حَيَوَانَاتٍ
 صَالِحَةٍ لِقَوْتِ الْبَشَرِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي ضِيَاءِ مُلْكِهِ بَرْدٌ ، وَلَا
 حَرٌّ لَا فَيْحٌ ، وَلَا مَوْتٌ ، وَلَا أَهْوَاءٌ ^(٤) جَائِعَةٌ ^(٥) ، وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ ،
 مِمَّا يُعَدُّ مِنْ أَعْمَالِ الْأَرْوَاحِ الشَّرِيرَةِ . وَكَانَ النَّاسُ يَبْدُونَ ^(٦)

(١) يُوَثَّرُ : يَنْقُلُ . (٢) الْحَدَائِثُ : الشَّبَابُ وَأَوَّلُ السَّرِّ . (٣) اعْتَزَلَ النَّاسَ :

أَجْعَدَ عَنْهُمْ . (٤) أَهْوَاءٌ جَمْعُ هَوًى : أُمِّيَالُ النَّفْسِ . (٥) جَائِعَةٌ : لَا يُمْكِنُ ضَبْطُهَا .

(٦) يَبْدُونَ : يَظْهَرُونَ .

دائماً في سِنِّ أَلْخَامِسَةِ عَشْرَةَ ، وَالْأَوْلَادُ يَكْتَبُونَ فِي مَنْجَى ^(١)
مِنَ الْأَخْطَارِ ، فِي عَهْدِ جَمَشِيدَ أَبِي شَعْبِهِ .

وَكَانَتْ غَايَةُ الدِّينِ الَّذِي نَادَى بِهِ زَرْدُشْتُ هِيَ الْمَوَدَّةُ
إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمَصْرِ الذَّهَبِيِّ . وَهَاكَ مَا عَلَّمَهُ هَذَا الدِّينُ :

فِي أَلْبَدِّ كَانَ الرُّوحَانِ ، رُوحُ الْخَيْرِ وَرُوحُ الشَّرِّ . وَلِكُلِّ
مِنْ هَذَيْنِ الرُّوحَيْنِ قُدْرَةٌ عَلَى الْخَلْقِ وَالْإِبْدَاعِ ^(٢) . فَأَهْرَمَزْدُ
هُوَ النُّورُ وَالْحَيَاةُ ، وَيَخْلُقُ كُلَّ مَا هُوَ تَقِيٌّ صَالِحٌ ، كَالشَّرِيعَةِ ،
وَالنِّظَامِ ، وَالصِّدْقِ . وَأَهْرِمَنْ هُوَ الظُّلُمَةُ ، وَالْقَدَرُ ، وَالْمَوْتُ ،
وَيَخْلُقُ كُلَّ مَا هُوَ شَرٌّ فِي هَذَا الْعَالَمِ . وَلَمَّا قَامَ زَرْدُشْتُ
بِدَعْوَتِهِ ، كَانَ الرُّوحَانِ مُتَعَادِلَيْنِ ^(٣) فِي الْقُوَّةِ . وَالنَّايَةِ الَّتِي تَوَخَّاهَا ^(٤)
هِيَ تَغْلِبُ رُوحُ الْخَيْرِ أَخيراً عَلَى رُوحِ الشَّرِّ .

وَأَهْرَمَزْدُ هُوَ وَحْدَهُ الرَّبُّ وَالْإِلَهِ فِي عَالَمِ الصَّلَاحِ ، غَيْرَ
أَنَّ لَهُ مِنْ الْأَرْوَاحِ الْمُقَدَّسَةِ أَعْوَاناً كَثِيرِينَ . وَهِيَ قُوَاتُ
الْفِكْرِ الصَّالِحِ ، وَالنِّظَامِ الْمُحْكَمِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْفَاضِلَةِ ، وَالْخَلْقِ

(١) منجى : مكان النجاة . (٢) الإبداع : صنع الشيء لا على مثال .

(٣) متعادلين : متساويين . (٤) توخاها : تسددها وتطلبها دون سواها .

الْمَقْدَسِ ، وَالصَّحَّةِ ، وَالْخُلُودِ . وَقُوَاتُ الشَّرِّ هِيَ تَقْيِضُ ^(١)
قُوَاتِ الْخَيْرِ .

وَيَبْدَأُ الْعِرَاكُ عِنْدَمَا تَلْتَقِي الْأَرْوَاحُ . وَتَارِيخُ هَذَا الْعِرَاكِ
هُوَ تَارِيخُ الْعَالَمِ . وَالْخَلِيقَةُ كُلُّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ، أَحَدُهُمَا
خَاصٌّ بِأَهْرَمَزْدَ ، وَالثَّانِي خَاصٌّ بِأَهْرِمَنْ . وَلَا يَتَفَرِّقُ الرُّوحَانِ
وَلِنَّمَا تَتَفَرَّقُ مَخْلُوقَاتُهُمَا الَّتِي يُرْسِلَانَهَا إِلَى أَلْيَدَانِ . وَمِيدَانُ هَذَا
الْعِرَاكِ هُوَ الْعَالَمُ الْحَالِيُّ .

وَالْإِنْسَانُ يَقُومُ فِي وَسْطِ الْمَرْكَةِ ، وَرَوْحُهُ هِيَ مَوْضُوعُ
هَذِهِ الْحَرْبِ . وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ أَحَدَ مَخْلُوقَاتِ أَهْرَمَزْدَ كَانَ
لِأَهْرَمَزْدَ الْحَقُّ أَنْ يُنَاقِشَهُ ^(٢) الْحِسَابَ . غَيْرَ أَنَّ أَهْرَمَزْدَ
خَلَقَهُ حُرًّا فِي مَقَاصِدِهِ وَأَعْمَالِهِ ، فَكَانَ لِذَلِكَ عُرْضَةً لِتَأْثِيرِ
قُوَاتِ الشَّرِّ . وَيَشْتَرِكُ الْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْعِرَاكِ بِحَيَاتِهِ كُلِّهَا
وَأَعْمَالِهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ . وَهُوَ ، بِتَدْيِينِهِ ^(٣) الصَّادِقِ ، وَبِأَعْمَالِهِ ،
وَأَقْوَالِهِ ، وَأَفْكَارِهِ الصَّالِحَةِ ، وَبِاخْتِفَاضِهِ عَلَى الدَّوَامِ بِطَهَارَةِ

(١) التقيض : الخالف . (٢) يناقشه الحساب : يبلغ الغاية في حابه . (٣) التدين :
اتخاذ الدين (بكسر الدال) .

جَسَدِهِ وَنَفْسِهِ ، يُضْعِفُ قُوَّةَ الشَّيْطَانِ ، وَيَزِيدُ قُوَّةَ الصَّالِحِ ،
وَيُقِيمُ لَهُ حَقًّا فِي الْجَزَاءِ عِنْدَ أَهْرَمَزْدَ . وَهُوَ ، بِتَدْيِينِهِ الْكَاذِبَ ،
وَبِأَعْمَالِهِ ، وَأَقْوَالِهِ ، وَأَفْكَارِهِ الطَّالِحَةِ ^(١) ، وَبِأَنْوَاعِ الرُّجْسِ ^(٢)
يَزِيدُ قُوَّةَ الشَّرِّ ، وَيَخْدُمُ الشَّيْطَانَ .

وَنَقْسِمُ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ إِلَى قِسْمَيْنِ : قِسْمٍ يَمِيشُهُ عَلَى
الْأَرْضِ ، وَقِسْمٍ يَمِيشُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَالْقِسْمُ الَّذِي يَمِيشُهُ بَعْدَ
الْمَوْتِ تَبِيعَةٌ ^(٣) وَنَتِيجَةُ حَيَاتِهِ عَلَى الْأَرْضِ . فَإِنَّ أَفْكَارَ كُلِّ
إِنْسَانٍ ، وَأَقْوَالَهُ ، وَأَعْمَالَهُ تُسَجَّلُ ^(٤) فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ عَلَى حِدَةٍ .
وَتَكُونُ أَعْمَالُهُ الطَّالِحَةُ دُيُونًا عَلَيْهِ . وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ الطَّالِحَةُ
لَا تُنْسَخُ ^(٥) ، وَلَكِنْ فِي الْإِمْكَانِ أَنْ تُوَازَنَ ^(٦) بِفَضْلِ مِنَ
الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ .

وَتَصِلُ رُوحُ الْإِنْسَانِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى جِسْرِ الْحِسَابِ الْقَائِمِ
عَلَى الطَّرِيقِ الْمُتَفَضِّي ^(٧) إِلَى السَّمَاءِ . وَهُنَا يُنَاقَشُ الْحِسَابُ عَلَى

(١) الطالحة : بخلاف الصالحة . (٢) الرجس : القذر والعمل الفسيع .

(٣) التبعة : ما يتربى على العمل من الخير أو الشر . (٤) تسجل : لكتب وتعيد .

(٥) تنسخ : تبطل . (٦) توازن : تقابل وتساوى . (٧) المتفضي : للتبهي والوصل .

أَعْمَالِهِ فِي الْحَيَاةِ . فَإِذَا رَجَحَتْ ^(١) أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةَ ، يَسِيرُ مِنْ فَوْرِهِ ^(٢) إِلَى الْفِرْدَوْسِ وَحِصَاةِ النَّعِيمِ . وَإِذَا رَجَحَتْ أَعْمَالُهُ الطَّالِحَةَ ، يَسْقُطُ نِهَائِيًّا فِي حَوْزَةِ ^(٣) الشَّيْطَانِ ، وَيُقْضَى عَلَيْهِ بِعَذَابِ جَهَنَّمَ إِلَى الْأَبَدِ . وَإِذَا تَكَافَأَتْ ^(٤) أَعْمَالُ الْخَيْرِ ، وَأَعْمَالُ الشَّرِّ ، فَإِنَّ الرُّوحَ تَصِيرُ إِلَى طَوْرِ ^(٥) وَسَطٍ مِنَ الْوُجُودِ ، وَلَا يَبْتَ ^(٦) نَصِيحَتُهَا النَّهَائِيُّ إِلَّا عِنْدَ الدَّيْنُونَةِ الْآخِرَةِ .

يَبْدُ أَنْ الْإِنْسَانَ جَدِيرٌ بِالشَّفَقَةِ ! فَقَدْ أُصِيبَ بِالْعَمَاةِ ^(٧) وَالْجَهْلِ ، فَلَا يَعْرِفُ الشَّرِيعَةَ الْأَزَلِيَّةَ ، وَلَا مَا يَنْتَظِرُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَسَرْعَانَ مَا يَنْشَبُ ^(٨) فِي حِبَالَةِ ^(٩) قُوَاتِ الشَّرِّ الَّتِي تَعْمَلُ عَلَى ^(١٠) هَلَاكِه الْأَبَدِيِّ .

وَلِذَا أَرَادَ أَهْرَمَزْدُ بِنِعْمَتِهِ أَنْ يَفْتَحَ عُيُونَ الْبَشَرِ ، بِأَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا ، يَقُودُهُمْ فِي الطَّرِيقِ السَّوِيِّ ^(١١) ، طَرِيقِ الْخَلَاصِ . وَلَمَّا كَانَ زَرْدُشْتُ رَجُلًا رُوحَانِيًّا ، فَقَدْ وَجَدَ أَهْلًا

(١) رجحت : هزئت حتى مالت . (٢) من فوره : حالادون أن يستمر .
(٣) الحوزة : الناحية . (٤) تكافأت : تساوت . (٥) الطور : الحال . (٦) يبت : الحكم : يقطع ويمضي . (٧) العماة : النوايا والضلال . (٨) ينشب : يطلع .
(٩) الحبال : المصيدة . (١٠) عمل على هلاكه : سعى فيه . (١١) السوي : للمستوي والمستقيم .

لِهَذِهِ الْمِثْمَةِ . وَاعْتَقَدْ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لِقِيَامِ نَبِيِّ ، يَكُونُ
بِمَثَابَةِ ^(١) دَعْوَةِ أَخِيرَةٍ مِنْ أَهْرَمَزْدَ لِلْبَشَرِ عَامَّةً ، لِأَنَّ
مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ كَانَ قَدْ أَقْتَرَبَ ، فَلَا يَلْبَثُ أَهْرَمَزْدُ أَنْ يَدْعُوَ
قُوَاتِهِ كُلَّهَا لِلْحَرْبِ نِهَائِيَّةٍ مَعَ قُوَاتِ الشَّرِّ . وَعِنْدَئِذٍ ، يَكُونُ
أَوَّلُ عَهْدِ الْمَمْلَكَةِ الْوَاحِدَةِ ^(٢) ، تَمْلِكَةِ اللَّهِ الْكَامِلَةِ ، فِي السَّمَاءِ
وَعَلَى الْأَرْضِ . وَفِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ تُشْرِقُ الشَّمْسُ عَلَى الدَّوَامِ ،
وَيَمِيشُ الْأَتْقِيَاءُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَيْشَةً سَعِيدَةً رَغْدَةً ^(٣) ، لَا تُرْعِجُهَا
قُوَّةٌ مِنْ قُوَاتِ الشَّرِّ ، فِي مُخْبِتَةِ أَهْرَمَزْدَ وَمَلَائِكَتِهِ ، إِلَى
الْأَبَدِ . وَيَنَالُ كُلُّ مُؤْمِنٍ ، مُكَافَأَةً لَهُ ، الْبَقَرَةَ الَّتِي لَا نَفَادَ ^(٤)
لَهَا ، وَنِعْمَةَ الْفِكْرِ الصَّالِحِ . وَيَنَالُ النَّبِيُّ ، وَالْأَمْرَاءُ مُحَامَاهُ
جَزَاءً خَاصًّا .

وَالْبَقَرَةُ عَطِيَّةُ أَهْرَمَزْدَ لِلْإِنْسَانِ ، وَكَانَتْ تُعَدُّ حَيَوَانًا
مُقَدَّسًا . وَتِلْكَ فِكْرَةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِقَوْمٍ مُتَحَضِّرِينَ ^(٥) ، الْفَوَا ^(٦)
فِلَاحَةُ الْأَرْضِ . فَالْبَقَرَةُ هِيَ الْحَيَوَانُ الَّذِي يُؤْتِي ^(٧) الْإِنْسَانَ

(١) الثَّابِتَةُ : الْمَنْزِلَةُ . (٢) الْوَاحِدَةُ مُؤَنَّثُ الْوَاحِدِ : الْفَرْدَةُ . (٣) عَيْشَةٌ رَغْدَةٌ :

طَبِيعَةً مُتَسَعَةً . (٤) الْفَنَاءُ : الْفَنَاءُ . (٥) الْمُتَحَضِّرُونَ : الْقِيَمُونَ الْمُسْتَوْرُونَ بِخِلَافِ

الرَّحَالِينَ . (٦) الْفَوَا : تَمُودُوا . (٧) يُؤْتِي مُضَارِعُ آتَى : أَعْطَى .

قوتاً، وَيُسَاعِدُهُ عَلَى أَعْمَالِهِ الْيَوْمِيَّةِ، وَبِهِ تَقُومُ صِنَاعَةُ الْفَلَاحِ،
بِخِلَافِ قَاطِعِ الطَّرِيقِ الْمُتَوَحِّشِ فِي الْقَفْرِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْبَقَرَةَ .
وَلَمْ يُبْقِ زَرْدُشْتُ إِلَّا عُضْراً وَاحِداً، مِنْ عَنَاصِرِ الدِّينِ
الْقَدِيمِ، فِي كَامِلِ قِدَامَتِهِ، وَهُوَ النَّارُ الَّتِي كَانَتْ تُعَدُّ أَنْفَى
مَظْهَرٍ لِأَهْرَمَزْدَ وَقَوَاتِ الْخَيْرِ . فَأُقِيمَتْ مَعَابِدُ لِلنَّارِ فِي كُلِّ
مَكَانٍ، وَعَدَّ النَّبِيُّ مُوَيْدِي النَّارِ كَهَنَةَ الدِّينِ الْحَقِيقِيِّ، وَالْوَسْطَاءُ^(١)
بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . وَعَدَا زَرْدُشْتُ أَوَّلَ مُوَسَّسٍ عَظِيمٍ لِمُعْتَقَدٍ^(٢)
دِينِيٍّ . وَدَعِيَ كِتَابَهُ الْمُقَدَّسُ أِفِسْتَا .

وَقَدْ كَانَ مُلُوكُ الْفُرْسِ، الَّذِينَ مَرَّ بِنا ذِكْرُهُمْ، مِنْ أَخْلَصٍ^(٣)
النَّاسِ إِيمَانًا بِدِينِ زَرْدُشْتُ وَتَعْلِيمِهِ . وَقَدْ اُنْتَشَرَ هَذَا الدِّينُ
بِسُلْطَانِهِمْ^(٤) فِي آسِيَا الْغَرْبِيَّةِ كُلِّهَا . وَقَدْ زَعَمَتْ^(٥) الْأُمَمُ الَّتِي
كَانَ لَهَا السُّلْطَانُ بَعْدَ الْفُرْسِ، وَأَخْصَهَا الْيُونَانُ، أَنَّ مُلُوكَ
الْفُرْسِ كَانُوا طُغَاةً^(٦) شَرْقِيَّينَ، فُسَاءً، بَرَابِرَةً . وَهَذَا لَا
يَصْدُقُ كُلُّهُ، فَإِنَّ مُلُوكَ الْفُرْسِ، لَمَّا كَانُوا مِنْ أَتْبَاعِ زَرْدُشْتُ

(١) الوسطاء جمع الوسيط : المتوسط بين المتخاصمين وغيرهم . (٢) المعتمد : ما

يصدق به الإنسان ويؤمن به . (٣) أخلس : أبقى وأبقى . (٤) السلطان : القدرة

والملك . (٥) زعم : قال قولاً حقاً أو بطلاً . (٦) الطغاة جمع الطاغى : الظالم .

الصَّادِقِينَ ، كانوا يَشْعُرُونَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِلْأَمْرِ الَّتِي عَنَتُ^(١)
لِسُلْطَانِهِمْ مِنْ عَدَالَةِ الْحُكْمِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابَةِ الْبَهْشْتُونِيَّةِ
عَلَى لِسَانِ دَارِيُوسَ الْكَبِيرِ مَا نَصَّهُ^(٢) :

«لِهَذَا سَاعَدَنِي أَهْرَمَزْدُ، ... لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ شَرِيرًا، وَلَا
كَذَّابًا، وَلَمْ أَكُنْ ظَالِمًا، لَا أَنَا وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَمْرَتِي. وَقَدْ
حَكَمْتُ بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ».



(١) عنت : خضعت وذلت . (٢) النص من الكلام : هو ما لا يحتمل الا معنى واحداً .

حِصَا طِرْوَادَةِ الْحَشِيَّةِ

لَمْ تَلَبَثْ هَذِهِ الْحَيَاةَ الرَّاقِيَّةُ ، الَّتِي رَأَيْنَاهَا فِي مِصْرَ وَآسِيَا ،
أَنَّ عَبَرْتَ بَحْرَ لِيحَةَ إِلَى أَوْرُبَا ، وَأَسْتَقَرَّتْ ^(١) أَوَّلًا عِنْدَ الشُّعُوبِ ،
الَّتِي كَانَتْ تَقْطُنُ فِي الْأَقْطَارِ ، الَّتِي نَدَعُوهَا الْيَوْمَ بِلَادَ الْيُونَانِ ،
وَقَدْ دُعِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْجَدِيدَةُ إِنْجَالًا بِالْمَدِينَةِ الْإِيحِيَّةِ ،
فِي حِينِ أَنَّ مَدِينَةَ مِسِينَةَ ، الْمَدِينَةَ الشَّهِيرَةَ فِي بِلَادِ الْيُونَانِ
نَفْسَهَا ، دُعِيَتْ بِالْمَدِينَةِ الْمِسِينَةِ ، وَفِي حِينِ أَنَّ مَدِينَةَ إِكْرِيَتَ
دُعِيَتْ بِالْمَدِينَةِ الْمِينَوَانِيَّةِ .

وَكَانَتْ جَزِيرَةُ إِكْرِيَتَ أَوَّلَ مَوَاطِنِ الْمَدِينَةِ فِي الْعَالَمِ
الْإِيحِيِّ . وَكَانَ مُلُوكُهَا ، الَّذِينَ دُعُوا مُلُوكَ الْبَحْرِ ، مُتَسَلِّطِينَ فِي
كِئْسُوسَ ، إِحْدَى مَدِينِهَا الشَّهِيرَةِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْإِيحِيَّةُ
أَرْقَى مَدِينَاتِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ^(٢) . وَلَمْ تَلَبَثْ مَدِينَةُ
كِئْسُوسَ أَنْ دُمِّرَتْ ، نَحْوَ سَنَةِ خَمْسِينَ وَثَلَاثِ مِثْقَلٍ وَأَلْفَ ،

(١) استقرت : سكنت وثبتت . (٢) على الإطلاق : على وجه عام لا استثناء فيه .

قَبْلَ الْمَسِيحِ ، وَأَنْتَقَلَتِ الْمَدِينَةُ الْإِلِيْحِيَّةُ إِلَى مِيسِيْنَةَ ، وَإِلَى آسِيَا الصُّغْرَى . وَلَمْ تَلْبَثْ هُنَاكَ أَنْ عَدَتْ عَلَيْهَا الْعَوَادِي ^(١) أَيْضًا . فَإِنَّ شَعْبًا هِنْدِيًّا أَوْ رُبِّيًّا قَدْ أَنْحَدَرَ زَاحِفًا مِنَ الشَّامِ ، وَأَسْتَوَلَى عَلَى الْبِلَادِ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْغَزَاءُ أَشَدَّ مِنَ الشُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَحْطَ تَقَافَةً ^(٢) . وَقَدْ أَعْمَلُوا فِي الْبِلَادِ يَدَ التَّخْرِيبِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ اسْتَبَقُوا ^(٣) مَا كَفَى لِكَيْ تَنْشَأَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ مَدِينَةٌ أَعْظَمُ .

وَهَؤُلَاءِ الْغَزَاءُ هُمُ الشَّعْبُ ، الَّذِي نَدَعُوهُ الْيَوْمَ بِالْيُونَانِيِّينَ ، مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا ، فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ ، قَبَائِلَ شَتَّى . وَقَدْ اسْتَوَلَى فِيسْمٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى بِلَادِ الْيُونَانِ ، وَعَبَّرَ كَثِيرُونَ أَيْضًا مَضِيقِي الْبُوسْفُورِ وَالْدَّرْدَانِيلِ ، وَأَسْتَقَرُّوا فِي آسِيَا الصُّغْرَى حَيْثُ بَنَوْا مَدِينَةً طِرْوَادَةَ الشَّهِيرَةَ ، فِي مَوْقِعِ مَدِينَةٍ سَابِقَةٍ . وَفِي نَحْوِ سَنَةِ مِائَتَيْنِ وَأَلْفٍ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ ، نَشِيتِ ^(٤) الْحَرْبُ الطَّرْوَادِيَّةُ ، بَيْنَ أَهْلِ طِرْوَادَةَ وَسُكَّانِ بِلَادِ الْيُونَانِ الْجُدُدِ . وَقَدْ كَانَ الطَّرْوَادِيُّونَ

(١) عَدَتْ عَلَيْهَا الْعَوَادِي : نَزَلَتْ بِهَا الْعَصَائِبُ . (٢) التَّقَافَةُ : الْحِلَقُ وَالْفَهْمُ .

(٣) اسْتَبَقُوا الْعِيَاءَ : تَرَكَهُ يَفِي . (٤) نَشِيتِ الْحَرْبُ : ثَارَتْ وَاشْتَبَكَتِ .

وَالْيُونَانِيِّينَ ، فِي الْأَصْلِ ، شَعْبًا وَاحِدًا ، مُتَّفِقًا فِي اللُّغَةِ وَالْعَادَاتِ .
وَاتَّفَقَتْ عَلَى بِلَادِ الْيُونَانِ ، بَعْدَ الْحَرْبِ الطَّرَوَادِيَّةِ ، قَبَائِلُ
يُونَانِيَّةٍ أُخْرَى ، وَأَسْتَقَرَّتْ كُلُّهَا أَخِيرًا هُنَاكَ ، وَتَعَايَشَتْ ^(١) . وَكُنَّا
نَعْرِفُ ، مِنْ تَارِيخِ الْيُونَانِيِّينَ الْقَدِيمِ ، إِلَّا مَا ذَكَرَهُ هوميروسُ ،
الشَّاعِرُ الْيُونَانِيُّ الْعَظِيمُ ، الَّذِي تَفَنَّى ^(٢) بِمُدُنِ الْبَشَرِ وَالْآلِهَةِ .

وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، يُؤَثَرُونَ ^(٣)
الْحُرِّيَّةَ عَلَى كُلِّ مَا عَدَاهَا . وَكَانُوا يَمِيشُونَ فِي مُدُنٍ صَغِيرَةٍ ،
مُسْتَقِلَّةٍ ^(٤) ، لَا عِلَاقَةَ لِلوَاحِدَةِ مِنْهَا بِالْأُخْرَى . وَكُلُّ مَدِينَةٍ كَانَتْ
تَمْلِكُهُ فِي حَدِّ نَفْسِهَا ، وَلِذَا تُسَمَّى تَمَالِكُ الْاُدُنِ ، أَوْ الْاُدُنِ
الْتَمَالِكِ . وَكَانَ فِي بِلَادِ الْيُونَانِ أَرْبَعٌ مِنْ هَذِهِ التَّمَالِكِ ، وَهِيَ :
أَثِينَا ، وَلَسْبَرْطَةُ ، وَأَرْغُوسُ ، وَبِيْبَةُ . وَلَمْ تَسْتَوِلْ هَذِهِ التَّمَالِكُ
عَلَى أَمْلَاقِ الشُّعُوبِ الْمَجَاوِرَةِ ، كَمَا فَعَلَتْ التَّمَالِكُ الْمَشْرِقِيَّةُ ،
بَلْ كَانَتْ ، عِنْدَ أَزْدِيَادِ عَدَدِ سُكَّانِهَا ، تُرْسِلُ الْجَالِيَاتِ ^(٥) إِلَى
الْأَقْطَارِ ، حَوْلَ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ .

(١) تعايش القوم : عاشوا مجتمعين . (٢) تفنى الشاعر بكنا : قال فيه شعراً مادحاً
أو هاجباً . (٣) يؤثرون : يفضلون . (٤) مستقلة : منفردة بأمورها لا تشارك فيها
غيرها . (٥) الجالية : الغرباء الذين هجروا أوطانهم .

غَيْرَ أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ كَانُوا قَوْمًا خَصِيمِينَ^(١)، وَكَثِيرًا مَا نَشِيتِ
الْحُرُوبُ فِيهِمَا يَبْتَغِيهِمْ. وَلَكِنَّهُمْ اتَّفَقُوا آخِرًا، عَلَى مُحَارَبَةِ الْفُرْسِ،
الَّذِينَ فَرَضُوا الْجُزْيَةَ عَلَى الْمُدُنِ الْيُونَانِيَّةِ، فِي آسِيَا الصُّغْرَى.
وَكَانَ أَهْلُ بِلَادِ الْيُونَانِ قَدْ أَرْسَلُوا مَدَدًا^(٢) إِلَى إِخْوَانِهِمْ فِي آسِيَا
الصُّغْرَى، فَأَوْغَرُوا^(٣) بِذَلِكَ صُدُورَ الْفُرْسِ، فَغَزَوْا بِلَادَ الْيُونَانِ
مُتَّقِمًا. وَلَكِنَّ الْفُرْسَ أَخْفَقُوا^(٤) فِي غَزْوَتِهِمْ هَذِهِ. وَجَاءَ
وَقْتُ، قَامَ فِي الْيُونَانِيِّينَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، يُدْعَى الْإِسْكَنْدَرَ
الْكَبِيرَ، فَاسْتَوَلَى عَلَى الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الْعَظِيمَةِ.



بَعْدَ أَنْ اكْتَسَحَتِ الْقَبَائِلُ الشَّعَالِيَّةُ بِلَادَ الْيُونَانِ، كَانَ
ثَمَّةَ^(٥) أَمِيرَةً يُونَانِيَّةً، تُدْعَى هِيلَانَةَ. وَكَانَتْ بَارِعَةً^(٦) الْجَلالِ.
حَتَّى وَدَّ كُلُّ أَمِيرٍ رَأَاهَا لَوْ يَتَّخِذُهَا زَوْجَةً. فَكَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةً^(٧)
إِلَى خَوْفِ أَيْهَا تِنْدَارُوسَ، لِأَنَّهُ قَالَ فِي نَفْسِهِ :

(١) الحميم : المجادل والمنازع . (٢) للد : العون والنفوذ . (٣) أوغر
الصدر : أوقده من النبط . (٤) أخفق في عمله : خاب ولم يصب فيه نجاحاً . (٥) ثمة
اسم يشار به إلى البعيد بمعنى هناك . (٦) بارعة الجمال : فائقة . (٧) المدعاة : السبب .

«إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ أَبْنَتِي وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءِ زَوْجَةً ،
فَكُلُّ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَهَا يَصِيرُونَ لِي أَعْدَاءً» .

وَبَقِيَ مُدَّةً طَوِيلَةً لَا يَذَرِي مَا يَصْنَعُ ، وَلَكِنَّهُ أَهْتَدَى
أَخِيرًا إِلَى وَجْهِ ^(١) الْحِيلَةِ . فَبَعَثَ السُّعَاةَ إِلَى الْأَمْرَاءِ ، فِي كُلِّ
الْمَمَالِكِ الْيُونَانِيَّةِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى وَلِيمَةٍ ^(٢) أَوْلَمَهَا لَهُمْ .

وَانْطَلَقَ السُّعَاةُ وَوَقَدُوا عَلَى مَنَلاوُسَ ، مَلِكِ إِسْبَرْطَةَ ،
وَعَلَى أَخِيهِ أَغَمَمُونُونَ ، مَلِكِ مِيسِنَةَ ، وَكَانَ هَذَا طَوِيلَ الْقَائِمَةِ
جِدًّا ، فَسَمَاهُ شَعْبُهُ «مَلِكَ الرُّجَالِ» . وَرَحَلُوا إِلَى الْجَزَائِرِ ، وَإِلَى
الْمُرْتَفَعَاتِ ، وَلَمْ يَنْسُوا أَحَدًا .

وَلَمْ يَلْبَثِ الْأَمْرَاءُ أَنْ أَقْبَلُوا ، بَعْضُهُمْ لِإِسِينِ الدَّرُوعِ
السَّبْرَاقَةِ ، وَبَعْضُهُمُ الْأَثْوَابَ الصُّوفِيَّةِ . وَكَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
مُتَمَطِّينَ ^(٣) جِيَادُهُمُ الْحَرِّيَّةَ ، مُسَلَّحِينَ بِالْأَسْلِحَةِ النَّحَاسِيَّةِ .
وَجَاءَ الْفَرِيقُ الْآخَرُ فِي مَرَكَبَاتٍ مُخَلَّاةٍ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ . فَخَرَجَ
وَالِدُ هِيلَانَةَ إِلَى السَّاحَةِ الْعَامَّةِ لِاسْتِقْبَالِهِمْ وَخَاطَبَهُمْ قَائِلًا :

(١) وجه الحيلة : سبيلها . (٢) الوليمة : كل طعام يتخذ لجمع أو لدعوة .

(٣) متمطين : راكبين .

— كُلاُكُمْ مُحِبُّ ابْنَتِي ، وَلَمَّا كَانَ يَغْمُرُ عَلَيَّ
الْأَخْيَارُ ، فَإِنَّ هِيلَانَةَ سَتَخَتَّارُ هِيَ نَفْسُهَا ، زَوْجًا لَهَا مِنْ
بَيْنِكُمْ . وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ تَفْعَلَ ، أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَنْ تَعِدُونِي
وَعَدَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ تَرْضَوْا بِأَخْتِيَارِ هِيلَانَةَ وَلَا تَتَنَازَعُوا^(١) ،
وَأُخْرَاهُ أَنْ تُسَاعِدُوا زَوْجَهَا ، كُلَّمَا أَحْتَاجَ إِلَيْكُمْ .
فَأَشْرَعَ^(٢) الْأَمْرَاءُ رِمَاحَهُمْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَصَاحُوا قَائِلِينَ :
— إِنَّا نَعِدُ .

عِنْدَئِذٍ غَادَرَتْ^(٣) هِيلَانَةُ مَكَانَهَا بِجَانِبِ أَبِيهَا ، وَبَادَرَتْ
إِلَى مَنَلَاوُسَ ، مَلِكِ إِسْبَرْطَةَ ، وَوَقَّعَتْ أَمَامَهُ لَا تُبْدِي حَرَاكًا .
فَمَلَا صِيَاحُ الْأَمْرَاءِ ، وَفَتَحَ الْمُبَوِّقُونَ فِي الْأَبْوَاقِ . وَأَمَّا
مَنَلَاوُسُ فَظَلَّ صَامِتًا لِعِلْمِهِ أَنَّهُ فَازَ بِأَجْمَلِ عَرُوسٍ فِي بِلَادِ أَلْيُونَانِ .
وَقَضَى الْأَمْرَاءُ وَالشَّيْبُ أَيَّامًا فِي الْأَفْرَاحِ ، وَلَمَّا انْقَضَتْ
أَيَّامُ الْعُرْسِ ، رَحَلَ مَنَلَاوُسُ بِهِيلَانَةَ إِلَى إِسْبَرْطَةَ ، فَأَعْجَبَ
الْكُلُّ هُنَاكَ بِجَمَالِهَا .

(١) تنازع القوم : اختلفوا وتخاصموا . (٢) أصرع الرمح : سدده ورفعته جدًّا .

(٣) غادرت : تركت .

وَأَنْقَضَتْ عِدَّةُ سَنَوَاتٍ ، لَازَمَتْ هِيلَانَةَ فِيهَا السَّعَادَةُ .
غَيْرَ أَنَّهُ ، ذَاتَ يَوْمٍ ، قَدِمَ إِلَى إِسْبَرْطَةَ رَجُلٌ غَرِيبٌ ، يُدْعَى
بَارِسَ . وَكَانَ هَذَا أَصْغَرَ أَوْلَادِ بَرِيَامَ ، مَلِكِ طِرْوَادَةَ ، وَهِيَ
الْمَدِينَةُ الْيُونَانِيَّةُ الْوَاقِعَةُ عَلَى سَاحِلِ آسِيَا الصُّغْرَى ، وَرَاءَ الْبَحْرِ .
وَكَانَ بَارِسُ قَدْ أَوْفَدَهُ ^(١) أَبُوهُ فِي مُهِمَّةٍ ^(٢) إِلَى مَدِينَةِ
صُورَ ، فَمَرَّ لَدَى عَوْدَتِهِ إِلَى طِرْوَادَةَ بِيَلَادِ الْيُونَانِ . وَكَانَ
بَارِسُ أَجَلٌ قَلِيلٌ فِي زَمَانِهِ . فَرَأَى هِيلَانَةَ وَأَحْبَبَهَا لِفِرَاطِ بَجَاهِهَا ،
ثُمَّ أَغْرَاهَا ^(٣) بِأَنْ تَهْرُبَ مَعَهُ إِلَى طِرْوَادَةَ .

وَلَمَّا دَرَى الْمَلِكُ مَنَلاوُسُ بِالْأَمْرِ ، أَرْسَلَ إِلَى طِرْوَادَةَ طَالِبًا
أَنْ تُعَادَ إِلَيْهِ أَمْرَأَتُهُ . وَلَكِنْ أَهْلَ طِرْوَادَةَ ، اعْتَقَادًا مِنْهُمْ أَنَّ
لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَلِكٌ يَسْتَطِيعُ مُنَاوَأَتَهُمْ ^(٤) ، وَحُبًّا بِأَنْ يُخَاخِرُوا
أَنْ أَجَلَ أَمْرَأَةٍ فِي الْعَالَمِ فِي مَدِينَتِهِمْ ، أَبَوْا أَنْ يُعِيدُوا إِلَى
مَنَلاوُسَ أَمْرَأَتَهُ . وَكَانَتْ طِرْوَادَةُ أَعْظَمَ مُدُنِ الْبَشَرِ ، أَسْوَارُهَا
مُنِيعةٌ ^(٥) شَاهِقَةٌ ^(٦) ، فَلَا يَسَعُ الْأَعْدَاءُ أَنْ يَهْدِمُوهَا أَوْ يَتَسَلَّقُوهَا

(١) أوفده : أرسله . (٢) المهمة : الأمر ذو الشأن . (٣) أغراها بالحرب :
حضاها عليه . (٤) المناوأة : المارضة والمعاداة . (٥) منية : يصفى الوصول إليها .
(٦) شاهقة : مرتفعة .

وَكَانَتْ أُنْبَرُجُهَا عَالِيَةً ، وَأَبْوَابُهَا كَبِيرَةً ، وَفِي قِلَاعِهَا رِجَالُ أَشَدِّهِ
مُسَلَّحُونَ بِأَفْضَلِ السِّلَاحِ ، وَفِي خَزَائِنِهَا كُنُوزٌ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ . وَكَانَ لِمَلِكِهَا بَرِيَامٌ خَمْسُونَ وَلَدًا ، أَكْبَرُهُمْ هِكْتُورُ
الَّذِي كَانَ قَائِدَ جُيُوشِ الْمَدِينَةِ .

فَغَضِبَ مَنَلَاوُسُ وَأَغْتَمَّ ، وَدَعَا أُمَرَاءَ الْيُونَانِ كُلَّهُمْ ،
وَخَاطَبَهُمْ قَائِلًا :

— إِنَّا كُمْ وَعَدْتُمُونِي ، يَوْمَ تَرَوُجْتُ هِيلَانَةَ ، أَنْ
تُسَاعِدُونِي كُلَّمَا تَرَلَّ بِي خَطْبٌ ، وَهَاقَدْ حَانَ لَكُمْ أَنْ تَبْرُوا
فِي وَعْدِكُمْ ^(١) .

فَأُشْرِعَ الْأُمَرَاءُ رِمَاحَهُمْ ، وَصَاحُوا قَائِلِينَ :

تَكَلِّمْ يَا مَنَلَاوُسُ فَإِنَّا لَا تَرَالُ عَلَى الْوَعْدِ .

حِينَئِذٍ ، أَخْبَرَهُمْ مَنَلَاوُسُ بِمَا جَرَى ، فَوَعَدُوهُ أَنْ يُحَارِبُوا
مَدِينَةَ طِرْوَادَةَ ، وَيُرْجِعُوا هِيلَانَةَ إِلَى بِلَادِهَا . وَأَنْقَضَتْ أَيَّامُ
تَأَهُبٍ ^(٢) فِيهَا الْقَوْمُ لِلْحَرْبِ . وَلَمَّا تَمَّ الْأُسْتِعْدَادُ ، اجْتَمَعَ
لِلْمُسَاعَدَةِ مَنَلَاوُسَ أَرْبَعَةُ وَثَلَاثُونَ أَمِيرًا ، وَعَشْرَةُ آلَافٍ رَجُلٍ ،

(١) بر في وعده : صدق . (٢) تأهب : استعد

وَرَسَتْ^(١) أَلْفُ سَفِينَةٍ فِي الْخَلِيجِ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ الْأَمْرَاءُ أَشَدَّ
أَلْيُونَانِيِّينَ ، وَأَكْرَمَهُمْ حَسَبًا^(٢) . فَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ أُخِيلٌ ، وَنَسْطُورٌ ،
وَعُولُسُ الْحَكِيمِ ، وَأَعْمِمنونُ الَّذِي اخْتِيرَ قَائِدًا ، لِأَنَّهُ كَانَ مَلِكَ
الرِّجَالِ . وَأَقْبَلَ النِّسَاءُ وَالْأَوْلَادُ إِلَى الْبَحْرِ لِيَرَوْا السُّفْنَ الْجَمِيلَةَ
ذَاتِ الْقُلُوعِ السَّوْدَاءِ ، تَنْسَابُ^(٣) عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ . وَلَكِنَّ السُّفْنَ
لَمْ تُقْلَعْ^(٤) ، لِإِعْوَازِ^(٥) الرِّيحِ .

وَيَبْنَا كَانَ أَلْيُونَانِيُونَ يَنْتَظِرُونَ هُبُوبَ الرِّيحِ تَحَدَّثُوا فِيهَا
بَيْنَهُمْ قَائِلِينَ :

« مَا يَقْتَضِينَا التَّغْلِبُ عَلَى مَدِينَةِ طِرْوَادَةَ مِنَ الزَّمَنِ ؟ » .
وَفِيمَا هُمْ يَتَحَدَّثُونَ رَفَعَ أَحَدُهُمْ طَرْفَهُ^(٦) إِلَى جُمُزَةٍ بِاسِقَةٍ^(٧) ،
فَرَأَى حَيَّةً تَسْلُقُهَا إِلَى عُشٍّ فِيهِ عُصْفُورَةٌ تَرْقُ^(٨) أَفْرَاحًا لَهَا
تِسْعَةً . فَأَكَلَتِ الْحَيَّةُ الْأَفْرَاحَ التَّسْعَةَ وَأُمَهَا ، وَمَا لَبِثَتْ أَنْ
أَنْقَلَبَتْ بَنَشَةً حَجَرًا . فَعَجِبُوا كُلُّهُمْ لِذَلِكَ ، وَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِ رَجُلٍ

(١) رست السفينة : وقتت وافتت الرسالة . (٢) الحسب : شرف الأهل .
(٣) تنساب : تهمي بسرعة . (٤) أقلت السفن : رفعت قلعوها . (٥) اعواز الریح :
الاحتياج إليها . (٦) الطرف : العين . (٧) باسقة : طويلة مرتفعة الأغصان . (٨) ترق
فراخها : تطمها بمقارها .

حَكِيمٌ ، وَاسْتَعْلَمُوهُ مَعْنَى مَا رَأَوْا . فَأَجَابَهُمُ الْحَكِيمُ :
— هَذَا يَعْنِي أَنَّكُمْ تُحَارِبُونَ الْمَدِينَةَ تِسْعَ سِنِينَ ،
وَتُدْمِرُونَهَا فِي الْعَاشِرَةِ .

وَمَا لَبِثَ الرِّيحُ أَنْ هَبَّتْ ، فَأَقْلَمَتِ السُّفُنُ ، وَأَشَارَ النَّاسُ
عَلَى الشَّاطِئِ مُودِّعِينَ مَنْ فِيهَا . وَجَرَتْ الْأُمُورُ كَمَا أَنْبَأَ الرَّجُلُ
الْحَكِيمُ . فَلَمَّا الْيُونَانِيُّونَ حَارَبُوا طِرْوَادَةَ تِسْعَ سِنِينَ طَوِيلَةً ،
وَكَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِهَا سِجَالًا^(١) ، تَارَةً يَتَنَصَّرُونَ ،
وَتَارَةً يُغْلَبُونَ . وَقَتْلُ أَخِيلُ هِكْتُورَ ، بَطْلَ طِرْوَادَةَ الْعَظِيمِ .
وَرَمَى بَارِسُ أَخِيلَ الْجَبَّارَ بِسَهْمٍ فِي عَقْبِهِ^(٢) فَاتَ . وَأَصَابَ
بَارِسَ سَهْمٌ حَائِرٌ^(٣) فَاتَ هُوَ أَيْضًا . وَكَانَتْ هِيلَانَةُ تُشْرِفُ^(٤) مِنْ
أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ عَلَى السَّهْلِ أَمَامَهَا تُرَاقِبُ سَيْرَ الْقِتَالِ . وَأَنْقَضَى
الشَّهْرُ تِلْوَ الشَّهْرِ ، وَالسَّنَةُ تِلْوَ السَّنَةِ ، وَالْمَعَارِكُ دَائِبَةٌ . وَقَدْ
عَجَزَ الْيُونَانِيُّونَ عَنْ فَتْحِ طِرْوَادَةَ .

أَخِيرًا جَمَعَ عُولُسُ الْمَشْهُورُ بِاللَّهَاءِ وَالْحِكْمَةِ مُجْمُوعَ الْيُونَانِيِّينَ ،
وَخَاطَبَهُمْ قَائِلًا :

(١) الحرب بينهم سجال : أي تارة لهم وتارة عليهم . (٢) العقب : مؤخر القدم .

(٣) سهم حائر : لا يدري من رى به . (٤) أحرف على المكان : اطل .

— يَتَّبِعُنِي أَنْ زَكَبَ سُفْنَنَا، وَنَظَّهَرَ أَنْنَا مُرْتَحِلُونَ إِلَى
أَوْطَانِنَا، وَلَكِنَّا سَخَطْنَا^(١) فِي هَذَا الْمَكَانِ شَيْئًا.

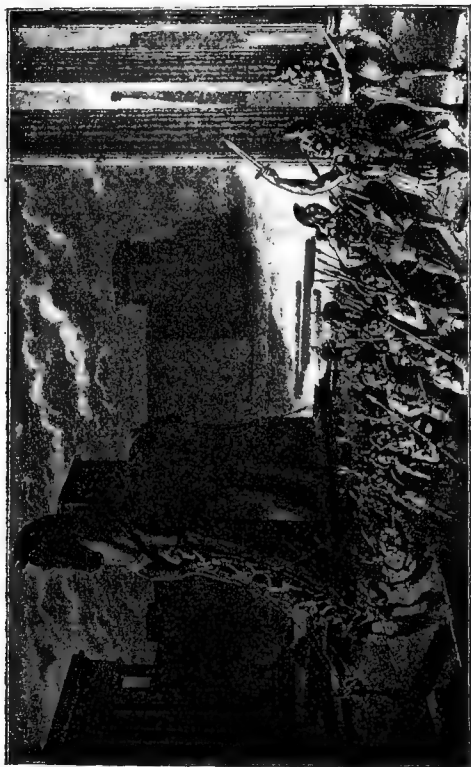
ثُمَّ أَفْضَى^(٢) إِلَى الرُّعَمَاءِ بِسَرٍّ، فَأَ هُوَ إِلَّا الْقَلِيلُ حَتَّى سَمِعَ
فِي مُعَسْكَرِ غُولَسَ صَوْتُ خَشَبٍ يُنْشَرُ، وَمَسَامِيرَ تُدَقُّ. وَلَمَّا
هَمَدَ^(٣) الصَّوْتُ، رَأَى أَهْلُ طِرْوَادَةَ سُفْنَ الْيُونَانِيِّينَ مُرْتَحِلَةً
عَنْ مَدِينَتِهِمْ.

فَأَبْتَهَجُوا بِذَلِكَ جِدًّا، وَأَخَذُوا يُعْنَوْنَ وَيَتَأَهَّبُونَ^(٤) لِيَوْمِ
عِيدٍ عَظِيمٍ. وَفَتَحُوا أَبْوَابَ الْمَدِينَةِ، وَبَادَرُوا إِلَى حَيْثُ كَانَ
الْيُونَانِيُّونَ ضَارِبِينَ^(٥) خِيَامَهُمْ. فَلَمْ يَرَوْا سِوَى شَيْءٍ غَرِيبٍ،
عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ. فَدَنَوْا مِنْهُ، فَلِذَا هُوَ حِصَانٌ خَشِيبِي، صَنْحَمٌ
جِدًّا، قَائِمًا مُنْفَرِدًا عَلَى الرَّمْلِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

— حَذَارِ وَأَبْتَعِدُوا، فَإِنَّهَا آلَةٌ حَرِيَّةٌ قَدْ تُؤْذِنَا.
وَقَالَ آخَرُونَ:

— إِنَّهَا تَقْدِمَةٌ^(٦) سَلَامٍ، وَيَتَّبِعُنِي أَنْ نَنْقُلَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ.

(١) خلف الفيء : تركه وراءه . (٢) أفصى إليه بسره : أعلمه به . (٣) همد
الصوت : سكن وجد . (٤) يتأهبون : يستعدون . (٥) ضرب الحمية : نصبها .
(٦) النضمة : الهدية ، والقربان وهو كل ما يهرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها .



حصان طروادة الحبيبي

عِنْدَيْدٍ رَأَوْا جُنْدِيًّا يُونَانِيًّا ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْمَكَانِ ،
يَسْكِي بُكَاءَ مُرًّا ، وَيَدَاهُ مُقَيَّدَتَانِ خَلْفَ ظَهْرِهِ . فَاسْتَعْلَمُوهُ
خَطْبُهُ ^(١) فَأَجَابَ .

— إِنَّ الْيُونَانِيِّينَ ، أَسْيَادِي ، كَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى قَتْلِي ،
غَيْرَ أَنِّي تَمَكَّنْتُ مِنَ الْهَرَبِ ، فَاشْفَقُوا عَلَيَّ وَأَرْثَوَا لِحَالِي ^(٢) .
وَكَانَ بَرِّيَامُ ، مَلِكُ طَرَوَادَةِ ، رَقِيقَ الْقَلْبِ ، فَقَكَ قُبُودَ
الرَّجُلِ ، وَقَالَ لَهُ :

— لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ^(٣) . قُلْ لِي مَا أُمِّمَكَ ، وَأَعْلِمْنِي لِمَ إِذَا
غَادَرَ ^(٤) أَسْيَادُكَ هَذَا الْحِصَانَ الْخَشْيِيَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ ؟
فَأَجَابَ الرَّجُلُ :

إِسْمِي سِينُونُ ، وَهَذَا الْحِصَانُ الْخَشْيِيُّ تَقْدِمَةٌ ، يَحْذَرُ بِكُمْ
أَنْ تَخْتَرِمُوهَا وَتَنْقُلُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ .
فَسَرَّ الطَّرَوَادِيُّونَ بِذَلِكَ . وَجَرُّوا الْحِصَانَ الْخَشْيِيَّ الْعَظِيمَ
إِلَى الْمَدِينَةِ . وَكَانَ سِينُونُ يُسْتَسَمُّ وَهُوَ يُرَاقِبُهُمْ .

(١) استعلموه خطبه : سألوه عن الامر العظيم المكروه الذي اصابه . (٢) رثى له :

رق له ورثه . (٣) لا بأس عليك : لا خوف عليك . (٤) غادر : ترك وأبقى .

وَأَقَامَ الطُّرَادِيُّونَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ عِيدًا عَظِيمًا ، فَشَرَبُوا خَمْرًا ،
وَرَقَصُوا ، وَغَنَّوْا ، وَغَلَبَهُمُ النَّعَاسُ أَخِيرًا فَنَامُوا نَوْمًا صَمِيمًا .
وَلَكِنَّ سَيْنُونَ لَمْ يَنَمْ ، بَلْ إِنَّهُ لَمَّا رَأَى السُّكِينَةَ ^(١) قَدْ سَادَتْ
تَسَلَّقَ الْحِصَانَ الْخَشْيَ وَفَتَحَهُ ، فَخَرَجَ مِنْهُ أَبْطَالُ الْيُونَانِيِّينَ
الْأَشِدَاءِ ، وَيَسْنَهُمْ عُولُسُ ، وَأَعْمَمُنُونُ ، وَمَنَلَاوُسُ . فَزَحَقُوا إِلَى
الشَّاطِئِ ، وَأَوْقَدُوا النَّارَ عَلَامَةً لِقَوْمِهِمْ . فَرَجَعَتِ الشُّفُنُ
وَأُنْثِلَ ^(٢) الْيُونَانِيُّونَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَعْمَلُوا فِي أَهْلِهَا الْبُسَاءَ ^(٣)
الْقَتْلَ ، وَهُمْ لَا يَزَالُونَ نِيَامًا ، وَأَفَاقَ بَعْضَهُمْ فَرَأَى النَّارَ
تَشْتَعِلُ فِي الْمَدِينَةِ .

وَفِيمَا كَانَ صَمُودٌ عَظِيمٌ مِنَ الدُّخَانِ يَرْتَفِعُ فَوْقَ الْأَسْوَارِ ،
كَانَ مَنَلَاوُسُ يَسِيرُ بِهَيْلَانَةٍ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ . وَقَدْ مَرَّتْ صَامِتَةً
بَيْنَ صَفَيْنِ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ . فَأَغْمَضَ هَؤُلَاءِ عُيُونَهُمْ دُونَ جَمَالِهَا
الْبَاهِرِ ^(٤) ، وَخَمَسُوا قَائِلِينَ :

— لَا عَجَبَ أَنْ تَحْتَرِقَ طِرْوَادَةُ مِنْ أَجْلِهَا !

(١) السكينة : الهدوء . (٢) انسل : انطلق في استغناء . (٣) بساء : جمع
باسل : شجاع . (٤) الباهر : الغالب .

ابن الحجاج

كَانَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَلَدٌ بَشِعُ الْمَنْظَرِ ، قَصِيرُ الْقَامَةِ ،
أَفْطَسُ الْأَنْفِ ، جَاحِظٌ ^(١) الْعَيْنَيْنِ ، يُدْعَى سُقْرَاطَ . وَكَانَ دَائِمًا
رَثَّ الثِّيَابِ ^(٢) لِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ حَجَّارًا فَقِيرًا ، عَمَلُهُ مُسَاعَدَةُ الْمَتَالِينِ ^(٣)
وَالنَّقَّاشِينَ ، فِي الدُّونِ ^(٤) مِنْ أَعْمَالِهِمْ .

وَقَدْ وَلِدَ سُقْرَاطُ فِي مَدِينَةِ أَيْنَا ، نَحْوَ سَنَةِ أَرْبَعِ مِئَةٍ ، قَبْلَ
الْمَسِيحِ . وَكَانَ ذَلِكَ الْعَصْرُ ، وَقْتِيذٍ ، عَصَرَ أَيْنَا الزَّاهِرِ . فَإِنَّ
الْيُونَانِيِّينَ كَانُوا قَدْ قَهَرُوا ^(٥) الْفُرْسَ وَطَرَدُوهُمْ مِنْ بِلَادِهِمْ ،
وَكَانَ بِلَاءٌ ^(٦) أَيْنَا فِي مُحَارَبَتِهِمْ أَعْظَمَ مِنْ بِلَاءِ سَائِرِ الْمُدُنِ
الْيُونَانِيَّةِ . فَفَخَرَ الْأَيْنِيُّونَ بِمَدِينَتِهِمْ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يَفْخَرُوا .

وَكَانَ سُقْرَاطُ ، كَسَائِرِ لِدَاتِهِ ^(٧) يُخْتَلَفُ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ،
حَيْثُ كَانَتْ الْمَوْسِقَى ، وَالرِّيَاضَةُ الْبَدَنِيَّةُ أَهَمَّ الدُّرُوسِ . وَقَدْ

(١) جحظت العين : عظمت مقلتها وتأتأت . (٢) الثوب ارتث : البالي (٣) المتالين :

صانع التماثيل . (٤) الصل اليون : الحديس الحفير . (٥) قهروا : غلبوا . (٦) أبلى
في الحرب بلاء حسنًا : أظهر فيها بأسه . (٧) اللغات جمع لغة : الذي ولد وتربى معك .

تَعَلَّمَ أَيْضًا شَيْئًا مِنَ الطَّبِيعِيَّاتِ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ، وَقَلِيلًا عَنِ
الْكَوَاكِبِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنَ التَّارِيخِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ
بِقَدَرِ مَا يَتَعَلَّمُ الْأَوْلَادُ فِي أَيَّامِنَا. غَيْرَ أَنَّ سُقْرَاطَ كَانَ كَثِيرَ
التَّفَكُّيرِ، وَقَلَمًا فَاتَهُ شَيْءٌ وَلَمْ يَسْتَرْعِ (١) اتِّبَاهَهُ.

كَانَ سُقْرَاطُ دَمِيمَ (٢) الصُّورَةِ، وَلَكِنَّ الْمَدِينَةَ الَّتِي عَاشَ
فِيهَا، كَانَ بِهَا مِنْ الْأَبْدَانِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. فَلِذَا زَعِيمًا أُيُنِيًّا،
يُدْعَى بِرِكْلَيْسَ، كَانَ فِي حَدَاثَةِ سُقْرَاطَ يَسْتَنْهَضُ الْمَهْمَ،
وَيُحْضِ الْفَنَانِينَ (٣) وَالْمُثَالِينَ عَلَى نَحْتِ الْمَائِيلِ الْجَمِيلَةِ، وَإِنْشَاءِ
الْمُبَانِي الْفَخْمَةِ، وَيُغْزِي (٤) الشُّعْرَاءَ بِنِظْمِ الْقَصَائِدِ الرُّنَانَةِ (٥)
وَالصَّنَاعَ بِإِجَادَةِ النُّقْشِ وَالتَّصْوِيرِ مَا اسْتَطَاعُوا.

وَكَانَ سُقْرَاطُ يَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، يَتَمَتَّعُ بِمَنَاظِرِهَا الْجَمِيلَةِ.
وَيَضَعُ الْأَكْرُوْبُولِيسَ، وَهِيَ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ، كَانَتْ تُشْرِفُ
عَلَى الْمَدِينَةِ، وَتَقُومُ عَلَيْهَا الْهَيْكَلُ الْمُبْنِيَّةُ بِالرُّخَامِ، وَالْحِجَارَةِ
الْبَيْضِ. وَكَانَ أَجْمَلُ هَذِهِ الْهَيْكَلِ هَيْكَلُ الْبَرْتِينُونِ،

(١) هذا الأمر يستعري الاتِّبَاهَ : يحل عليه . (٢) دميم الصورة : قبيح المنظر.

(٣) الفنان : صاحب الفن . (٤) أغراء بالمثل : حضه عليه . (٥) الرنانة : الكثرة الرنين.

وَمَعْنَاهُ يَبْتَغِي الْعُذْرَاءَ، وَكَانَ خَاصًّا بِأَثِينَا، إِلَهَةِ الْحِكْمَةِ عِنْدَ
الْيُونَانِ. وَكَانَ الْأَهْلُونَ، قَبْلَ بَضْعِ سَنَوَاتٍ، بَعْدَ أَنْ أَقَامُوا
حَفَلَاتِ الْمَوْسِقَى، وَالْمُسَابَقَاتِ، وَالْأَلْعَابِ، قَدْ صَعِدُوا كُلُّهُمْ إِلَى
الْهَيْكَلِ، لِيُذْشَنُوا^(١) تَمَثَّالًا، صُنِيعَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْعَاجِ^(٢)،
لِلتِّكِ الْإِلَهِةِ الَّتِي كَانَتْ حَامِيَةً الْمَدِينَةِ. وَكَانَ الْأَثِينِيُّونَ
يُخَاخِرُونَ^(٣) بِهَذَا التَّمَثَّالِ، وَيَقِيمُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ عِيدًا لِلْإِلَهِةِ.
وَلَمْ يَكُنْ سُقْرَاطُ يَفْوُتُهُ أَنْ يَشْهَدَ^(٤) هَذَا الْعِيدَ.

وَكثيراً مَا كَانَ الْقَتَى يُرَى قَرِيبًا مِنَ الْأَعْرَا، وَهِيَ السُّوقُ
الْعَامَّةُ، حَيْثُ كَانَ بَاعَةً الْكُتُبِ يَعْرِضُونَ سِيَاحَهُمْ. وَوَدَّ أَنْ
يَبْتَاعَ نُسخَةً مِنَ الْبَيَانَةِ هُومِيرُسَ، لِيَقْرَأَ فِيهَا حِكَايَةَ طِرْوَادَةَ،
غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَقْتَضِي ثَمَنًا كَبِيرًا. فَبَحَثَ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ
كِتَابٍ جَلِيلٍ لِلْمُؤَرِّخِ هِيرُودُوتُسَ، عُنْوَانُهُ «الْحُرُوبُ الْفَارِسِيَّةُ». .
وَكَانَ الْكُلُّ يَوَدُّ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ ظَفِرَ الْيُونَانِيُّونَ فِي
حَرْبِ مَرَاتُونِ، وَكَيْفَ سَقَطَ آخِرُ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي تَرْمُوبِيلَ،

(١) ذشن التمثال : قدسه . (٢) العاج : ناب القيل . (٣) فاخر بالعجم :

باهى به . (٤) شهد العيد : حضره .

وَكَيْفَ فَازُوا فِي مَعْرَكَةِ سَلَامِيسَ الْبَحْرِيَّةِ ، وَأُتْصَرُوا أُخِيرًا
عَلَى الْفُرْسِ . وَكَانَ الْكُلُّ يَوَدُّ أَنْ يَقْرَأَ هَذَا الْكِتَابَ لِيَعْرِفَ
كَيْفَ تَمَّتِ الْغَلَبَةُ ^(١) لِلْيُونَانِ عَلَى الْفُرْسِ . وَلَمْ يَكُنِ الْكِتَابُ
قَدْ أُكْمِلَ وَقَتْنِدُ ، إِلَّا أَنْ أَجْزَاءَ مِنْهُ كَانَتْ تُعْرَضُ لِلْبَيْعِ ،
فَيَتَلَقَّفُهَا ^(٢) النَّاسُ بِدَهْفَةٍ ، حَالَمَا كَانَ عِيدُ النَّاشِرِينَ يَفْرَغُونَ
مِنْ نَسْخِهَا .

وَكَانَ سُقْرَاطُ يُرَى أحيانًا فِي الْمَرَضِ ^(٣) . وَكَانَ يُدْعَى
الْيَسِيُّومَ . وَكَانَ الشَّبَابُ يُعْنَوْنَ هُنَاكَ بِالْمَلَاكَمَةِ ، وَالْمُصَارَعَةِ ،
وَالْمُحَاضَرَةِ ^(٤) ، وَالْقَفْزِ ، وَإِطْلَاقِ الْجِرَابِ ، وَقَذْفِ الْأَقْرَاصِ .
وَكَانَ سُقْرَاطُ يُحِبُّ أَنْ يُشَاهِدَ هَذِهِ الْأَلْعَابَ لَا أَنْ يَشْتَرِكَ
فِيهَا . وَكَانَ يُفَضِّلُ أَنْ يُطِيلَ التَّأَمُّلَ وَالتَّفَكُّيرَ ، أَوْ بِالْأَوَّلَى
أَنْ يُبَكِّرَ فِي الدَّهَابِ صَبَاحًا إِلَى دَارِ التَّمَثِيلِ ، حَيْثُ كَانَتْ
تُمَثَّلُ مَأْسَاةُ ^(٥) كَبِيرَةٍ لِسُوفُكْلِينِسَ ، وَتَثْلُوها رِوَايَاتُ
يُورُؤِينِدِسَ . وَكَانَ سُقْرَاطُ يُحِبُّ يُورُؤِينِدِسَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ

(١) الغلبة : القهر والنصر . (٢) يلقفها : يتناولها بسرعة . (٣) للمرض : مكان
الرياضة . (٤) المحاضرة : الغلبة في الركض . (٥) المأساة : الحادث المزن ، وتطلق
على الرواية التي تنتهي بفاجعة تبعث على الحزن والأسى .

إِلَّا حَقَائِقَ، وَلَمْ يَخْشَ النَّاسَ وَلَا الْآلِهَةَ . وَكَانَ سُقْرَاطُ
يَجْلِسُ فِي ذَلِكَ الْمَلهى ^(١) الْمَكْشُوفِ ، يَسْتَمِعُ إِلَى الشُّعْرَاءِ
وَالْمُتَمَتِّلِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَارَدُونَ ^(٢) إِلَى الْمَكَانِ ، لِيَتَبَارَوْا ^(٣)
فِي سَبِيلِ الْجَوَائِزِ . وَكَانَ مَتَى أَذْرَكَهُ السَّأْمُ يُطَوِّفُ عَائِداً إِلَى
مَنْزِلِهِ ، وَيَمُرُّ فِي طَرِيقِهِ بِمَنْزِلِ النَّبَلَاءِ ، وَالْأَغْنِيَاءِ ، وَيَرَى ، مِنْ
الْأَبْوَابِ ، مَا فِي تِلْكَ الْمَنْازِلِ مِنْ فَاخِرِ الْأَثَاثِ ، وَالْمَتَاعِ ،
وَالْأَوْعِيَةِ الْجَمِيلَةِ ، وَالْآيَةِ الْمَنْقُوشَةِ الْمُرْخَرَفَةِ .

وَلَمْ يَكْبُرْ سُقْرَاطُ ، وَيَتَلَبَّسْ بِمَنْزِلِ الرِّجَالِ ، فِي أَحَدِ هَذِهِ
الْمَنْازِلِ الْفَاخِرَةِ ، بَلْ فِي بَيْتٍ حَقِيرٍ ، قَلِيلِ الْأَثَاثِ . وَلَمْ يَكُنْ
يُبَالِي بِالْفَنَى أَوْ بِالْمُقْتَنِيَاتِ ^(٤) النَّفِيسَةِ ، بَلْ كَانَ كُلَّمَا تَقَدَّمَ فِي
السَّنِ يَقِلُّ أَكْثَرَاتُهُ لِإِرَاحَتِهِ الْجَسَدِيَّةِ ، وَمَلَاذِهِ ، وَيَنْصَرِفُ إِلَى
كُلِّ مَا هُوَ فَاضِلٌ ، جَلِيلٌ ، عَادِلٌ . وَكَانَ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ أَيْضًا .
وَهَاكَ مَا قَالَهُ فِيهِ أَحَدُ كِبَارِ أَصْدِقَائِهِ :

» كُنْتُ وَسُقْرَاطُ جُنْدِيَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ . وَكَانَ أَقْتَدَارُهُ

(١) للمهى : مكان اللهو واللبس . (٢) يتواردون : يحضر الواحد بعد الآخر .

(٣) يتبارى القوم : تسابحوا . (٤) المقتنيات : الممتلكات .

عَلَى تَحْمَلِ الْبَرْدِ يَذْهَبُنَا . فَقَدْ أَشْتَدَّ الصَّبِيعُ ^(١) ذَاتَ يَوْمٍ ، وَكُنَّا نَذْهَبُ
 مَا عَدَا سُقْرَاطَ ، لَزِمْنَا الْيُبُوتَ ، أَوْ كُنَّا ، إِذَا اضْطَرَرْنَا إِلَى
 الْخُرُوجِ ، نَتَلَفَعُ ^(٢) بِالْكَثِيرِ مِنَ الثِّيَابِ ، وَنَتَّعِلُ أَغْلَظَ النَّعَالِ ،
 وَنُعْصِبُ ^(٣) أَرْجُلَنَا بِاللِّبْدِ ^(٤) ، وَالْجَزَائِرِ ^(٥) . وَكَانَ سُقْرَاطُ ،
 مَعَ ذَلِكَ ، يَسِيرُ عَلَى الْجَلِيدِ ، حَافِيَ الْقَدَمَيْنِ ، مُكْتَسِيًا بِشِيَابِهِ
 الْعَادِيَّةِ ، فَيَبْدُو أَجْلَدَ ^(٦) عَلَى السَّيْرِ مِنْ سَائِرِ الْجُنُودِ الْمُتَمَلِّينَ .
 وَكَانَ سُقْرَاطُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ فِي السَّنِّ ، يَزْدَادُ رَثَائَةً ،
 وَدِمَامَةً ، وَتَفْكِيرًا . وَصَارَ النَّاسُ ، إِذَا مَا رَأَوْا وَجْهَهُ الْمُلُوفَ
 فِي الشَّوَارِعِ ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ :
 — هَذَا سُقْرَاطُ ، هَلُمُّوا نَحَادِثُهُ .

وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ابْنُ الْحَجَّارِ أَصْبَحَ مُعَلِّمًا مَشْهُورًا . وَكَانَ مِنْ
 عَادَتِهِ أَنْ يَطُوفَ فِي الْأَعْرَافِ ، طَوْلَ النَّهَارِ ، مُحَادِثًا وَحُجَّاجًا ^(٧)
 أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يُحْيَوْنَهُ ^(٨) ، طَارِحًا عَلَيْهِمْ أَسْئَلَةً عَدِيدَةً .

(١) الصَّبِيعُ : الجليد أو ما يسقط من السماء في الليل كأنه تلج . (٢) تتلفع بالثياب :
 لتتعمل بها وتغطي . (٣) نعصب أرجلنا : نشدّها بالمصائب . (٤) اللبد : ما تلبس
 من الشعر ونحوه . (٥) الجزائر جمع جزة (بكسر الجيم) : ما يميز من صوف الغاة في
 السنة . (٦) أجلد : اقوى وأصبر . (٧) حجاجاً : مقابلاً بالحجة والبرهان . (٨) يحبونه :
 يسلمون عليه .

وَكَانَ النَّاسُ بَعْدَ أَنْ يَفْرَغُوا مِنَ الْحَدِيثِ مَعَهُ، يَنْصَرِفُونَ مُضْطَرِبِينَ إِلَى الْعُقُولِ . وَأَخَذُوا، بِتَأْمِيرِ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي كَانَتْ يَطْرَحُهَا عَلَيْهِمْ، يَشْكُونَ فِي كَثِيرٍ، مِمَّا كَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمُقَرَّرَةِ ^(١) . وَصَارُوا يُفَكِّرُونَ طَوِيلًا فِي أُمُورٍ، كَانُوا يَعْتَقِدُونَ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتُ صِحَّتَهَا .

وَكَانَ، مِنْ رَأْيِ سُقْرَاطَ، أَنَّهُ يَنْبَغِي، لِكُلِّ إِنْسَانٍ، أَنْ يَتَعَلَّمَ التَّفَكِيرَ لِنَفْسِهِ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ، إِذَا مَا اسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ، أَنْ يَعْرِفَ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ، وَمَا هُوَ حَقٌّ، وَمَا هُوَ جَمِيلٌ، وَيُكَيِّفَ ^(٢) سِيرَتَهُ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ أَثِينَا بِلَدِّكَ كَامِلًا . وَكَانَ يَقُولُ لِتَلَامِيذِهِ إِنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ، إِلَّا إِذَا هَذَبَ كُلُّ مَنْ مِنَ الْأَهْلِيَّةِ عَقْلَهُ، كَيْمَا يَعْرِفَ مَا هُوَ قَوِيمٌ ^(٣)، وَمَا هُوَ نَبِيلٌ، وَكَانَ مِنْ رَأْيِهِ، أَنَّ فِي التَّنَاقُوشِ ^(٤) مَا يُسَاعِدُ عَلَى ذَلِكَ . وَلِذَا كَانَ دَائِمًا يُجَادِثُ قَوْمَهُ فِي الشُّوَارِعِ .

وَكَانَ يُعَلِّمُ الْأَوْلَادَ كَمَا كَانَ يُعَلِّمُ الْكِبَارَ . وَاتَّفَقَ أَنْ زَارَ

(١) المقرر : الثابت المحقق . (٢) كيف سيرته : جعل لها كيفية معلومة . (٣) القويم :

المتعدل المستقيم . (٤) التناقش : المجادلة .

مَرَّةً لِحْدَى الْمَدَارِسِ، جَاءَ اثْنَانِ مِنَ صِنَارِ الْأَوْلَادِ، وَجَلَسَا
بِجَانِبِهِ . فَسَأَلَهُمَا سُقْرَاطُ :

— أَيْكُمَا أَكْبَرُ سِنًا مِنَ الْآخَرِ ؟

فَأَجَابَ أَحَدُهُمَا :

— إِنَّا نَتَخَاصَمُ فِي ذَلِكَ .

فَقَالَ سُقْرَاطُ :

— أَيْكُمَا أَشْرَفُ، وَأَيْكُمَا أَجْمَلُ ؟ وَهَلْ تَرَيَانِ فِي مِثْلِ

هَذِهِ الْأُمُورِ مَوْضُوعًا لِلتَّخَصُّمِ ؟

فَضَحِكَ الْوَلَدَانِ وَأَجَابَا :

— نَعَمْ .

وَلَكِنَّ سُقْرَاطَ نَظَرَ إِلَيْهِمَا جَادًّا وَقَالَ :

— لَسْتُ أَسْأَلُ أَيْكُمَا أَغْنَى ، لِأَنَّكُمَا صَدِيقَانِ ، وَكُلُّهُ

شَيْءٌ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ مُشْتَرَكٌ ^(١) ، فَلَيْسَ الْوَاحِدُ مِنْهُمُ أَغْنَى مِنَ

الْآخَرِ .

وَلَمَّا طَعَنَ سُقْرَاطُ فِي السَّنِّ ذَاعَتْ ^(٢) شُهْرَتُهُ فِي الْأَفَاقِ ،

(١) المترك : ما كان لك ولغيرك حصة فيه . (٢) ذاعت : انتشرت .

وَفُتِحَتْ فِي وَجْهِهِ أَبْوَابُ كَثِيرٍ مِنْ مَنَازِلِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأَشْرَافِ ،
لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَرَوْنَ شَرَفًا لَهُمْ أَنْ يَسْتَنْصِفِيَهُمْ ^(١) سُقْرَاطُ .
وَأَجْتَمَعَ حَوْلَهُ مَعَ الزَّمَنِ زُمْرَةٌ ^(٢) مِنَ الطُّلَّابِ ، وَكَانُوا
يَتَّبِعُونَهُ أَيْنَمَا سَارَ . وَكَانَ يَتَّبِعُهُمْ شَابٌّ ، يُدْعَى أَفْلَاطُونُ ،
وَعَى ^(٣) كُلَّ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا مُعَلِّمُهُ ، وَغَدَا فِيهَا بَعْدُ مُعَلِّمًا
شَهِيرًا ، كَسُقْرَاطَ نَفْسِهِ . وَقَامَ أَفْلَاطُونُ بِمَعْلَمِ سُقْرَاطَ وَوَاصَلَ
تَهْذِيبَ عُقُولِ النَّاسِ ، لِيَجْعَلِيَهُمْ يُفَكِّرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ . وَلَمْ
يَكْتَفِ أَفْلَاطُونُ بِأَنْ يُعَلِّمَ بِالْمُحَادَثَةِ ، كَمَا فَعَلَ مُعَلِّمُهُ ، بَلْ
قَضَى مُعْظَمَ حَيَاتِهِ يَكْتُبُ وَيُؤَلِّفُ مُحَادَثَاتٍ ، بَيْنَ سُقْرَاطَ
وَأَخْرَيْنَ ، تَكَادُ لَا تَعْدُو ^(٤) الْوَاقِعَ . وَقَدْ اسْتَقْنَيْنَا أَكْثَرَ مَا
نَعْرِفُهُ عَنْ سُقْرَاطَ ، مِنْ كُتُبِ أَفْلَاطُونِ ، لِأَنَّ سُقْرَاطَ نَفْسَهُ
لَمْ يَكْتُبْ شَيْئًا .

وَمَعَ أَنَّ كَثِيرِينَ كَانُوا يُحِبُّونَ سُقْرَاطَ الشَّيْخَ ، وَيَتَّبِعُونَهُ
بِحِكْمَتِهِ ، فَإِنَّ أَلْبَعْضَ لَمْ تَرْفُقْهُمْ ^(٥) تَعَالِيَهُ . فَإِنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُ :

(١) استضافته : طلب إليه الضيافة . (٢) زمرة : جماعة . (٣) وعى الحديث : حفظه . (٤) لا تعدو : لا تتجاوز . (٥) لم ترفقهم : لم تنسجهم ولم تدرهم .

»أَنَّ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ تَأْثِيرًا فِي سِيرَتِهِ أَعْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِ آلِهَةٍ« .
فَظَهَرَ ذَلِكَ لِبَعْضِهِمْ بِدَعَا^(١) جَدِيدَةٍ ، وَرَأْيَا فَاثِلًا .^(٢) وَكَانَ يَقُولُ :
»إِنَّ مِنْ الْأَعْمَالِ مَا هُوَ أَشْرَفُ مِنَ التَّضْحِيَةِ لِلْآلِهَةِ أَثِينًا ،
وغيرها مِنْ آلِهَةِ الْيُونَانِ « . فَظَنَّ الْكَثِيرُونَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَقْوُذُ
الشَّيْبَةَ فِي سَبِيلِ الضَّلَالِ .

حينئذِ اسْتَدْعَى حُكَّامُ أَثِينَا سُقْرَاطَ لِيُمَثِّلَ أَمَامَهُمْ لِمُحَاكَمَتِهِ .
فَرَغِبَ إِلَيْهِ^(٣) أَصْدِقَاؤُهُ أَنْ يَهْرُبَ ، أَوْ أَنْ يَخْتَبِئَ ، ريثَمَا^(٤)
تَنْقُضِيَ الْعَاصِفَةُ . إِلَّا أَنَّ سُقْرَاطَ لَمْ يَكُنْ جَبَانًا . فَقَدْ كَانَ
يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ شَرًّا ، وَإِنَّمَا عَلِمَ مَا كَانَ يَرَاهُ عَدْلًا وَحَقًّا .
وَلِذَا ذَهَبَ إِلَى الْحَكْمَةِ شَيْخًا قَصِيرَ الْقَامَةِ ، دَمِيمَ الْخَلْقَةِ ،
مُتَغَبِّرًا عَلَيْهِ آثَارُ السَّفَرِ . غَيْرَ أَنَّ قَلْبًا نَبِيلًا كَانَ يَحْفَقُ تَحْتَ
ثِيَابِهِ الرَّثِيَّةِ الَّتِي أَلْفَهَا^(٥) الْجَمِيعُ .

وَلَا يَزَالُ فِي إِمْكَانِنَا أَنْ نَقْرَأَ عَنْ مُحَاكَمَةِ سُقْرَاطَ وَمَوْتِهِ ،
لِأَنَّ تِلْمِيزَهُ الْحَبِيبَ ، أَفْلَاطُونَ ، كَتَبَ فِي ذَلِكَ وَصْفًا ، يُعَدُّ

(١) البدعة : السبحة المحدثه المخالفة للإيمان : (٢) الرأي القائل : الخاطيء .

(٣) رغب اليه : التمس . (٤) ريثما تنقضي العاصفة : مقدار مهلة اغضبائها . (٥) ألف

التي : تعود .

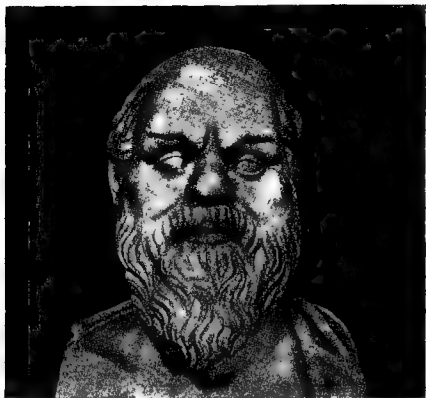
مِنْ أَفْضَلِ مَا كُتِبَ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ . فَذَكَرَ كَيْفَ مَثَلُ مُلْكِهِ
أَمَامَ الْقُضَاةِ لِيُدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَلْتَّهَمَ . فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ
صَدِيقٌ لِلْأَيْمَنِينَ ، وَإِنْ كَانُوا يَجْهَلُونَ ذَلِكَ . وَقَالَ لَهُمْ إِنَّهُمْ لَا
يَعْنَمُونَ شَيْئًا إِذَا سَلَبُوا السَّنَوَاتِ الْآخِرَةَ الْقَلِيلَةَ مِنْ حَيَاتِهِ ،
وَلَكِنَّهُ يَرْضَى أَنْ يَمُوتَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، فِي سَبِيلِ مَا يَتَقَدُّ
أَنَّهُ حَقٌّ .

وَقَدْ اسْتَمَعَ لَهُ الْقُضَاةُ ، وَطَرَحُوا عَلَيْهِ أَسْئَلَةً ، وَأَخِيرَ أَحْكَمُوا
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ . فَلَمْ يَتَطَلَّمِ الشَّيْخُ ، بَلْ تَوَكَّأَ ^(١) عَلَى عَصَاهُ ، وَأَجَالَ
حُرْفَةً فِي الْجَمْعِ الْمُخْتَشِدِ ^(٢) فِي الْمَحْكَمَةِ وَقَالَ :

— الْمَوْتُ إِمَّا إِنَّهُ الْعَدَمُ ، وَإِمَّا إِنَّهُ انْتِقَالُ الرُّوحِ مِنْ
هَذَا الْعَالَمِ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ . وَلِذَا ابْتَهَجُوا ، وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَا ضَرَرَ
يُصِيبُ الْإِنْسَانَ الصَّالِحَ فِي الْحَيَاةِ أَوْ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَقَدْ حَانَتْ
سَاعَةُ الْفِرَاقِ ، فَيَذْهَبُ كُلُّ مِتٍّ فِي سَبِيلِهِ ، أَنَا أَذْهَبُ إِلَى الْمَوْتِ
وَأَنْتُمْ إِلَى الْحَيَاةِ . وَاللَّهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ أَيُّ السَّبِيلَيْنِ أَفْضَلُ .

وَأَخَذَ مِنْ تَمِّ إِلَى السَّجْنِ ، فَتَبِعَهُ إِلَيْهِ أَمْرَأَتُهُ وَأَوْلَادُهُ

(١) توكأ على عصاه : اعتمد وتحمل عليها : (٢) المختشد : المجموع .



سقراط الفيلسوف

الثلاثة ، وتلاميذه . فألقى عليهم كثيراً من الدروس الحكيمة ،
ولكن الحزن كان يملأ قلوبهم . وذلك ، كما كتب أفلاطون ،
«لأنه كان لنا أباً ، كنا على وشك أن نفقده ، ونفسي بقيّة
حياتنا يتامى» .

وفي صباح اليوم المشؤوم ^(١) اجتمع أصدقاؤه في السجن
وقضوا معظم النهار يتباحثون في خلود النفس . وعند المساء

(١) المشؤوم : الذي يحير المرء .

أَقْبَلَ السَّجَّانُ ، وَسَأَلَ سُقْرَاطَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ . وَكَانَتْ الْمَادَّةُ
فِي أَثِينَا ، إِذَا حُكِمَ عَلَى أَحَدٍ بِالْمَوْتِ أَنْ يُسْقَى كَأْسًا مِنْ
السَّمِّ . وَقَالَ السَّجَّانُ :

— إِنْ أَعْلَمْتُ يَا سُقْرَاطُ أَنَّكَ أَشْرَفُ وَأَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَنْ
جَاءَ حَتَّى الْآنَ إِلَى هَذَا الْمَسْكَانِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَفْتَاظُ مِنِّي إِذَا
سَأَلْتُكَ أَنْ تَشْرَبَ السَّمَّ ، فَمَا أَنَا الْمَذْنُوبُ ، بَلْ غَيْرِي . وَدَاعًا
وَحَاوِلْ أَنْ تَتَجَمَّلَ بِصَبْرٍ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ . وَأَنْتَ
أَذْرَى بِمُجِئِي .

وَخَرَجَ السَّجَّانُ دَائِعَ الْعَيْنِ ، وَعَادَ بِكَأْسٍ مِنَ الشُّوْكَرَانِ ^(١) .
فَقَالَ سُقْرَاطُ :

— عَسَى أَنْ تُسَهِّلَ الْإِلَهَةُ أُرْتِحَالِي مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى
الْعَالَمِ الْآخِرِ . ثُمَّ رَفَعَ الْكَأْسَ إِلَى شَفْتَيْهِ .

وَحَاوِلْ تَلَامِيذُهُ أَنْ يَضْبُطُوا ^(٢) دُمُوعَهُمْ ، إِلَّا أَنْ وَاحِدًا
مِنْهُمْ ائْتَحَبَ ^(٣) ، وَفِي الْحَالِ دَوَتْ الْعُرْفَةُ بِالْعَوِيلِ ^(٤) .

(١) الشوكران : نبات سام (٢) ضبط الدمع : قوي عليه وجهه . (٣) اتعجب :
بكى شديداً . (٤) العويل : رفع الصوت بالبكاء .

فَأَمْسَكَ^(١) سُقْرَاطُ عَنْ تَجَرُّعِ^(٢) مَا بَقِيَ مِنَ السَّمِّ وَقَالَ:
 — مَا هَذَا الصُّحُيْجُ الْغَرِيبُ؟ إِنِّي إِنَّمَا أُخْرِجْتُ النِّسَاءَ
 لِئَلَّا يَفْعَلْنَ مَا أَنْتُمْ فَاعِلُونَ، فَقَدْ قِيلَ لِي إِنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي أَنْ
 يَمُوتَ بِسَلَامٍ. فَالْزَمُوا السَّكِينَةَ. إِذَنْ، وَلَا تَجْزَعُوا^(٣).
 ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ كَمَنْ فَطِنَ لَشَيْءٍ، وَهَمَسَ^(٤) إِلَى أَحَدٍ
 تَلَامِيذِهِ:

— إِنِّي مَدِينٌ يَا كَرِيثُو إِلَى أَسْلَافِيئُوسَ بِشَنْ دِيكِ*،
 أَقْنَدْ كُرُّ أَنْ تَدْفَعَ الدِّينَ؟
 فَأَجَابَ كَرِيثُو:
 — إِنَّ الدِّينَ سَيُدْفَعُ، فَهَلْ لَكَ حَاجَةٌ أُخْرَى؟
 وَأَنْصَتَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ جَوَابًا، فَإِنَّ سُقْرَاطَ، أَعْظَمَ
 الْيُونَانِيِّينَ جَمِيعًا، كَانَ قَدْ مَاتَ.



* كَانَتْ الْعَادَةُ عِنْدَ الْقُدَمَاءَ، إِذَا أُصِيبَ أَحَدُهُمْ بِمَرَضٍ،

(١) أَمْسَكَ عَنْ الشَّيْءِ: كَفَّ عَنْهُ وَامْتَنَعَ. (٢) تَجَرَّعَ السَّمَّ: شَرِبَهُ شَيْئًا فُشِيئًا.
 (٣) جَزَعَ (بِكسر الزاي): لَمْ يَطْلُقْ صَبْرًا. (٤) هَمَسَ: كَلَمَهُ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ.

أَنْ يَنْذَرَ^(١) دِينَكَ أَوْ تَقْدِمَةَ أُخْرَى لِأَسْلَافِيُوسَ ، إِلَهَ الشِّفَاءِ ،
وَأَنْ يَأْخُذَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُوفِيَ^(٢) ، لَدَى شِفَائِهِ ، مَا يَكُونُ قَدْ
نَذَرَهُ عَلَى فِرَاشِ الْمَرَضِ . وَقَدْ رَغِبَ سُقْرَاطُ أَنْ يُؤَدِّيَ^(٣)
دَيْنَهُ ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَفِيَ مِنْ مَرَضِ الْحَيَاةِ الطَّوِيلِ .



(١) نذرة مقدمة : أوجبها على نفسه تبرعاً . (٢) أوفى النذريوفيه : أبلقه .
(٣) يؤدي الدين : يوصله .

الأسكندر الكبير

في السنين التي تلت قهرَ اليونانِ للفرسِ ، نشبت الحربُ بينَ أثينا وإسبرطة ، فكانَ نتيجةَ ذلكَ أنَ صارَ الفريقانِ إلى الضعفِ . وعندئذٍ قامَ ملكُ داهية^(١) ، وصممَ أنَ يوحدَ اليونانيينَ جميعاً ، ويخضعَهُمَ لحُكمِهِ ، ثمَّ يزحفَ بِهِمَ لِقِتالِ الفُرسِ أعدائِهِمُ القُدماءَ . وهذا الرَّجُلُ يدعى فيليب .

وكانَ فيليبُ جُنْدِيًّا عَظِيماً ، عاشَ في أرضِ مَكْدُونِيَّةَ ، وهي قُطْرٌ إلى الشمالِ مِنِ بلادِ اليونانِ . وفي ذاتِ يومٍ ، كانَ فيليبُ يُقيمُ عيداً لنَصْرِ أحرزَهُ عَلَى أعدائِهِ ، فجاءَهُ ثلاثةُ سُعاةٍ عَلَى التَّوَالِي^(٢) ، وأَعْلَمُوهُ أَنَّ جِوَادَهُ سَبَقَ فِي الْأَلْبابِ الْأُولَمِبيَّةِ ، وَأَنَّ قائِدَهُ بَرْمِثِيونَ تَغَلَّبَ عَلَى الْإِلِيرِيِّينَ ، وَأَنَّ زَوْجَتَهُ أُولَمِبيَّا وَلَدَتْ لَهُ غُلَاماً . وكانَ فيليبُ مَلِكاً عَظِيماً ، وَلَكِنَّ ابْنَهُ الصَّغِيرَ ، هذا ، كانَ عَتِداً^(٣) أنَ يَصِيرَ أَعْظَمَ مِنْهُ .

(١) الداهية : التي يضل الامور العظيمة . (٢) على التوالي : اي علي الواحد

الآخر . (٣) العتيد : الحاضر اليأ .

فَعَادَ فِيلِبُّ إِلَى قَصْرِهِ لِيَرَى طِفْلَهُ ، وَتَمَّاهُ الْإِسْكَندَرُ ،^(١)
وَعَقَدَ النَّيَّةَ^(٢) عَلَى أَنْ يُعَلِّمَهُ ، لِيَصِيرَ مَلِكًا كَبِيرًا ، وَجُنْدِيًّا
عَظِيمًا . وَكَانَ فِيلِبُّ وَالْإِسْكَندَرُ أَوَّلَ مَلِكَيْنِ ، وَحَدَا مُدُنَ
أَلْيُونَانَ الشَّهِيرَةَ ، وَأَخْضَعَاهَا لِإِدَارَةِ وَاحِدَةٍ ، مَعَ أَنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا
يُونَانِيِّينَ .

وَعَهْدَ^(٣) فِي تَرْبِيَةِ الْإِسْكَندَرِ ، وَهُوَ فِي طُفُولِيَّتِهِ ، إِلَى
لِإِخْدَى الْمُرِّيَّاتِ . وَلَمَّا بَلَغَ السَّادِسَةَ مِنَ الْعُمُرِ ، قَالَ أَبُوهُ فِي نَفْسِهِ :
«إِنَّ وَلَدِي يَتَقَدَّمُ فِي السَّنِّ ، وَقَدْ حَانَ لَهُ أَنْ يُقْتَبَسَ
الْعِلْمُ ، وَيَشْرَعَ فِي التَّدْرِبِ^(٤) عَلَى الْأَعْمَالِ الْجُنْدِيَّةِ ” .

وَلِذَا اخْتَارَ الْمُعَلِّمِينَ لِلْأَمِيرِ الصَّغِيرِ . فَعَلِمَ هَؤُلَاءِ الْمُعَلِّمُونَ
الْإِسْكَندَرَ أَنْ يَقْرَأَ ، وَيَكْتُبَ ، وَيُلْقِيَ الْخُطْبَ . وَكَانَ عَلَيْهِ
فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْ يَرْتَاضَ^(٥) وَيَرْكَبَ الْخَيْلَ ، لِيَحْفَظَ جَسَدَهُ
سَلَامًا . وَكَانَ فِي الشِّتَاءِ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الرَّقِيقَةَ لِيَتَعَوَّدَ الْبَرْدَ ،
وَفِي الصَّيْفِ يُصَارِعُ ، وَيُحَاضِرُ^(٦) ، لَا يَشْكُو الْخَرَّ .

(١) الإسكندر : يعني في اليونانية صغير الرجال (٢) عقد النية على العمل : صمم عليه .

(٣) عهده في كفا : أوصاه وأوعز اليه . (٤) التدريب : التعود . (٥) الارتياض :

تذليل النفس وتعويدھا للتأعب . (٦) يحاضر : يماضي في الركض .

وَلَمَّا بَلَغَ الْأَمِيرُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ ، رَأَى فِلبُ أَنْ
وَلَدَهُ قَدْ غَدَا قَوِيًّا شُجَاعًا ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

«إِنْ الْأِسْكَندَرَ سَيَكُونُ مِنْ خَيْرِ الْجُنُودِ ، فَيَنْبَغِي أَلَّا
تَعْلِمُهُ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا» .

فَاسْتَقْدَمَ ^(١) رَجُلًا يُونَانِيًّا ، يُدْعَى أَرِسْطُوطَالِيسَ ، وَسَأَلَهُ
أَنْ يَهْدُبَ وَلَدَهُ ، لِكَيْ يَصِيرَ مَلِكًا حَكِيمًا . فَتَعَلَّمَ الْأِسْكَندَرُ مِنْ
أَرِسْطُوطَالِيسَ أَنْ يُحِبَّ كُلَّ مَا هُوَ يُونَانِيٌّ . فَصَارَ مُوسِيقِيًّا
مَاهِرًا ، وَعُني بِعِلْمِ الطَّبِّ ، وَالطَّبِيعِيَّاتِ ، وَالشَّعْرِ ، عِنَايَةً كَبِيرَةً .
وَمَعَ أَنْ أَرِسْطُوطَالِيسَ كَانَ مُرَبِّي الْأِسْكَندَرَ ، الَّذِي غَدَا مِنْ
أَعْظَمِ الْفَاتِحِينَ ، وَمَعَ أَنَّهُ رُزِقَ أَثَقَبَ ^(٢) ذَهْنٍ ^(٣) رُبَّمَا عَرَفَهُ
الْعَالَمُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ الْأِسْكَندَرَ فِي كُلِّ كُتُبِهِ الشَّهِيرَةِ .
أَفَلَيْسَ هَذَا غَرِيبًا ؟

وَأَتَّفَقَ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَالْإِسْكَندَرُ لَا يَزَالُ قَتَى ، أَنْ جِيءَ إِلَى
الْقَصْرِ بِجَوَادٍ جَمِيلٍ اسْمُهُ بُونِسِفَالُوسُ ، وَقَدْ دُعِيَ بِهَذَا الْاسْمِ ،

(١) اسْتَعْمَدَ : طَلَبَ قُدُومَهُ . (٢) عَقِل ثاقِب : حَاقِق . (٣) الذَّهْنُ :

لأنَّهُ كَانَ مُسَيِّمًا^(١) بِعَلَامَةٍ تُشَبِّهُ رَأْسَ الثَّوْرِ . وَكَانَ هَذَا الْجَوَادُ شَامِسًا^(٢) شَرِسًا جِدًّا ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَرْكَبَهُ . فَقَالَ فِيلِبُّ :

— خُذُوهُ عَنِّي ، فَإِنِّي لَا أَشْتَرِي حِمَانًا وَخَشِيًا .

فَقَالَ الْإِسْكَندَرُ :

— أَنَا أَرْكَبُهُ .

وَأَمْسَكَ بِلِجَامِ الْجَوَادِ الثَّامِرِ ، وَأَدَارَ وَجْهَهُ جِهَةَ الشَّمْسِ لِأَنَّهُ أَذْرَكَ أَنَّ بوسيفالوسَ خَائِفٌ مِنْ ظِلِّهِ نَفْسِهِ . وَوَتَبَ غَيْرَ هَيَّابٍ إِلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ ، فَأَنْدَفَعَ بِهِ فِي السَّهْلِ . وَكَانَ الْجَوَادُ يَزْدَادُ سُرْعَةً ، وَقَدْ عَقَدَ الْخَوْفُ أَلْسِنَةَ الْمَلِكِ وَحَاشِيَتِهِ ، فَظَلُّوا يَنْظُرُونَ صَامِتِينَ . وَلَمَّا رَأَى الْإِسْكَندَرُ أَنَّ الْحِمَانَ قَدْ ارْتَضَ ، كَرَّ^(٣) رَاجِعًا إِلَى أَبِيهِ . فَأَسْتَقْبَلَهُ رِجَالُ الْحَاشِيَةِ بِالْمُهْتَافِ^(٤) وَصَاحُوا :

— لِيَخِيَ الْأَمِيرُ !

(١) التسميسة : كانت فيه علامة يعرف بها . (٢) الحصان الفارس : الذي يمنح ظهره ويكاد لا يستقر . (٣) كر : رجع وعطف . (٤) المهتاف : انصوت العالي .



الاسكندر الكبير

وَأَمَّا فِيلِبُّ فَقَالَ ، وَقَدْ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ فَرَحًا :
 — لِنَجْتَث يَا وَلَدِي عَنْ مَمْلَكَةٍ أُخْرَى ، فَإِنَّ مَكْدُونِيَّةَ
 عَمَّا قَلِيلٍ لَنْ تَكْفِيكَ .

فَسَرَّ الْأِسْكَندَرُ بِهَذَا الْكَلَامِ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَظِيمَ الطَّمُوحِ ،
 وَكَثِيرًا مَا ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ لَيْلًا ، وَهُوَ سَهْرَانُ يُعِدُّ الْخُطُطَ ^(١) .
 وَلَنَشَأَ شَابًا جَمِيلَ الطَّلَعَةِ ^(٢) ، قَوِيَّ الْبُنْيَةِ ^(٣) ، رُبْعَ الْقَامَةِ ^(٤) .
 وَقَدْ أَعْتَادَ أَنْ يُمِيلَ رَأْسَهُ إِلَى جِهَةٍ وَهُوَ يُضْنِي . وَسَرَّحَانَ مَا
 أَقْبَسَ قُوَادَهُ وَرِجَالُ حَاشِيَتِهِ هَذِهِ الْعَادَةُ . وَكَانَ يُحِبُّ أُخِيلَ
 حُبًّا عَظِيمًا ، وَيَحْتَفِظُ تَحْتَ وِسَادَتِهِ بِنُسْخَةٍ مِنْ إِيَادَةِ هُومِيروسَ ،
 لِيَقْرَأَ عَنْ أَبْطَالِ طَرْوَادَةِ . وَكَانَ قَدْ مَضَى عَلَى حَرْبِ طَرْوَادَةِ
 زُهَاهُ ثَمَانِي مِثَّةٍ سَنَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْحَرْبَ ، بَيْنَ الْيُونَانِ وَالْفُرْسِ ، لَمْ
 يَكُنْ قَدْ مَضَى عَلَيْهَا سِوَى مِثَّةٍ سَنَةٍ . وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ
 فَاتِحًا ، وَأَنْ يَسِيرَ إِلَى أَقْطَارِ مَجْهُولَةٍ ، لِيَغْنَمَ مَمْلَكَةً عَظِيمَةً لِنَفْسِهِ .
 وَكَثِيرًا مَا فَكَّرَ فِي ذَلِكَ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَسْتَأْذِنُ أَجْيَانًا ، لَمَّا كَانَ

(١) الخطط جمع خطة (بضم الخاء) : الامور المشككة والتي يصمم على إتيناها .
 (٢) جميل الطلعة : جميل الرؤية والصورة . (٣) البنية : العظيرة . (٤) ربع القامة :
 بين الطويل والقصير . (٥) تبرم بالشيء : قلق وتضجر منه .

أَبُوهُ يَرْحَلُ لِحَارَبَةِ الْأَعْدَاءِ، وَيَتَصَرُّ فِي الْمِتَارِكِ. وَكَانَ
يَتَبَرَّمُ ^(١) بِذَلِكَ قَاتِلًا:

— إِنَّ أَبِي يُحْزِرُ النَّصْرَ بَعْدَ النَّصْرِ، فَلَنْ يَبْقَى لِي شَيْءٌ
أَصْنَعُهُ عِنْدَمَا أَكْبُرَ.

وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ الْفَتَى الطَّمَّاحَ ^(٢) كَانَ عَلَى خَطِئًا. فَقَدْ جَاءَ
يَوْمٌ، قُتِلَ فِيهِ أَبُوهُ، فَعِنْدًا مَلِكًا مَكَانَهُ، وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي
الْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِهِ. وَقَدْ ظَلَّ عَلَى رَأْيِهِ أَنَّ مَكْدُونِيَّةً، وَبِلَادَ
أَلْيُونَانِ نَفْسَهَا، لَمْ تَكُنْ سِوَى تَمَلِكَةٍ صَغِيرَةٍ، فَخَبَرَ الْبَحْرَ
لِيَسْتَوَلِيَ عَلَى أَقْطَارِ جَدِيدَةٍ.

وَكَانَ مُعْظَمُ هَذِهِ الْأَقْطَارِ أَوَاقِعَةٍ وَرَاءَ الْبَحْرِ خَاضِعًا لِمَلِكِ
جَارِسِيِّ، يُدْعَى دَارِيُوسَ الثَّالِثَ. وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي مَرَّ بِنَا
ذِكْرُهُ. وَكَانَ النَّاسُ يُلقِبُونَهُ بِالْمَلِكِ الْعَظِيمِ، لِأَنَّهُ كَانَ سَيِّدَ
آسِيَا كُلِّهَا، إِلَّا قَلِيلًا. وَقَدْ عَقَدَ الْإِسْكَنْدَرُ النِّيَّةَ عَلَى حُرَابَةِ
الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، وَالْإِقْتِصَاصِ مِنَ الْفُرْسِ لِنَزْوِهِمْ بِلَادَ أَلْيُونَانِ،
قَبْلَ مِئَةِ سَنَةٍ. وَكَانَ ذَلِكَ مَطْلَبًا صَعْبًا، غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ الشَّابَّ

(١) تَبَرَّمَ بِالْفِيءِ = قَتَلَ وَتَضَجَّرَ مِنْهُ. (٢) الطَّمَّاحُ : الْغَرَّهُ وَالْبَعِيدُ النَّظَرَ.

كَانَ جُنْدِيًّا بَاسِلًا ، وَقَائِدًا خَيْرًا . وَكَانَ رَجَالُهُ يَتَقَوَّنَ ^(١) بِهِ ،
وَمَتَّى رَأَوْا خُودَتَهُ ^(٢) ذَاتَ الرِّيشِ الْأَبْيَضِ ، فِي مُزْدَجَمٍ ^(٣) ،
الْمُهَارِكِ ، يُقَاتِلُونَ بِسَالَةٍ ، تُعَادِلُ بِسَالَةَ قَائِدِهِمْ . فَلَمْ يَطُلِ الْوَقْتُ
حَتَّى أَخَذَ دَارِيُوسُ وَقُوَادَهُ يَنْهَرِمُونَ أَمَامَ الْإِسْكَندَرِ .

غَادَرَ الْإِسْكَندَرُ أُورُبَّا ، وَلَمْ يَمُذْ إِلَيْهَا . فَعَبَّرَ مَضِيقَ
هَلِسْبُنتُوسَ بِجَيْشِهِ الْمُتَوَلِّفِ مِنْ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ ،
وَكَسَرَ الْفُرسَ فِي مَعْرَكَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْ نَهْرِ
غِرَانِيكُوسَ ، وَفِي لَارُوسَ . وَأَقْبَلَ فِي سَبِيلِهِ عَلَى مَدِينَةٍ تُدْعَى
غُورْدِيَا . وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ قَصْرٌ ، وَفِي الْقَصْرِ مَرْكَبَةٌ ، شَدَّ
نِيرُهَا ^(٤) بِفُصْنِ شَجَرَةٍ مُمَقَّدَةٍ . وَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ إِنَّ الرَّجُلَ
الَّذِي يَفُكُ الْمُقَدَّةَ لَا بُدَّ أَنْ يُصْبِحَ سَيِّدَ آسِيَا . وَسَأَلَ أَهْلُ
غُورْدِيَا الْإِسْكَندَرَ أَنْ يُجَرِّبَ ذَلِكَ . فَلَوَّى الْإِسْكَندَرُ الْمُقَدَّةَ
وَشَدَّهَا ، وَلَمَّا كَانَتْهَا اسْتَمَقَّتْ عَلَيْهِ ^(٥) . فَضَحِكَ ، وَجَرَّدَ سَيْفَهُ ،

(١) وثق (بكسر التاء) يثق به : إيمنه . (٢) الخوذة : ما يجهله المحارب على رأسه ليقيه . (٣) المزدم : مكان الازدحام والتضيق . (٤) النير : الحفة المعلقة في المركبة وغيرها . وهي تمدد الى اعناق الخيل او الثيران التي تجر الأداة . (٥) استمقت عليه : اشتدت .

وَشَطَرَ^(١) الْعُقْدَةَ . فَهَفَّ جُنُودُهُ كُلُّهُمْ ، وَكَانُوا قَدْ أَشْفَقُوا^(٢)
أَنْ يُحْفِقَ^(٣) الْإِسْكَندَرُ فِي مُحَاوَلَتِهِ^(٤) ، وَقَالُوا :
— سَيُصْبِحُ الْإِسْكَندَرُ سَيِّدَ آسِيَا .

وَوَلَّى الْإِسْكَندَرُ وَجْهَهُ مِنْ تَمَّ شَطَرَ^(٥) الْجَنُوبِ ، وَأَسْتَوَى
عَلَى سُورِيَّةَ ، وَفِلِسْطِينَ ، وَقَضَى مِنْ أَرَمَنِ فِي فَتْحِ مَدِينَتَيْ
صُورٍ وَغَزَّةَ مَا لَمْ يَقْضِهِ فِي فَتْحِ قَطْرِ بِأَسْرِهِ . وَجَارَ بِمِصْرَ ،
وَأَتَحَدَرَ فِي النَّيْلِ إِلَى جَزِيرَةِ فَارُوسَ . وَقَالَ :

— سَأَبْنِي هُنَا مَدِينَةً وَأَدْعُوهَا الْإِسْكَندَرِيَّةَ ، تَخْلِيداً
لِدَكْرِي .

فَبُنِيَتْ الْإِسْكَندَرِيَّةُ ، وَكَانَتْ حَاصِمَةً لِمِصْرَ أَلْفَ سَنَةٍ .
وَزَلَّتْ قُرُونًا عَدِيدَةً مِنْ أَكْثَرِ مُدُنِ الْعَالَمِ . وَهِيَ الْيَوْمَ عَرُوسُ
الْمَدَائِنِ فِي الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ ، وَمِينَاءُ جَمِيلٌ تَوَهُ^(٦) مُفْنٌ
الْأَمَمِ جَمِيعًا .

وَفِيهَا كَانَ الْعَمَلَةُ مُنْهَكِبِينَ فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ ، جَمَعَ الْإِسْكَندَرُ

(١) شطرها : جعلها نصفين . (٢) اشفقوا منه : خافوا . (٣) أخفق : خاب .
(٤) المحاولة : طلب بل الشيء بحيلة . (٥) ولي وجهه شطر الجنوب : جعله ناحية .
(٦) تَوَهُ : قصده .

جَيْشَهُ، وَسَارَ مُفَكَّرًا فِي أَمْرِ دَارِيُوسَ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ الَّذِي
لَمْ يَسْتَوِلْ عَلَى سَائِرِ ^(١) بِلَادِهِ. وَأَقْبَلَ دَارِيُوسُ لِمُلَاقَاتِهِ، بِجَيْشٍ
عَظِيمٍ، يُرَبِّي ^(٢) عَلَى كُلِّ جَيْشٍ حَشْدَهُ ^(٣) قَبْلًا. وَرَكِبَ هُوَ
نَفْسَهُ فِي مَرْكَبَةٍ مُذَمَّجَةٍ، بُنِيَتْ الْمَنَاجِلُ فِي عَجَلَاتِهَا. وَأَصْطَدَمَ ^(٤)
الْجَيْشَانِ فِي مَعْرَكَةِ أَرْيَلَةَ، وَلَكِنْ دَارِيُوسَ لَمْ يَكُنْ مِنْ
رِجَالِ الإسْكَندَرِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَتَبَ مِنْ مَرْكَبَتِهِ، وَانْهَزَمَ
وَأَكْبَا جَوَادًا.

وَوَاصَلَ الإسْكَندَرُ زَحْفَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ بَابِلَ،
وَكَانَتْ وَقْتَهُ خَرَابًا. وَأَسْتَوَى عَلَى مَدِينَةِ بَرْسِيْبُولِيسَ، وَكَانَتْ،
عَلَى مَا قِيلَ، أَفْخَمَ مُدُنِ الْعَالَمِ، فَوَجَدَ هُنَاكَ كُلَّ مَا كَانَ
مُلُوكُ الْفُرْسِ قَدْ حَشَدُوهُ، فِي سِنِينَ طَوِيلَةٍ، مِنَ الذَّهَبِ،
وَالْفِضَّةِ، وَالْجَوَاهِرِ، وَالْبُسْطِ، وَالْعُطُورِ، وَالنَّسِجِ ^(٥) الْحَرِيرِيَّةِ.
غَيْرَ أَنَّ الإسْكَندَرَ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا، بَلْ سَارَ فِي أَثَرِ دَارِيُوسَ،
يَقْضِي الْيَوْمَ بَعْدَ الْيَوْمِ، وَالْأُسْبُوعَ بَعْدَ الْأُسْبُوعِ، وَيَفْتَحُ

(١) سائر الفيء : باقيه . (٢) اربي عليه يرني : زاد . (٣) حشده : جمعه .

(٤) اصطدم الجيشان : ضرب أحدهما الآخر بنفسه . (٥) النسج جمع النسيج : المنسوج .

ما في طريقه من المَدُنِ، وأخيراً وَجَدَ عَدُوَّهُ، ذاتَ يَوْمٍ،
طَرِيحاً عَلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، مُقَرَّراً^(١) في الثَّرَابِ، وَحِصَانُهُ إِلَى
جَانِبِهِ، يَزْعِي العُشْبَ، وَهُوَ لَا يَزَالُ مَشْدُوداً إِلَى الْمَرْكَبَةِ.
وَكَانَ قَدْ مَاتَ مَقْتُولاً بِيَدِ ابْنِ عَمِّهِ بَسُوسَ. فَلَمَّا رَأَاهُ الإسْكَندَرُ
وَحِيداً، وَلَيْسَ مِنْ صَدِيقِ جِيحَانِهِ يَنْوَحُ عَلَيْهِ، أَكْتَابَ
وَعَطَى جُثَّةَ الْمَلِكِ بِرِدَاهِ أَرْجُوانِي، مَلَكِيٍّ، وَأَمَرَ جُنُودَهُ أَنْ
يَذْفِنُوهُ بِإِكْرَامٍ.

مَاتَ دَارِيُوسُ، وَأُسْتُوْلَى الإسْكَندَرُ عَلَى مَمْلَكَتِهِ كُلِّهَا.
وَعَدَا هُوَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، وَ«الإِسْكَندَرُ الْكَبِيرُ». وَكَانَ أَوَّلُ
أَوْرُبِّي مَنَحَهُ الْأَعْقَابُ^(٢) لَقَبَ «الْكَبِيرِ».

وَلَمْ يَكْتَفِ الإسْكَندَرُ بِهَذَا، بَلْ قَالَ:

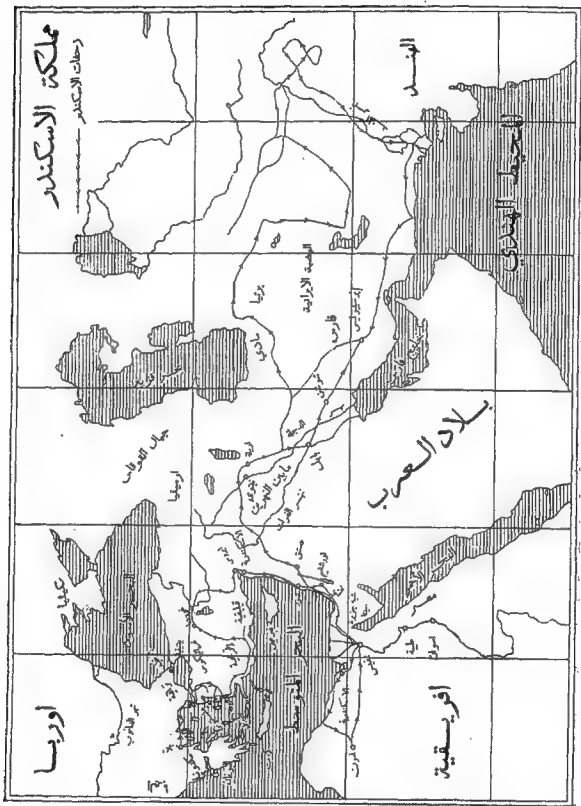
— لَا بُدَّ أَنْ أَتَوَغَّلَ^(٣) فِي الْبِلَادِ.

وَوَاصَلَ الزَّخْفَ بِجَيْشِهِ، فَاتَحَا الْأَقْطَارَ فِي طَرِيقِهِ. وَظَلَّ
يَسِيرُ حَتَّى أَتَى أَخيراً إِلَى نَهْرِ الْهِنْدِ فَعَبَّرَهُ، وَحَثَّ رِجَالَهُ عَلَى

(١) مَقَرّاً في الثَّرَابِ : مَمَرّاً . (٢) الْأَعْقَابُ جَمْعُ الْقَبِ (بِكْسَرِ الْغَافِ وَكُنُوهَا) :
الْوَلَدُ وَوَلَدُ الْوَلَدِ . (٣) تَوَغَّلَ فِي الْبِلَادِ : ذَهَبَ وَأَبْدَ .

مُواصَلَةَ السَّيْرِ ، وَفِي عَزْمِهِ أَنْ يَفْتَحَ بِلَادَ الْهِنْدِ أَيْضًا . إِلَّا أَنَّ
هَذَا كَانَ حُلْمًا لَمْ يَتَحَقَّقْ . فَإِنَّ رِجَالَ الإسْكَندَرِ قَدْ أَجْهَدُوا^(١)
التَّعَبُ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ وَاصَلُوا السَّيْرَ وَالْقِتَالَ مُدَّةَ إِحْدَى
عَشْرَةَ سَنَةً ، وَتَاقُوا أَنْ يَمُودُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ . وَكَانَتْ حَوَافِرُ خَيْلِهِمْ
قَدْ حَفِيتَ^(٢) مِنَ السَّيْرِ الْمُتَوَاصِلِ . فَسَأَلُوا الإسْكَندَرَ أَنْ يَعُودَ
بِهِمْ إِلَى مَكْدُونِيَّةَ ، فَوَاقَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَخِيرًا . وَكَانَ قَدْ غَنِمَ
إِمْبَرَاطُورِيَّةً عَظِيمَةً ، وَفَكَّرَ أَنَّهُ لَا مُبْدَأَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ،
يَتِمَكَّنُ فِيهِ مِنَ الْعُودَةِ ، وَتَوْسِيعِ نِطَاقِ^(٣) هَذِهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ .
وَعَادَ إِلَى بَابِلَ مُجْتَازًا^(٤) بِصَحَارِي بَلُوشِسْتَانَ . وَتَلَبَّتْ^(٥)
هُنَاكَ لِبَعْدٍ خُطَّةَ لِفَتْحِ بِلَادِ الْعَرَبِ مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ . وَأَدَبَ^(٦)
حَالًا بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى بَابِلَ مَادُبَةً^(٧) إِكْرَامًا لِقَائِدِهِ نِيرُكُوسَ ، الَّذِي
كَانَ عَلَى وَشِكِ الرَّحِيلِ ، لِلْحَمْلَةِ^(٨) عَلَى بِلَادِ الْعَرَبِ . فَأَفْرَطَ^(٩)
الْإِسْكَندَرُ فِي الشَّرْبِ ، وَنَامَ إِلَى سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ فِي الْيَوْمِ

(١) أجهدته : أصعبه وحمله فوق طاقته . (٢) حفيت الحوافر : رقت واهتمرت
(٣) النطاق : ما يشد به الوسط . وهنا بمعنى الحدود . (٤) اجتاز بالمكان : مر .
(٥) تلبت : توقف . (٦) أدب : عمل مأدبة ، وهي طعام يصنع لدعوة . (٧) الحملة :
الهجوم والكرة في الحرب . (٨) افراط : جاوز الحد .



مملكة الاسكندر

رحلات الاسكندر

الهند

البحر الهندي

بلاد العرب

أفريقية

اوريا

الهند الإيرانية

برشيا

فارس

إريتريا

نومون

شبة

زينة

ماينا

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

جبال القاف

أرجيا

عكيا

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

البحر

التَّالِي . فَلَمَّا أُسْتَيْقِظَ كَانَتْ الْحُمَى قَدْ أُعْزَرَتْهُ . وَأَخَذَتْ حَالَهُ
تَسْوَهُ يَوْمًا فَيَوْمًا ، وَفِي الْيَوْمِ الْعَاشِرِ عَقَدَ الصَّمْتُ لِسَانَهُ . وَمَرَّ
قُوَادُهُ الْمُتَقَرَّبُونَ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخِرِ أَمَانَةً ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ سِوَى
أَنْ يُشِيرَ لِإِشَارَةٍ ضَعِيفَةٍ بِيَدِهِ . فَسَأَلَهُ أَحَدُهُمْ :

— لِمَنْ تُوصِي بِصَوِّ لَجَانِكَ مِنْ بَعْدِكَ ؟

فَأَبْتَسَمَ وَهَمَسَ قَائِلًا :

— لِلرَّجُلِ الْأَفْضَلِ .

ثُمَّ فَاضَتْ رَوْحُهُ ^(١) .

وَمَاتَ الْإِسْكَندَرُ فِي السَّنَةِ الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِهِ ،
وَالثَّلَاثَةَ عَشْرَةَ لِمَلِكِهِ ، فِي شَهْرِ حَزِيرَانَ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ
وَالثَّلَاثَ مِئَةً ، قَبْلَ الْمَسِيحِ . وَكَانَ قَدْ أُسْتَوَلَى عَلَى أَكْثَرِ إِمْبِرَاطُورِيَّةِ
عُرِفَتْ حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَقِيلَ إِنَّهُ بَكَى لَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ
يَبْقَ مِنْ الْأَقْطَارِ مَا يَفْتَحُهُ .

وَلَمْ يَسْكُنْ قُوَادُ الْجَيْشِ أَقْوِيَاءَ كَمَوْلَانِهِمْ . وَقَدْ أَرَادَ كُلُّ
مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُتَخَّ ^(٢) لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ

(١) فاضت روحه : خرجت . (٢) أتيح له المي : تيسر .

يَتَغَلَّبَ عَلَى الْآخَرِينَ . فَلَمْ يَنْقُصِ طَوِيلُ زَمَنِ حَتَّى انْقَسَمَتْ
إِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْإِسْكَندَرِ الْعَظِيمَةِ .

وَلَكِنْ الْإِسْكَندَرُ لَمْ يُجْهِدْ^(١) نَفْسَهُ سُدًى ، فَإِنْ أَفْضَلَ
مَا فِي عَمَلِهِ قَدْ عَاشَ بَعْدَهُ . فَهُوَ قَدْ أَحَبَّ كُلَّ مَا هُوَ يُونَانِيٌّ ،
وَكَانَ الْيُونَانِيُّونَ أَعْظَمَ أُمَّةٍ ، رَأَاهَا الْعَالَمُ ، فِي الشُّعْرِ ، وَالْفُنُونِ ،
وَالنَّقْشِ وَالْحِكْمَةِ . وَقَدْ شَقَّ الْإِسْكَندَرُ يَفْتُوحِهِ طَرِيقًا مِنْ
الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ إِلَى الْهِنْدِ ، وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقِ انْتَقَلَتْ
حِكْمَةُ الْيُونَانِ وَفُنُونُهُمْ إِلَى أَقْطَارِ أُخْرَى .



(١) أَجْهَدَ نَحْوَهُ : أَتَمَّهَا .

الْوَلَدُ الَّذِي ابْغَضَ رُومِيَّةَ

كَانَ الْفِينِيقِيُّونَ، أَهْلُ مَدِينَتَيْ صُورَ وَصَيْدَاءَ، مِنْ خَيْرَةِ
رِجَالِ الْعَمَلِ . فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُعْتَنُونَ بِالْمُتَاجِرَةِ وَعَقْدِ صَفَقَاتِ^(١)
رَابِحَةٍ مَعَ جِيرَانِهِمْ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ أَثَرُوا^(٢) عَنْ طَرِيقِ
الْبَيْعِ وَالْمَقَابِضَةِ^(٣) .

وَلَمْ يَكُنْ سَهْلًا عَلَيْهِمْ، بِالنَّظَرِ إِلَى مَوَاقِعِهِمُ الْجُغْرَافِيَّ،
أَنْ يَتَّصِلُوا بَرًّا بِالْأَقْطَارِ الْأُخْرَى، غَيْرَ أَنَّ الْبَحْرَ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ
وَسُرْعَانِ مَا اسْتَخْدَمُوهُ لِذَلِكَ . وَكَانَ يَسِيرًا عَلَيْهِمْ أَنْ يَحْصُلُوا عَلَى
الْخَشَبِ الْكَثِيرِ مِنْ غَابَاتِ الْأَرْضِ فِي لُبْنَانَ، فَبَنَوْا سُفُنًا تِجَارِيَّةً،
أَصْبَحَ مَنَظَرُهَا مَأْلُوفًا فِي الْبَحَارِ الْبَعِيدَةِ . وَقَدْ سَارُوا فِي أَلْبَدَةِ
مُتَحَفِّظِينَ^(٤)، يَشْقُونَ طَرِيقَهُمْ مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَدَارُوا
بِسَاحِلِ آسِيَا الصُّغْرَى، وَتَحَلَّلُوا^(٥) الْجُزُرَ الْيُونَانِيَّةَ ،

(١) الصَّفَقَةُ : عَقْدُ الْبَيْعِ ، وَهِيَ ضَرْبُ الْيَدِ عَلَى الْيَدِ فِي الْبَيْعِ . (٢) آثَرَى الرَّجُلُ :

كَثُرَ مَالُهُ . (٣) الْمَقَابِضَةُ : الْمَادَّةُ وَالْمَاوِضَةُ . (٤) مُتَحَفِّظِينَ : مُحْتَزِّزِينَ . (٥) تَحَلَّلَ
الْجَزْرُ : دَخَلَ بَيْنَهَا .

وَجَاوَزُوا^(١) جَزِيرَةَ صَقْلِيَّةَ ، وَسَاحِلَ أَفْرِيقِيَّةَ ، إِلَى أَنْ وَصَلُوا
أَخِيرًا إِلَى مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ ، أَوْ أَعْمَدَةِ هِرَقْلَ ، لِأَنَّ الْمُرْتَفَعَاتِ ،
عَلَى جَانِبِي الْمَضِيقَيْنِ ، كَانَتْ تُدْعَى كَذَلِكَ . وَكَانَ النَّاسُ يَطْنُونَ
قَبْلًا أَنَّ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ يَلْتَقِيَانِ هُنَاكَ ، جَاعِلَيْنِ مِنَ التَّقَابِهَا حَدًّا
لِلْعَالَمِ . وَلِذَا عَجِبَ الْفِينِيقِيُّونَ لَمَّا رَأَوْا أَنْفُسَهُمْ يَغْبُرُونَ الْمَضِيقَ
إِلَى الْحَبِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، لَا إِلَى السَّمَاءِ . وَلَمْ يَجِدُوا هُنَاكَ آلِهَةً فِي
أَسْتِقْبَالِهِمْ ، بَلْ وَجَدُوا مَا هُوَ أَهَمُّ مِنَ الْوُجْهِةِ^(٢) الْمَادِيَّةِ .
فَلَمَّا نَهَضُوا وَجَدُوا الْفِضَّةَ فِي إِسْبَانِيَا ، وَالتَّنَّكَ فِي إِنْكِلِتْرَا . وَأَعْطَوْا
بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ الزُّجَاجَ ، وَصِصَافًا مَعْدِنِيَّةً ، وَطُرْفًا^(٣) جَمِيلَةً
مَنْقُوشَةً مِنَ النُّحَاسِ وَالْعَاجِ ، وَصِبَاغًا أَرْجَوَانِيًّا ، أَصْبَحَ مُذْ
ذَلِكَ اللَّوْنُ الْخَاصَّ بِالْمُلُوكِ وَالْمَلِكَاتِ . وَتَقَلَّوْا أَيْضًا إِلَى هُنَاكَ
الْحُرُوفَ الْمِجَانِيَّةَ ، فَهَدَوْا بِذَلِكَ سَبِيلَ الْكِتَابَةِ لِأَهْلِ الْقَرْبِ .
وَأَقَامَ الْفِينِيقِيُّونَ لَهُمْ مَرَاكِزَ تِجَارِيَّةً عَلَى سَاحِلِ
أَفْرِيقِيَّةَ ، كَانَ لَهَا فِيهَا بَعْدُ شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي التَّارِيخِ . وَمِنْ

(١) جاوز المكان : تعاد . (٢) الوجهة : الناحية والجانب . (٣) طرف

جمع طرفة (بضم الطاء) : الجديد المستحسن .

أَعْظَمَ هَذِهِ الْمَرَكَزِ خَطَرًا قَرطاجنةً ، الَّتِي تَسْتَدْعِي أَهْمَامَنَا
بِوَجْهِ خَاصٍّ .

فَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَرْفَأُ سَيِّدَ الْبَحَارِ زَمَنًا طَوِيلًا بَعْدَ أَنْدَثَارِ^(١)
الْوَطَنِ الْأَصْلِيِّ . وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ ، الَّتِي أَرْتَقَتْ إِلَى قِفَّةِ^(٢) الْمُتَجَدِّ
وَالْعَظْمَةِ ، قَدْ بُنِيَتْ فِي مَوْقِعِ حَصِينٍ ، عَلَى شِبْهِ جَزِيرَةٍ ، وَسُورَتِ
بِأَسْوَارٍ ، قِيلَ إِنَّهَا بَلَغَتْ عِشْرِينَ مِيلًا طَوِيلًا . وَكَانَتْ مَوْقِعًا
فَإِخْرًا ، يَسْهُلُ الدَّفَاعُ عَنْهُ مِنَ الْبَرِّ ، وَكَانَ لَهَا مِيناءُ ، عَزٌّ^(٣) لَهُ
الْمِثْلُ . وَلَمْ يُتَخَّ^(٤) لَهَا الْبَقَاءُ مَعَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْفِينِيقِيِّينَ لَمْ
يُحْسِنُوا الْإِدَارَةَ ، لِجِرْصِهِمْ^(٥) الدَّائِمِ عَلَى الْكَسْبِ .

وَكَانَتْ مَدِينَةُ رُومِيَّةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ ، هِيَ أَيْضًا ، مَدِينَةٌ
عَظِيمَةٌ قَدِيرَةٌ ، لِأَنَّ الرُّومَانِيِّينَ كَانُوا وَقْتِئْذٍ قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَى
إِيطَالِيَا بِأَسْرِهَا . وَلَمْ تَكُنْ هَاتَانِ الْمَدِينَتَانِ أَنْ دَبَّ بَيْنَهُمَا
الْحَسَدُ ، وَأَصْبَحْنَا خَصْمَيْنِ^(٦) الدِّينِ^(٧) . وَكَانَتْ رُومِيَّةُ تَرْغَبُ
أَنْ تُدْمَرَ مَدِينَةُ قَرطاجنةِ الْمُتَغَطَّرِسَةِ^(٨) ، وَلَكِنَّ الرُّومَانِيِّينَ

(١) الاندثار : الاعاء والفاء . (٢) قفة العمى : أعلاه . (٣) عز المثل : قل .

(٤) أُنِجَ لها البقاء : تها . (٥) حرس على العمى : اشتد شربه اليه وعظم تمسكه به .

(٦) الأل : العديد المحصومة . (٧) المتغطرسة : للتكبر .

أَذْرَكُوا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ حَتَّى يَنَالُوا السِّيَادَةَ فِي الْبَحْرِ .

وَلِذَا ، وَقَعَ الْقِتَالُ بَيْنَ رُومِيَّةَ وَقَرَطَاجَنَةَ ، وَتَنَارَعْنَا ^(١)

الْبَحْرَ ، أَوْ السِّيَادَةَ فِي الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ، الَّذِي كَانَ يَغْمُرُ ^(٢)

سَوَاحِلَ إِيطَالِيَا ، وَيَمْتَدُّ إِلَى مَوَانِي قَرَطَاجَنَةَ . وَنَشِبَتْ بَيْنَهُمَا

ثَلَاثُ حُرُوبٍ كَبِيرَةٍ ، دُعِيَتْ الْحُرُوبُ الْبُونِيَّةُ ، أَوْ الْفِينِيقِيَّةُ .

وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ الْأُولَى ، مِنْ أَجْلِ الْأَسْتِيلَاءِ عَلَى جَزِيرَةِ

صَقْلِيَّةَ . فَإِنَّ رُومِيَّةَ بَادَرَتْ وَأَبْتَنَتْ لَهَا أُسْطُولًا ، وَكَانَتْ

تَنْتَصِرُ حِينًا ، فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ الْبَحْرِيَّةِ ، وَتَخْضَرُ حِينًا آخَرَ ، فِي

غَيْرِهَا . وَأَمْتَدَّ أَجْلُ الْحَرْبِ ، إِلَى أَنْ اخْتَارَ الْقَرَطَاجِيُّونَ زَعِيمَهُمْ

أَلَّا كَبْرَ الْمَدْعُوِّ هَمْلَكَارَ ، لِيَتَوَلَّى ^(٣) قِيَادَةَ الْجَيْشِ . فَقَاتَلَ هَذَا

الْقَائِدُ ثَمَانِي سِنِينَ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى الرُّومَانِيِّينَ ،

فَأُضْطُرَّ أَخِيرًا أَنْ يَفْقِدَ الصُّلْحَ مَعَهُمْ . وَقَدْ دَامَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ

ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً (مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَمِثْنَيْنِ إِلَى سَنَةِ

إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَمِثْنَيْنِ قَبْلَ الْمَسِيحِ) كَثُرَتْ قَرَطَاجَنَةُ فِي نِهَاسَتِهَا ،

(١) تَنَارَعْنَا الْعَمِيءُ : تَجَاذَبْنَا كُلُّ مَتَهَا تَرِيدُهُ لِنَفْسِهَا . (٢) غَمْرُهُ الْمَاءُ يَغْمُرُهُ : عِلَاقُهُ

وِغَطَاةً . (٣) تَوَلَّى الْقِيَادَةَ : هَدَاهَا وَقَامَ بِهَا .

وَأَسْتَوَلَتْ روميةٌ عَلَى جَزِيرَةِ صَقْلِيَّةَ ، وَسَرْدِينِيَّةَ ، وَكُرْسِيَّكَ .
وَقَدْ سَاءَتْ هَذِهِ النَتِيجَةُ الْقَرطاجَنِيِّينَ جَدًّا ، غَيْرَ أَنَّ
هَمَلْكَارَ كَانَ يُحِبُّ قَوْمَهُ ، وَيُبْغِضُ مِنْ روميةَ حَتَّى اسْمِهَا ، فَأَخَذَ
يُمِذُّ الْخُطَطَ لِيَجْعَلَ وَطَنَهُ أَقْوَى مِنْهُ قَبْلًا . وَأَطْلَعَ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ
« هَنِيَّالَ » عَلَى سِرِّهِ قَائِلًا :

— سَأَقِمْ فِي إِسْبَانِيَا إِمْبَراطُورِيَّةً ، فَاتَّقِ فِي الْقُوَّةِ
وَالْفَنَى ، فَتُصْبِحُ قَرطاجَنَةُ أَكْثَمَ مِنْهَا فِيمَا مَضَى .

وَكَانَ هَنِيَّالُ وَقَسَّدَ فِي التَّاسِعَةِ مِنْ مُخْمَرِهِ ، فَأَهْتَمَّ بِالْأَمْرِ
كَثِيرًا . وَلَمَّا أَوْشَكَ أَبُوهُ أَنْ يَرْحَلَ إِلَى إِسْبَانِيَا ، وَذَهَبَ إِلَى
الْهَيْسَكْلِ ، لِيُقَدِّمَ ذَبِيحَةً لِإِلَهِ بِلَادِهِ ، تَبِعَهُ هَنِيَّالُ إِلَى هُنَاكَ .
فَالْتَفَتَ هَمَلْكَارُ فَرَأَاهُ وَسَأَلَهُ :

— أَتُرِيدُ أَنْ تَرْحَلَ مَعِيَ ؟

وَلَمَّا أَجَابَ الْوَلَدُ بِالرَّضَى ، قَادَهُ أَبُوهُ إِلَى الْمَذْبَحِ وَقَالَ :

— ضَعْ يَدَكَ عَلَى الذَّبِيحَةِ ، وَأَقِمْ ^(١) أَنْ تُبْغِضَ روميةَ
بُغْضًا دَائِمًا .

(١) أَقِمْ : حَفِظَ .

فَوَضَعَ الْوَلَدُ يَدَهُ الِئْمْنَى عَلَى الْمَذْبُحِ ، وَقَالَ ، وَعَيْنَاهُ إِلَى
عَيْنَيَّ أَيُّهَا :

— إني أَقْسِمُ أَنْ أَبْغِضَ رُومِيَّةَ إِلَى الْأَبَدِ .

وَرَحَلَ الْأَبُ وَالْوَلَدُ مَعًا إِلَى جَبَلِ طَارِقٍ بِحَزْرَا ، وَنَزَلَا
هُنَاكَ . وَقَضَى هِمْلَكَارُ تِسْعَ سِنِينَ ، كَانَ فِيهَا جُنْدِيًّا فَاتِحًا . وَكَانَ حِينًا
يَسْتَنْصِحُ وَلَدَهُ ، وَحِينًا يُغَادِرُهُ ^(١) لِمَنْ يُعْنَى بِهِ ^(٢) . وَلَكِنَّهُ
كَانَ يُذَكِّرُهُ دَائِمًا بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمَهُ ، قَبْلَ مُغَادِرَةِ قَرْطاجَةَ .
وَسَقَطَ هِمْلَكَارُ قَتِيلًا فِي إِخْدَى الْمَارِكِ ، فَوَاصَلَ صِهْرُهُ
هَسْدُرُوبَالُ عَمَلَهُ ، وَأَقَامَ إِمْبْرَاطُورِيَّةً فِي إِسْبَانِيَا ، وَبَنَى حَاصِمَةً ،
ذَاتَ مَرْفَأٍ فَخِيرٍ ، عَلَى السَّاحِلِ الْجَنُوبِيِّ ، وَدَعَاَهَا قَرْطاجَةَ
الْجَدِيدَةَ . وَأَقْتَدَى هَسْدُرُوبَالُ بِهَمْلَكَارَ ، فَكَانَ دَائِمًا يُذَكِّرُهُ
هَنِّيْبَالَ بِقَسَمِهِ . وَلَمَّا مَاتَ هَسْدُرُوبَالُ غَدَا هَنِّيْبَالُ ، وَهُوَ فِي
التَّاسِعَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ ، قَائِدًا لِلْجَيْشِ الْإِسْبَانِيِّ ، فَبَادَرَ
وَأَسْتَوْلَى عَلَى مَدِينَةٍ ، كَانَتْ قَدْ عَاهَدَتْ ^(٣) رُومِيَّةَ عَلَى الْوَلَاءِ ^(٤) .

(١) يغادره : يتركه ويغيبه . (٢) يعنى به : يحتم به . (٣) علمهم : جالفه وعاقده .

(٤) الولاء : للمصادقة والناصره .

فَقَضَيْتَ روميةً ، وَبَعَثْتَ إِلَيْهِ رُسُلَهَا ، فَاسْتَعْلَمُوهُ حَتِّينَ :

— أَيُّ الْأَمْرَيْنِ تَفْضُلُ يَا هَنِّيَالُ ، الْحَرْبَ أَمْ السَّلَامَ ؟

فَتَمَثَّلَ^(١) هَنِّيَالُ وَلَدًا صَغِيرًا وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَذْبَحٍ ،

يُقَسِّمُ أَنْ يُبْغِضَ روميةً بُغْضًا أَبَدِيًّا ، فَضَحِكَ وَقَالَ :

— إِنِّي أَفْضَلُ الْحَرْبَ .

فَكَانَتْ الْحَرْبُ ، وَهِيَ الْحَرْبُ الْبُونِيَّةُ الثَّانِيَّةُ (سَنَةُ

ثَمَانِي عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ إِلَى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَمِائَتَيْنِ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ) .

وَأَخَذَ فِي الْحَالِ يَتَأَهَّبُ^(٢) لِلْحَرْبِ ، لِحَظَرِ^(٣) فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ

قُوَّةً كَبِيرَةً مُدْرَبَةً^(٤) أَحْسَنَ تَدْرِبٍ ، وَضَمَّ إِلَيْهَا رِجَالًا مِنْ

أَجْناسٍ مُخْتَلِفَةٍ . وَالْحَقُّ بِهَذَا الْجَيْشِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ الْخَيْلِ

وَالْبِغَالِ ، وَسَبْعَةَ وَثَلَاثِينَ فِيلًا .

وَعَادَرَ هَنِّيَالُ أَخَاهُ الْأَصْغَرَ ، هَسْدُرُوبَالَ ، لِتَذِيرِ الْأُمُورِ فِي

إِسْبَانِيَا ، وَأَنْطَلَقَ إِلَى إِيطَالِيَا . وَصَمَّمَ هَنِّيَالُ أَنْ يَسِيرَ بَرًّا ،

تَجَنُّبًا^(٥) لِمَا فِي غُورِ الْبَحْرِ ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْقُوَّةِ الْعَظِيمَةِ ، مِنْ

(١) تمثّل الشيء : تصور مثاله . (٢) يتأهب : يستعد . (٣) حَظَر : هبأ وأعد .

(٤) مدربة : معودة . (٥) تجنب الخطر : اجتهد عنه .

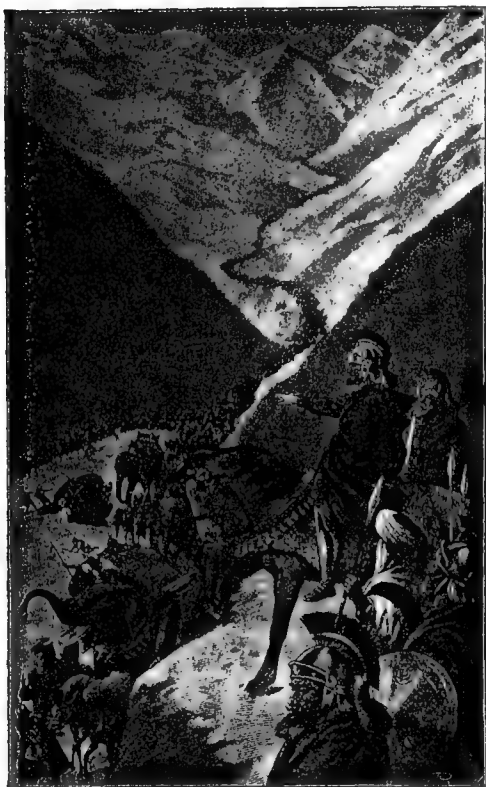
الْخَطَرِ . وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا مَطْلَبًا صَعْبًا خَفِيفًا ^(١) بِالْأَخْطَارِ ، إِذْ
كَانَتْ بَيْتُهُ وَبَيْنَ إِيطَالِيَا سِلْسِلَتَانِ عَالِيَتَانِ مِنَ الْجِبَالِ ، وَهُمَا
جِبَالُ الْبِيرِنِيِّ وَجِبَالُ الْأَلْبِ ، وَنَهْرُ صَمِيقُ سَرِيعٌ ، هُوَ نَهْرُ
الرُّونِ . وَقَدْ اضْطُرَّ هَذَا الْجَيْشُ ، وَهُوَ يَقْطَعُ جِبَالَ الْبِيرِنِيِّ ،
أَنْ يُحَارِبَ قَبَائِلَ مُتَوَحِّشَةً ، وَلَكِنَّهُ تَمَكَّنَ أَخِيرًا مِنَ الْوُصُولِ
إِلَى نَهْرِ الرُّونِ ، فَعَبَرُوهُ فِي زَوَارِقَ صَغِيرَةٍ ، وَعَلَى الْأَرْمَاتِ ^(٢) .
وَتَلَا ذَلِكَ أَشَقُّ ^(٣) مَا فِي الرِّحْلَةِ . فَقَدْ قَامَتْ فِي وُجُوهِهِمْ جِبَالُ
الْأَلْبِ الشَّاهِقَةُ ، تُغْطِيهَا التَّلُوجُ ، وَبَدَتْ قِمَمُهَا ، لِمَلُوءِهَا ، ذَاهِبَةً
فِي السَّحَابِ . فَخَاطَبَ هَتَيْبَالُ رِجَالَهُ قَائِلًا :

— إِنْكُمْ حَارَبْتُمْ قَبَائِلَ الْبِيرِنِيِّ الْمُتَوَحِّشَةَ ، وَعَبَرْتُمْ
نَهْرَ الرُّونِ الْعَظِيمِ ، مُقَاوِمِينَ تَيَّارَهُ ^(٤) السَّرِيعَ . وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا
مِنْ الْجِبَالِ مَا يَمْتَنِعُ ^(٥) قَطْعُهُ لِمَلُوءِهِ ، وَلَيْسَ فِيهَا مِنْ الْأَرْضِ
مَا يَلْتَصِقُ بِالسَّمَاءِ . وَمَا فَعَلَهُ غَيْرُكُمْ تَسْتَطِيعُونَ أَنْتُمْ فِعْلَهُ .
ثُمَّ أَخَذُوا يُصْعِدُونَ ^(٦) فِي الْجِبَالِ .

(١) المخوف بالخطر : الخطأ . (٢) أرمات جمع رمث (بفتح الراء واليم) خشب
يضم بعضه الى بعض ويركب في اللاء . (٣) أشق : أصعب . (٤) تيار النهر : موجه
المياه . (٥) امتنع الشيء : تعذر حصوله . (٦) صعد في الجبل : رقي .

وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ طَرِيقٌ، فَأَضْطَرُّوا أَنْ يَصْعَدُوا فِي مَسَالِكِ^(١)
صَخْرِيَّةٍ وَغُرَةٍ. وَكَانَ الْخَرِيفُ قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يُؤْتِيَ^(٢)، فَلَمْ
يَلْبَسُوا حَتَّى تَرَاكَمَتْ^(٣) الْثُلُوجُ فِي سَبِيلِهِمْ. وَكَانَتْ كُتْلُ^(٤) عَظِيمَةٍ
مِنَ الثَّلْجِ تَتَدَخَّرُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعَالِي الْجِبَالِ، فَتُسْمَعُ لِسُقُوطِهَا
هَذَّةٌ^(٥) مُخِيفَةٌ. وَرَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرِينَ فَتَدْهَوْرُوا^(٦) إِلَى مَا تَحْتَهُمْ
مِنَ الشُّغَابِ^(٧)، وَسَاخَتْ^(٨) الْأَرْضُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْخَيْلِ وَالْفِيلَةِ،
فَتَدَخَّرَجَتْ بِأَعْمَالِهَا إِلَى الْأَوْدِيَةِ السَّمِيقَةِ. وَوَصَلُوا بَعْدَ تِسْعَةِ
أَيَّامٍ إِلَى الْقِمَّةِ، فَرَأَوْا رُؤُوسَ الْجِبَالِ حَوْلَهُمْ مُتَمَمَّةً^(٩) بِالْثُلُوجِ.
فَتَأَقَّ^(١٠) الْقَرَطَاجِيُّونَ وَالْإِسْبَانِيُّونَ إِلَى حَرٍّ أَفْرِيقِيَّةٍ اللَّافِجِ^(١١)
وَتَشْمَسِ إِسْبَانِيَا الدَّفِئَةِ. وَوَدَّوْا لَوْ يُتَاجُ لَهُمْ الْعَبُودُ إِلَى أَوْطَانِهِمْ،
غَيْرَ أَنْ هَتَيْبَالُ كَانَ قَدْ أَقْسَمَ أَنْ يُبْعِضَ رُومِيَّةً بِنَفْسٍ أَبَدِيَّةٍ
فَأَسْتَنْهَضَ^(١٢) هَمَّ رِجَالِهِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ :

(١) المسالك : الطريق . (٢) ولي يولي : اجتمع . (٣) تراكم الشيء : اجتمع
بكثرة وازدحام . (٤) كتل جمع كتلة (بضم الكاف) : القطعة المجمعة للتربة .
(٥) الهدة : صوت وقوع الشيء الثقل . (٦) تدهوروا : سقطوا في مهواة . (٧) الشغاب
جمع شغب (بكسر الشين) : الطريق في الجبل . (٨) ساخت بهم الأرض : انخفضت بهم .
(٩) متممة : مظافة رؤوسها كأن عليها عمام . (١٠) تأق : اشتاق . (١١) حر لافج :
محرق . (١٢) استنهض همته : جعلها على التهور .



هنيال يتطع جبال الالب

- تَحْكُمُ تَقُومُ أَرْضُ إِيطَالِيَا الشَّامِسَةُ ^(١) ، وَأَوْدِيَّتُهَا
الْخَضْرَاءُ ، وَسُهُولُهَا الْخَصِيبَةُ ، وَأَنْهَارُهَا الْمَذْبَةُ ، هُنَاكَ تَجِدُونَ
الرَّاحَةَ ، وَتَجِدُ دَوَائِكُمْ الْمَرَاعِي الطَّيِّبَةَ . هُنَاكَ يَكُونُ الْقِتَالُ
وَالْكِفَاحُ ^(٢) ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ السُّلْبُ وَالنَّهْبُ . وَلَنْ يَطُولَ
بِكُمْ الزَّمَنُ حَتَّى تَكُونُوا عَلَى أَبْوَابِ رُومِيَّةَ .

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَرَا حُوا يَوْمَيْنِ ، شَرَعُوا فِي الْهُبُوطِ . وَتَبِعُوا
قَائِدَهُمُ زَالِقِينَ ، سَاقِطِينَ ، قَافِزِينَ . وَقَاسَى هَنْيَالُ وَرِجَالُهُ أَشَدَّ
الْبُرْدِ وَالْجُوعِ ، وَقَقَدَ هَنْيَالُ إِحْدَى عَيْنَيْهِ عِنْدَ نِهَآيَةِ الْهَرَّةِ .
وَلَمْ يُفَارِقْهُ مَعَ ذَلِكَ صَبْرُهُ وَشَجَاعَتُهُ . وَكَانَ إِذَا أَحَسَّ مِنْ
جُنُودِهِ بِمُخَوَّرٍ ^(٣) الْمَزْمَةَ يُشْجَعُهُمْ وَيُخَاطِبُهُمْ بِمَا يَسْتَأْنِفُ ^(٤) بِهِ
نَشَاطَهُمْ . فَكَانُوا كُلُّهُمْ مُجِبِّونَهُ ، وَيُعْجَبُونَ بِهِ ، وَيُقَاسُونَ
الشَّدَائِدَ وَالْأَخْطَارَ مَرَضَةً لِمِثْلِ هَذَا الْقَائِدِ .

وَأَقْبَلَ الْجَيْشُ أُخِيرًا عَلَى سُهُولِ إِيطَالِيَا ، بَعْدَ أَنْ قَامَ بِعَمَلِ
خَارِقٍ ، لَمْ يَخْشُرْ عَلَى إِعَادَتِهِ سِوَى نَابُولِيُونِ الْكَبِيرِ ، بَعْدَ

(١) الشَّامِسُ وَالْمَقْسُ : الَّذِي تَطْهَرُ فِيهِ الشَّمْسُ . (٢) الْكِفَاحُ : مَلَاقَةُ الْأَعْدَاءِ
وَجَهًّا لَوْجِهِ . (٣) الْخَوَّرُ : الْفَتُورُ وَالضَّعِيفُ . (٤) يَسْتَأْنِفُ النِّشَاطُ : يَبْدُو وَيُجَدِّدُهُ .

أَلْفِي سَنَةً . وَكَانَ الْجَيْشُ قَدْ قَطَعَ فِي سَيْرِهِ خَمْسَ مِثَّةٍ مِيلٍ ،
وَبَادَ^(١) نِصْفَهُ . وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ، لَمَّا وَصَلَ إِلَى إِيطَالِيَا ،
جَائِعًا ، تَعِبًا ، مُتَقَرِّحًا^(٢) الْأَقْدَامَ ، كَسَرَ الْجَيْشَ الرُّومَانِيَّ ثَلَاثًا .
وَأَشْتَدَّ الْقِتَالُ ، وَتَوَالَتْ^(٣) الْمَعَارِكُ ، وَقَضَى هَنِّيَالُ خَمْسَ
عَشْرَةَ سَنَةً يُحَارِبُ فِي إِيطَالِيَا . وَأُخِرَّزَ فِي إِحْدَى الْمَعَارِكِ نَصْرًا
عَظِيمًا جَدًّا ، حَتَّى إِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى قَرطاجنة عَشْرَةَ آلَافٍ خَاتَمِ
ذَهَبٍ ، تُزَعَّتْ مِنْ أَصَابِعِ النَّبْلَاءِ ، مِنْ الرُّومَانِيِّينَ ، الَّذِينَ
قَاتَلُوا فِي تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ .

وَكَانَ هَنِّيَالُ ، كُلَّمَا أَمْتَدَّ بِهِ الزَّمَنُ ، يَعْظُمُ فَوْزُهُ وَتَجَاحُهُ .
وَلَمْ يَكُنْ يَرْقُبُ سِوَى فُرْصَةٍ لِيَنْقُضَ^(٤) عَلَى رُومِيَّةٍ ؛ غَيْرَ أَنَّ
تِلْكَ الْفُرْصَةَ لَمْ تَسْنَحْ^(٥) ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ رُومِيَّةٌ أَنْ تَطْرُدَ الْعَدُوَّ
خَارِجَ إِيطَالِيَا ، وَلَكِنَّ الرُّومَانِيِّينَ كَانُوا مِنْ الْبَسَالَةِ ،
وَصِدْقِ^(٦) الْمَرْعَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَخْطُرْ لَهُمُ التَّسْلِيمُ فِي بَالٍ .
وَكَانَ فِي جُمْلَةِ قَوَادِ الرُّومَانِيِّينَ قَائِدٌ خَيْرٌ ، يُدْعَى شِينِيُو ،

(١) بَادَ : هَلَكَ . (٢) قَرَّحَتْ أَقْدَامُهُمْ : صَارَ فِيهَا قُرُوحٌ وَثُجُورٌ . (٣) تَوَالَتْ :
تَتَابَعَتْ . (٤) انْقَضَ : سَقَطَ وَهَذَا بِمَعْنَى هَبِمَ بِرَجَالِهِ وَمَعْنَاهُ . (٥) سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ :
عَرَضَتْ . (٦) صِدْقُ الْمَرْعَةِ : شِدَّتُهَا .

فَعَمَدَ^(١) إِلَى مِثْلِ خُطَّةِ هَنِيَالٍ نَفْسِهَا ، وَعَبَرَ الْبَحْرَ إِلَى أُفْرِيْقِيَّةَ ،
وَأَنْقَضَ عَلَى قَرطاجنةَ . فَخَافَ الْقَرطاجنيونَ ، وَأَسْتَدْعَوْا هَنِيَالًا .
فَأَضْطُرَّ هَنِيَالٌ أَنْ يَمُودَ إِلَى بِلَادِهِ ، لِلدِّفَاعِ عَنْ قَرطاجنةَ ، قَبْلَ
أَنْ يَتِمَّكَنَ مِنَ الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى رُومِيَّةَ .

وَكَانَتْ سِتْ وَثَلَاثُونَ سَنَةً قَدْ انْقَضَتْ ، مُنْذُ أَنْ وَضَعَ
يَدَهُ الصَّغِيرَةَ عَلَى الْمَذْبَحِ . وَقَدْ أَقْسَمَ أَنْ يُبْغِضَ رُومِيَّةَ بَغْضًا
أَبَدِيًّا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَسْتَوِي عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ . فَعَادَ
إِلَى وَطَنِهِ حَزِينًا ، غَيْرَ أَنْ عَهْدَ قُوْزِهِ قَدْ انْقَضَى^(٢) ، فَلَمْ يَقْوِ
عَلَى إِنْتَاقِ قَرطاجنةَ مِنْ شِيْبِيُو ، فَسَقَطَتِ الْمَدِينَةُ ، وَأُكْرِهَ^(٣)
الْقَرطاجنيونَ أَنْ يَتَخَلَّوْا عَنْ جُزُرِهِمِ الْغَنِيَّةِ ، فِي الْبَحْرِ
الْمَتَوَسِّطِ ، وَعَنْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ ، فِي إِسْبَانِيَا ، وَعَنْ فَيْلَتِهِمْ كُلِّهَا ،
وَعَنْ أَسْرَاهُمْ ، وَعَنْ أَسْطُوْلِهِمْ كُلِّهِ ، مَا عَدَا عَشْرَ سَفُنٍ .
وَفُرضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْفَعُوا جِزْيَةً كَبِيرَةً فِي كُلِّ سَنَةٍ . وَقَدْ
بَكَى الْقَرطاجنيونَ ، وَفَرِحَ الرُّومانيونَ ، لَمَّا خَرَجَتْ خَمْسُ

(١) عمد الى الخطاة : فعمدها . (٢) انقضى العهد : فني ومضى . (٣) أكرهه على

الأمر : حمل عليه قهراً .

مِثَّةَ سَفِينَةٍ قَرطاجنيَّةٍ، مِنْ مَرَفَنِيهَا، يَقْطُرُهَا ^(١) الْأُسْطُولُ
الرُّومَانِيُّ.

لَمْ يَسَعْ ^(٢) قَرطاجنةَ سِوَى الْإِذْعَانِ ^(٣)، غَيْرَ أَنَّ هَنِّيَالَ
أَقْبَلَ عَلَى الْعَمَلِ، بِشَجَاعَةِ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ، مُحَاوِلًا أَنْ يُعِيدَ إِلَى
قَرطاجنةَ مَا قَدَّعَتْهُ مِنَ الْعِزِّ. وَقَدْ نَجَحَ، فِي عَمَلِهِ، نَجَاحًا
عَظِيمًا، حَتَّى إِنَّ رُومِيَّةَ فَرَعَتْ ^(٤) مِنْ ذَلِكَ، وَطَلَبَتْ، بَعْدَ سَبْعِ
سَنَوَاتٍ، أَنْ يُسَلَّمَ هَنِّيَالٌ إِلَيْهَا. وَيَسُرُّنَا أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ شَيْئُوهُ لَمْ
يُؤَافِقْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَنَّ هَنِّيَالَ صَاحَبَ ^(٥) قَرطاجنةَ مِنْ عَارِ
تَسْلِيمِهِ، بِأَنْ هَرَبَ مِنْ وَطَنِهِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَسْكُنْ لِيَسْتَرِيحَ
بَعْدَ ذَلِكَ.

وَقَدْ أُمْتَدَّتْ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ سَرِيعًا، بَعْدَ أَنْتِصَارِهَا
عَلَى قَرطاجنةَ. فَلِأَنَّهَا أُسْتُولَتْ، فِي الشَّرْقِ، عَلَى قِسْمٍ كَبِيرٍ مِنْ
إِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْأِسْكَنْدَرِ الْكَبِيرِ. وَكَانَ قَدْ مَضَى، عَلَى مَوْتِ
الْإِسْكَنْدَرِ، زُهَاءُ ^(٦) مِثَّةِ سَنَةٍ. فَعَمَدَتْ رُومِيَّةٌ إِلَى إِخْضَاعِ

(١) قطر السفن : قرب بعضها الى بعض . (٢) لا يسه أن يفعل هنا : لا يقدر

عليه . (٣) الاذعان : الاهياد والمضوع . (٤) فرعت : خافت . (٥) صانها من

بالعار : حفظها منه . (٦) الزهاء : القدرار .

بِلَادِ الْيُونَانِ ، غَيْرَ أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ لَمْ يَكُونُوا يُحِبُّونَ الرُّومَانَ ،
فَاسْتَنْجَدُوا^(١) عَلَيْهِم أَنْطِيُوخُسَ ، مَلِكَ سُورِيَّةَ ، الَّذِي اقْتَطَعَ
لِنَفْسِهِ قِسْمًا مِنْ أَمْبَرَاطُورِيَّةِ الْإِسْكَندَرِ . وَلَمَّا هَاجَمَ الرُّومَانِيُّونَ
الْمَلِكَ أَنْطِيُوخُسَ ، أَهْلَوْا^(٢) هَنْبِيَالَ هُنَاكَ ، مُحَارِبُ رُومِيَّةَ .
وَقَدْ أَتَصَّرَ الرُّومَانِيُّونَ . وَطَلَبُوا أَنْ يُسَلَّمَ هَنْبِيَالَ إِلَيْهِمْ أَسِيرًا .
فَهَرَبَ هَنْبِيَالُ إِلَى جَزِيرَةِ إِكْرِتَ ، وَمِنْهَا إِلَى قَطْرِ فِي آسِيَا ،
يُدْعَى يَتِينِيَا ، غَيْرَ أَنَّ انْتِقَامَ رُومِيَّةَ تَأَثَّرَهُ^(٣) إِلَى هُنَاكَ . فَطُلِبَ
مِنْ مَلِكِ يَتِينِيَا أَنْ يُسَلِّمَهُ . وَلَمَّا أَوْشَكَ هَنْبِيَالُ أَنْ يُقْبَضَ
عَلَيْهِ ، رَفَعَ إِلَى شَفِيعَتِهِ تِلْكَ أَلِيْدَ الْيُمْنَى ، الَّتِي مَسَّتِ الذَّيْحَةَ فِيمَا
مَضَى ، وَأَمْتَصَّ خَاتَمًا مَسْمُومًا ، كَانَ فِي إِصْبَعِهِ ، فَات .

رُبَّمَا كَانَ هَنْبِيَالُ هُوَ الرَّجُلُ الْوَحِيدَ ، الَّذِي رَوَّعَ^(٤) رُومِيَّةَ ،
فِي إِبَاتِهِ^(٥) تَجْدِيهَا . فَقَدْ كَانَ رَجُلًا عَظِيمًا ، وَعَدُوًّا خَطِيرًا ،
وَجُنْدِيًّا بَاسِلًا ، وَسِيَاسِيًّا قَدِيرًا . وَمِنْ سَوْدِ حَظِّهِ أَنَّ وَطَنَهُ
لَمْ يَكُنْ أَغْلًا^(٦) لَهُ .

(١) استجده : استعان به . (٢) أهلوا : وجدوا . (٣) تأثره : تتبع أثره .
(٤) روع : أنزع . (٥) إبّان المجد : حينه . (٦) هو أهل لكنا : يصلح له ويستحقه .

وَبَقِيَتْ قَرْطَاجَةُ بَعْدَهُ، وَأَخَذَتْ تَزْدَهْرُ^(١) شَيْئًا فَشَيْئًا،
إِلَى أَنْ غَدَتْ، بَعْدَ خَمْسِينَ سَنَةً، مُنَافِسَةً^(٢) لِرُومِيَّةٍ مَرَّةً أُخْرَى.
وَكَانَ فِي رُومِيَّةَ، وَقْتُئِذٍ، رَجُلٌ سِيَاسِيٌّ قَدِيرٌ، يُدْعَى كَاتُو.
وَكَانَ كُلَّمَا تَكَلَّمَ فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، يَخْتِمُ خِطَابَهُ بِهَذِهِ
الْكَلِمَاتِ: «يَنْبَغِي أَنْ تُدْمَرَ قَرْطَاجَةُ». .
فَاسْتَمَعَتْ إِلَيْهِ رُومِيَّةٌ أُخِيرًا، وَدَمَّرَتْ قَرْطَاجَةَ، سَنَةَ
سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ وَمِئَةً، قَبْلَ الْمَسِيحِ. وَكَانَ، بِذَلِكَ، أَنْ تَمَّتِ
الْغَلْبَةُ^(٣) لِلْجِنْسِ الْهِنْدِيِّ الْأُورُوبِيِّ عَلَى السَّامِيِّينَ.



(١) تزدهر: تضيء وهنا بمعنى ترتقي وتتقدم. (٢) نافسه في الأمر: فاحره
وياراه فيه. (٣) الغلبة: الفهر والانتصار.

يوليوس قيصر

بِمَدِّ سُقُوطِ قَرطاجنة ، أمتدتِ الإمبراطوريةُ الرومانيةُ
 أمتداداً عظيماً . فلِئِها أخضعتْ بلادَ أليونان ، ومُعظمَ الإمبراطوريةِ
 التي أنشأها الإسكندرُ . وأستولتْ ، في أَلْجَنُوبِ ، عَلَى السَّاحِلِ
 الأَفرِيقِيِّ ، بَيْنَ الصَّحراءِ وَالْبَحْرِ المُتَوَسِّطِ ، وأستولتْ ، في
 المَغربِ ، عَلَى إسبانيا ، وَمِنْ بَمدِها ، عَلَى بلادِ الغالِ (وهي تُدعى
 الآنَ فِرَنا) . وأتَمَّضَ الرومانيونَ أخيراً عَلَى بَريطانيا ، في
 الشَّمالِ . فَمَدَّتْ مَدِينَةُ روميةَ ، بِنتِيجَةِ ذَلِكَ ، مَحَوَراً^(١) لِلتَّارِيخِ
 العَالَمِيِّ .

فَأَيُّ شَعْبٍ هَؤُلاءِ الرُّومانيونَ ، الَّذِينَ أَصَابُوا مِثْلَ هَذَا
 النِّجَاحِ العَظِيمِ ؟ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ كَانُوا قُساةً عَلَى أَعْدائِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ
 كَانُوا دَائِماً مِنَ الطَّمَعِ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ . وَلَكِنَّهُمْ ، مَعَ ذَلِكَ ،
 أَتَصَفَّوْا بِكَثِيرٍ مِنَ الصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ . فَقَدْ كَانُوا أَهْلَ عَزَمٍ

(١) المحور : ما يدور عليه الشيء .

وَوَثَّابَاتٍ ، بِصَبْرٍ عَلَى الشَّدَائِدِ ، وَلَا تُرَوِّعُهُمُ الْهَزِيمَةُ ^(١) ،
مُخْلِصِينَ لِمَدِينَتِهِمْ ، وَلِأَسْمِ روميةَ . والرَّعَايَا الرُّومَانِيُونَ ، الَّذِينَ
أَنْشَأُوا الْإِمْبَرَاطُورِيَّةَ الْعَظِيمَةَ ، لَمْ يَكُونُوا سُكَّانَ روميةَ
وَحْدَهُمْ ، بَلْ كَانَ فِي مُجَلَّتِهِمْ ، مُنْذُ الْبَدْءِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا
يَعْمَلُونَ فِي الْمَزَارِعِ . وَقَدْ أُثِرَ ^(٢) عَنْ أَحَدِ شُبُوحِ الرُّومَانِيِّينَ
قَوْلُهُ :

«كَانَ آبَاؤُنَا ، إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَمْدَحُوا رَجُلًا فَاضِلًا ، يَمْدَحُونَهُ
بِأَنَّهُ مَزَارِعٌ مِنْ خَيْرِ الْمَزَارِعِينَ ، وَمَالِكٌ مِنْ خَيْرِ الْمَلَائِكِ .
وَكَانُوا يَتَقَدِّمُونَ أَنَّ هَذَا الْمَدْحَ فَوْقَ كُلِّ مَدْحٍ وَإِطْرَاءٍ ^(٣) .
وَيُؤَثِّرُ عَنْ ذَلِكَ الشَّيْخِ الرُّومَانِيِّ قَوْلُهُ أَيْضًا :

«إِنَّ الْمَزَارِعِينَ يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَشَدُّ الرُّجَالِ وَأَشَجُّ الْجُنُودِ» .
وَمَنْحَتِ روميةُ ، فيما بَعْدُ ، حُقُوقَ الرَّعَايَةِ الرُّومَانِيَّةِ
لِلسُّكَّانِ فِي غَيْرِ روميةَ مِنَ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ ، حَتَّى فِي أَلْبِلَادِ
الْأَجْنَبِيَّةِ .

وَقَدْ أَدَّى هَذَا النَّجَاحُ الْعَظِيمُ إِلَى انْقِلَابٍ كَبِيرٍ فِي حَيَاةِ

(١) روعته الهزيمة : أنزعه الانكسار . (٢) أثر : قتل . (٣) الأطراء : الثناء الحسن

الرَّومَانِيَّينَ . وَشَرُّ مَا فِي ذَلِكَ ، أَنَّ صِغَارَ الْمُزَارِعِينَ أَخَذُوا
يَبِيدُونَ ، وَأَنَّ سُكَّانَ روميةَ الْأَغْنِيَاءَ أَخَذُوا يَتَنَاعُونَ الْأَرْضَ ،
وَيَسْتَعْمِلُونَ فِيهَا الْعَبِيدَ مِنْ أَسْرَى الْحَرْبِ . وَأَمَّا صِغَارُ الْمُزَارِعِينَ ،
فَكَانُوا يَذْهَبُونَ لِلْقِتَالِ ، أَوْ كَانُوا ، إِذَا عَادُوا مِنْ الْجَيْشِ ،
يَأْتِقُونَ ^(١) مِنْ الْأَعْمَالِ فِي الْأَرْضِ . وَيُؤْثِرُونَ ^(٢) الذَّهَابَ إِلَى
روميةَ ، يَسْتَطْعِمُونَ ^(٣) الْحُكُومَةَ تَجَانًا ^(٤) وَيَلْهَوْنَ بِمُشَاهَدَةِ
الْأَلْمَابِ وَالْمُسَابَقَاتِ فِي الْمَقَاوِسِ ^(٥) وَالْمِيَادِينِ ، وَيَزِيدُونَ عَدَدَ
الطَّبَقَةِ الْفَقِيرَةِ هُنَاكَ .

وَلَدْنَا ، فِي نَحْوِ أَوَّلِ الَّذِي دُمِّرَتْ فِيهِ قَرْطَاجَةُ ، كَانَتْ
روميةُ أَمَامَ مَشَاكِلَ ^(٦) عَدِيدَةٍ ، يَنْبَغِي حُلُّهَا . فَقَبِي الدَّخِلِ ،
أَشْتَدَّتِ الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ ، وَفِي الْخَارِجِ ، أَخْفَقَتْ ^(٧)
روميةُ فِي إِدَارَةِ وَلَايَاتِهَا الْإِدَارَةِ الْحَازِمَةِ . وَفَوْقَ هَذَا كُلِّهِ ،
كَانَتْ قَبَائِلُ الْبَرَابِرَةِ ، فِي الشَّمَالِ ، تَرْقُبُ الْفُرَصَ لِلْمُهْجُومِ .

(١) أكل من العمل : ترفع عنه . (٢) يؤثرون : يفضلون . (٣) يستطعمون :
يطلبون الطعام . (٤) تجاناً : بلا بدل أو عوض . (٥) مقاسوس جمع مقوسر (بكسر
اليم) : الميدان على هيئة القوس . (٦) مشاكل جمع مفكلة : الأمر الصعب أو اللتبس .
(٧) أخفق في عمله : خاب ولم يصعب نجاحاً .

فَإِذَا كَانَ عَسَاءُهُ أَنْ يَحْدُثَ ، وَسُلْطَةُ رُومِيَّةٍ قَدْ بَدَتْ كَأَنَّهَا
مُفْسَكَةٌ أَلْمَرَى ؟

إِنَّ رُومِيَّةً ، بَعْدَ مِئَةِ سَنَةٍ انْقَضَتْ فِي ثَوَرَاتٍ وَخُرُوبٍ
أَهْلِيَّةٍ هَائِلَةٍ ، (مِنْ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَمِئَةٍ إِلَى سَنَةِ ثَلَاثِينَ ،
قَبْلَ الْمَسِيحِ) ، أَمَكَّنَهَا أَنْ تَجِدَ جَوَابًا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ . فَإِنَّهَا
غَيَّرَتْ نِظَامَ الْحُكْمِ ، وَأَسْتَبَدَّتْ مَجْلِسَ الشُّيُوخِ ، أَلْمَوْلَفَ مِنْ
ثَلَاثِ مِئَةِ رَجُلٍ ، بِالْإِمْبَرَاطُورِ . فَخَلَّتْ سُلْطَةُ الْفَرْدِ الْقَوِيَّةِ مَحَلَّ
سُلْطَةِ الْجَمَاعَةِ الضَّعِيفَةِ ، وَعَادَتْ رُومِيَّةُ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ ، بَعْدَ
أَنْ كَانَتْ جُمْهُورِيَّةً .

وَلَمْ تَهْتَدِ رُومِيَّةٌ إِلَى هَذَا الْحَلِّ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ ، بَلْ كَلَّفَهَا
مِنْ الثَّوَرَاتِ وَسَفْكِ الدِّمَاءِ مَا دَامَ قَرْنًا كَامِلًا . وَكَانَ فِي ذَلِكَ
الْأَوَانِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْعِظَمَةِ وَالشُّهْرَةِ ، فِي طَلِيعَتِهِمْ^(١) أَخْوَانٌ ،
يُدْعَوَانِ طَبَارِيُوسَ غِرَاكُوسَ وَغَايُوسَ غِرَاكُوسَ . وَقَدْ بَدَلَ
هَذَانِ الرَّجُلَانِ الْوَسْعَ^(٢) لِتَحْسِينِ حَالَةِ الْمُزَارِعِينَ ، وَالطَّبَقَةِ
الْفَقِيرَةِ مِنَ الشَّعْبِ ، إِلَّا أَنَّ أَعْضَاءَ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ قَتَلُوهُمَا ،

(١) الطليعة من الجيش : مقدمته . (٢) الوسع : القدرة .

بُنْفَصًا لِّهَما . وَتَلاهُما زَعِيمٌ عَظِيمٌ آخَرُ ، يُدْعَى مارِيوسَ . وَكَانَ رَجُلٌ الشَّعْبِ وَخَرَّتْ الْأَرْضُ فِي صِباهِ . فَأَنقَذَ رُومِيَّةً مِنَ الْبَرابِرَةِ الْجَرْمَانِيِّينَ . إِلَّا أَنَّ مَجْلِسَ الشُّيوخِ كَانَ يُبْغِضُهُ ، فَأَخْتَارَ رَجُلًا ، يُدْعَى سُلًّا ، زَعِيمًا . وَلَمَّا مَاتَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ أَصْبَحَ بُمبايُوسُ زَعِيمَ الشَّعْبِ الْجَدِيدِ . وَكَانَ هَذَا جُنْدِيًّا عَظِيمًا ، فَأَخْرَزَ لِرُومِيَّةٍ عِدَّةً انْتِصَارَاتٍ ، وَأَسْتَوَلَى عَلَى فِلِسْطِينَ (سَنَةً ثَلَاثَ وَسِتِّينَ قَبْلَ الْمَسِيحِ) .

فِي ذَلِكَ الْأَوَانِ ، قَامَ أَعْظَمُ رِجَالِ تِلْكَ الْحِقْبَةِ ^(١) ، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَ الرُّومَانِيِّينَ جَمِيعًا ، وَهُوَ يُولِيوسُ قَيْصَرُ .

وَكَانَ قَيْصَرُ كَرِيمَ الْأَصْلِ ، وَعَاشَ فِي يَنْتٍ جَمِيلٍ ، بُنِيَ حَوْلَ فِئَاءٍ ، قَامَتْ فِي وَسْطِهِ بَرَكَةٌ ، يَتَدَفَّعُ الْمَاءُ مِنْ وَسْطِهَا . وَلَمْ يَكُنْ بَيْتُهُ كَبِيرَتَيْنَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِنُؤَافِدِهِ زُجَاجٌ ، بَلْ كَانَتْ أَبْوَابُهُ تَظَلُّ مَفْتُوحَةً فِي النَّهَارِ ، حَتَّى تَدْخُلَهُ حَرَارَةُ الشَّمْسِ وَنُورُهَا . وَكَانَ لِقَيْصَرَ حَمَّامَانِ فِي بَيْتِهِ ، أَحَدُهُمَا لِلْمَاءِ الْحَارِّ ، وَالْآخَرُ لِلْمَاءِ الْبَارِدِ . وَلَمْ يَكُنْ ، إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَنَاوَلَ الطَّعَامَ ،

(١) الحِقْبَةُ : اللَّحْدَةُ مِنَ الْوَقْتِ .

يَجْلِسُ إِلَى مَائِدَةٍ ، عَلَى كُرْسِيِّ ، بَلْ كَانَ يَضْطَجِعُ ^(١) عَلَى فِرَاشٍ .
وَيَسْتَنِدُّ إِلَى أَحَدِ مِرْقَئَيْهِ ^(٢) ، وَيَقُومُ أَحَدُ الْعَبِيدِ فِي خِدْمَتِهِ .
وَكَانَ قِصْرُ ، وَهُوَ لَا يَزَالُ صَغِيرَ السِّنِّ ، يَخْتَلِفُ ^(٣) إِلَى
الْمَدْرَسَةِ فِي السُّوقِ الْعَامَّةِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ السُّوقُ تُدْعَى الْفُورُمَ .
وَكَانَ ، مَتَى فَرَغَ مِنَ الدَّرْسِ ، يُطَوِّفُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ وَيُشَاهِدُونَ
مَا فِي الْمَتَاجِرِ . وَكَانَ فِي الْفُورُمِ ، حَيْثُ اشْتِدَادُ الْحَرَكَةِ وَأَزْدِجَامُ
الْأَفْدَامِ ، شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدِيرٌ ^(٤) بِالْمُشَاهَدَةِ . فَقَدْ كَانَ السَّقَاوُونَ
يَمْتَحِنُونَ أَحْيَانًا ، حَامِلِينَ عَلَى ظُهُورِهِمْ قِرْبًا تَمْلُوءُ مَاءً . وَأَحْيَانًا ،
يَمُرُّ أَحَدُ الرُّومَانِيِّينَ الْمُتَرْفِينَ ^(٥) الْمُتَغَطَّرِينَ ^(٦) ، يَحْمِلُهُ أُرْبَعَةُ
مِنْ الْعَبِيدِ فِي كُرْسِيِّ مُذَهَّبٍ . وَأَحْيَانًا ، يَمْتَحِنُ مَوَكِبٌ مِنَ
الصِّيَّانِ ، لَا يَسْنِي ثِيَابًا بِيضًا ، مُكَلَّلِينَ بِالْأَزْهَارِ ، وَيَدْخُلُونَ
الْبَيْتَ كُلَّ لَيْلٍ .

وَكَانَ قِصْرُ ، إِذَا اتَّسَعَ لَدَيْهِ الْوَقْتُ ، يَنْصُمُ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ
أَصْدِقَائِهِ ، وَيَقْصِدُونَ إِلَى الْحَمَامَاتِ الْعَامَّةِ . وَكَانُوا يَسْتَحِبُّونَ

(١) اضْطَجَعَ : وَضَعَ جَنْبَهُ بِالْأَرْضِ . (٢) الرِّقُّ : الْوَصْلُ بَيْنَ السَّاعِدِ وَالْمُعْضِدِ .

(٣) اخْتَلَفَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ : جَاءَهَا لِلزَّوْرِ بَعْدَ الْآخَرِ . (٤) جَدِيرٌ بِالْمُشَاهَدَةِ : أَهْلٌ لَهَا .

(٥) الْمُتَرْفِينَ : الْمُتَعَمِّقِينَ . (٦) الْمُتَغَطَّرِينَ : الْمُتَكَبِّرِينَ .

هُنَاكَ، وَبَعْدَ أَنْ تُنْشَفَ أَجْسَامُهُمْ، يَذُلُّكُمَا^(١) الْعَيْدُ بِالزَّيْتِ .
وَكَانَ يَذْهَبُ أحيانًا بَعْدَ الظُّهْرِ إِلَى الْمَلْعَبِ الْمُدْرَجِ، خَارِجَ
الْمَدِينَةِ، وَيُشَاهِدُ سِيَّاقَ الْمَرْكَبَاتِ، وَالْمُبَارَاةِ فِي الصَّرَاحِ
وَالْمَلَاكَةِ^(٢) .

وَكَانَ قِصْرُ يَتَّحِجُ بِزِيَارَاتِهِ لِلْمَلْعَبِ الْمُدْرَجِ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ يَجِدُ مَسْرَّةً عَظْمَى فِي أَنْ يُشَاهِدَ قَائِدًا مُتَصِرًا، عَائِدًا
مِنَ الْحَرْبِ . وَيَشْتَدُّ بِهِ التَّأَثُّرُ لَدَى مُرُورِ الْمَوْكِبِ . وَكَانَ
يَسِيرُ فِي طَلِيعَةِ مِثْلِ هَذَا الْمَوْكِبِ أَعْضَاءُ مَجْلِسِ الشُّبُوحِ،
حُكَّامُ روميةَ، وَيَتْلَوُهمُ النَّافِخُونَ فِي الْأَبْوَاقِ . وَتَأْتِي بَعْدَ
هَؤُلَاءِ مَجَلَّاتٌ مُحَمَّلَةٌ أَكْدَاسًا^(٣) مِّنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْوَاعِ
الطَّرَفِ^(٤) الْجَمِيلَةِ الْفَاحِشَةِ، لِيَرَى الرُّومَانِيُّونَ مَا عَادَ بِهِ الْجُنُودُ
مِنَ سَاحَاتِ الْحَرْبِ . وَيَتَلَوُّ الْمَجَلَّاتِ أُسْرَى الْحَرْبِ، سَاهِيًا^(٥)
الْوُجُوهِ، وَمُعْظَمُهُمْ زُعَمَاءُ أَقْوَامٍ، حَارَبُوا وَغَلِبُوا .

وَلَمْ يَكُنْ نَظَرُ يُولْيُوسَ قِصْرٍ يَسْتَقِرُّ عَلَى هَؤُلَاءِ، بَلْ

(١) يذلُّكُمَا : يفرِّكها ويدعكها . (٢) الملاكمة : المضاربة بالأيدي بمجموعة الأصابع .

(٣) الأكْداس جمع كدس (بضم الكاف) : الكثير للتراكب من الشيء . (٤) طرف جمع

طرفه (بضم الطاء) الجليد السمحن .

يَعْدُوهُمْ^(١) إِلَى مَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ . وَكَانَ يَهْتَفُ وَيُصَفِّقُ يَدَيْهِ ،
لَدَى ظُهُورِ زُمْرَةٍ^(٢) مِنَ الْأَوْلَادِ ، يَرْقُصُونَ ، وَيُغَنُّونَ ،
وَيَضْرِبُونَ بِالصُّنُوجِ^(٣) ، أَمَامَ مَرْكَبَةِ قِرْمِزِيَّةٍ ، يَجْرُهَا أَرْبَعَةٌ
مِنْ أَلْيَادِ الشَّهْبِ^(٤) . وَيَتَنَبَّهَتْ مِنْ الْجُمْهُورِ هُتَافٌ ، يَشُقُّ
عَنَانَ^(٥) السَّمَاءِ ، دَالًّا أَنَّ الْقَوْمَ عَرَفُوا مَنْ فِي الْمَرْكَبَةِ . ذَلِكَ
هُوَ الْقَائِدُ الظَّافِرُ ، مُرْتَدِيًا بِالْأَرْجُوانِ وَالنَّعَبِ ، مُكَلَّلًا بِالْعَارِ ،
وَوَرَاءَهُ عَبْدٌ ، يَحْمِلُ لِكَلِيلًا مِنَ النَّعَبِ ، فَوْقَ رَأْسِهِ .

وَكَانَ النَّاسُ يَمْوجُونَ وَيَهْتَفُونَ ، إِلَى أَنْ تَبَحَّ أَصْوَاهُهُمْ .
وَيَشْهَدُ يُولْيُوسُ قَيْصَرٌ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ :
«سَيَأْتِي يَوْمٌ ، أَكُونُ فِيهِ ، أَنَا أَيْضًا ، قَائِدًا ظَافِرًا ،
وَأَرْكَبُ بِمِثْلِ هَذَا الْأَحْتِفَالِ فِي الشُّوَارِعِ» .

وَكَانَ قَيْصَرٌ ، عَلَى كَرَمِ أَصْلِهِ ، صَدِيقًا لِلْفُقَرَاءِ ، وَلِذَا أُضْطُرَّ
أَنْ يُعَادِرَ رُومِيَّةَ خَوْفًا مِنْ تَجَلِّسِ الشُّبُوحِ ، لِئَلَّا يَفْشَكَ بِهِ^(٦)

(١) يعلوهم : يجاوزهم . (٢) الزمرة : الجماعة . (٣) الصنوج جمع صنج (يمنع
الصناد) : صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب . (٤) شهب :
جمع أشهب ما كان لونه أبيض يخلطه سواد . (٥) عنان السماء : ما ارتفع منها وما بدا
لك منها إذا نظرت إليها . (٦) فشك به : قتله على غفلة .

كَمَا فَتَكَ بِأَصْدِقَاءِ الشَّعْبِ مِنْ قَبْلِهِ ، فَرَحَلَ إِلَى الشَّرْقِ ،
وَحَارَبَ مَعَ الْجَيْشِ الرُّومَانِيِّ ، حَتَّى يُصْبِحَ جُنْدِيًّا بِاسِلاً^(١) ،
وَقَائِداً حَكِيماً . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَحْبَهُ الْجُنُودُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
يَخْشَى الْقِتَالَ ، وَلِأَنَّهُ كَانَ عَادِلاً جَدِيراً بِالْإِحْتِرَامِ .

وَكَانَتْ لِقَيْصَرِ مُجَازَفَاتٍ^(٢) كَثِيرَةً ، عَادَا مُجَازَفَاتِهِ فِي الْحَرْبِ ،
وَقَدْ اتَّفَقَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَهُوَ مُبْجِرٌ^(٣) إِلَى جَزِيرَةٍ ، أَنْ خَرَجَ
عَلَيْهِ لُصُوصُ الْبَحْرِ وَأَسْرَوْهُ ، وَقَالُوا :

— سَنَحْمِلُكَ إِلَى مَعَاوِرِنَا ، وَلَنْ تَعُودَ إِلَى رُومِيَّةَ ، حَتَّى
يَأْتِيَنَا عَيْدُكَ بِمِثْرَيْنِ مِنَ الْفِضَّةِ .

فَضَحِكَ قَيْصَرٌ وَقَالَ :

— أَهَذَا كُلُّ الثَّمَنِ الَّذِي تُقَدِّرُونَهُ^(٤) لِي ؟ إِنْ أُعْطِيتُمْ
تَمْسِينَ مِنَ الْفِضَّةِ . وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَصْبِحُ حُرّاً ، سَأَعُودُ إِلَيْكُمْ
وَأَسْرُكُمْ كَمَا أَسْرَْتُمُونِي .

وَأَرْسَلَ رِجَالَهُ لِيَأْتُوا بِالْمَالِ .

(١) الباسل : المجمع . (٢) المجازفة بالنفس : المخاطرة بها . (٣) أبحر : ركب

البحر . (٤) تقدرونه : تحكمون به وتحملونه على مقدار .

وَعَاشَ قَيْصَرُ ثَمَانِيَةَ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا مَعَ الْأُلُوصِ . وَكَانَ
أَخْيَانًا ، يُلَاعِبُهُمْ وَيُحَاضِرُهُمْ ^(١) . وَأَخْيَانًا ، يَجْعَلُهُمْ عَلَى الْإِصْنَاءِ
إِلَى مَا نَظَّمَهُ مِنَ الْقَصَائِدِ ، وَأَعَدَّهُ مِنَ الْخُطْبِ . وَكَانَ ، إِذَا
أَرَادَ أَنْ يَنَامَ ، وَأَجْلَبَ ^(٢) الْأُلُوصُ ، يُرْسِلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يَقُولُ
إِنَّهُ تَعَبٌ ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَسْكُنُوا ^(٣) لِكَيْ يَسْتَرِيحَ . وَكَانَ
الْأُلُوصُ يَمُجِبُونَ لِأَمْرِ هَذَا الْأَسِيرِ الْغَرِيبِ الْأَطْوَارِ ^(٤) ، الَّذِي
لَمْ يَكُنْ يَسْتَوْدِعُ عَلَيْهِ الْخَوْفَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ حَزَنُوا لَمَّا دُفِعَ الْمَالُ
وَرَحَلَ قَيْصَرُ عَنْهُمْ . غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ آخِرَ عَهْدِهِمْ ^(٥)
بِهِ ، فَقَدْ آذَنَهُمْ ^(٦) قَيْصَرُ أَنَّهُ يَمُودُ إِلَيْهِمْ وَيَأْسُرُهُمْ ، وَلَمْ
يَلْبَثُوا حَتَّى أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ سَفْنُهُ ، فَوَقَعُوا أَسْرَى فِي قَبْضَتِهِ .

وَلَمَّا عَادَ قَيْصَرُ إِلَى رُومِيَّةَ ، صَادَقَ كَثِيرِينَ مِنْ أَهْلِ
الطَّبَقَةِ الْفَقِيرَةِ ، وَأَصْنَى إِلَى شَكْوَاهُمْ ، وَبَذَلَ الْجُهْدَ فِي سَبِيلِ
مُسَاعَدَتِهِمْ . فَاجْتَبَاهُ الشَّعْبُ كَثِيرًا ، وَأَخَذُوا يَقُولُونَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ :

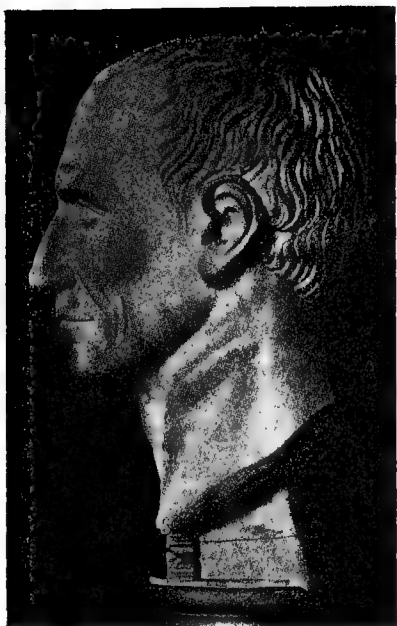
(١) يحاضرون : يرافقون في الركض . (٢) أجلب القوم : ضجوا واختلطت أصواتهم
(٣) يسكنوا : يجرؤوا ويتخطوا عن الحركة . (٤) الأطوار جمع طور (يفتح الطاء وسكون
الراء) : الحالة . (٥) العهد : المعرفة . (٦) آذنتهم : أعلمهم .

— إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَعَنَا، وَهُوَ كَرِيمٌ شَجَاعٌ. وَسَيُسَاعِدُنَا
يَوْمًا عَلَى نَيْلِ حُقُوقِنَا.

وَأُرْسِلَ قَيْصَرٌ إِلَى إِسْبَانِيَا، فِي مُهِمَّةٍ عُمُومِيَّةٍ، فَرَأَى
هُنَاكَ تِمْنَالًا نِصْفِيًّا لِلْإِسْكَنْدَرِ الْكَبِيرِ، فَحَزَنَ جِدًّا لِأَنَّهُ لَمْ
يَصْنَعْ إِلَّا الْقَلِيلَ، فِي مِثْلِ الْعُمُرِ، الَّذِي دَوَّخَ^(١) فِيهِ الْمَكْدُونِيُّ
أَلْعَالَمَ. وَلَمَّا عَادَ إِلَى رُومِيَّةٍ اتَّصَلَ بِبِمْنِيُوسَ، وَكَانَ هَذَا
الرَّجُلُ يَوْمَئِذٍ أَعْظَمَ رَجُلٍ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ.

وَرَحَلَ إِلَى إِسْبَانِيَا مَرَّةً أُخْرَى، (سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّينَ،
قَبْلَ الْمَسِيحِ)، وَنَجَحَ نَجَاحًا بَاهِرًا فِي إِعَادَةِ الْأَمْنِ إِلَى نِصَابِهِ^(٢).
وَرَجَعَ بَعْدَ سَنَةٍ، فَأَتَتْخَبَ قَنْصُلًا. وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ
نَيْطَ^(٣) بِهِ أَنْ يُسَاعِدَ أَعْضَاءَ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، عَلَى سَنِّ^(٤)
الشَّرَائِعِ^(٥). فَأَتَتْخَجَ أَصْدِقَاءُ قَيْصَرَ، وَأُسْتَاءُ النُّبَلَاءِ وَأَعْضَاءُ
مَجْلِسِ الشُّيُوخِ أُسْتِيَاءَ عَظِيمًا. فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَخْشَوْنَ قَيْصَرَ، لِأَنَّهُ
كَانَ عَادِلًا طَاهِمًا^(٦).

(١) دَوَّخَ الْبِلَادَ : قَهَرَهَا وَاسْتَوَلَى عَلَيْهَا . (٢) النِّصَابُ : الْأَصْلُ . (٣) نَيْطَ بِهِ
الْعَمَلُ : وَصَلَ وَرَبَطَ (عَلَى الْمَجْهُولِ) . (٤) سَنِّ الشَّرَائِعِ : وَضَعَهَا . (٥) الطَّاهِجُ : الشَّرُّ
وَالْبَعِيدُ النَّظَرُ .



يوليوس قيصر

نَمْ إِنْ قَيْصَرَ كَانَ طَمَاحًا ، وَأَذْرَكَ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ أَنْ
يَكُونَ زَعِيمًا عَظِيمًا ، يَتَّبِعِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْمُ فَاتِحٍ عَظِيمٍ .
وَكَانَ بُمَيُّوسُ قَدْ دَوَّخَ الشَّرْقَ ، وَلَكِنَّ الْغَرْبَ كَانَ لَا يَزَالُ
حُرًّا . فَرَحَلَ قَيْصَرُ إِلَى فِرْنَسَا ، وَكَانَتْ تُدْعَى ، وَقَتْنِدِ بِلَادَ
النَّالِ ، لِيَنْتَمَ أَسْمًا عَظِيمًا . وَقَدْ هَتَفَ لَهُ الشَّعْبُ ، لَمَّا رَحَلَ عَلَى
رَأْسِ جَيْشٍ عَظِيمٍ ، غَيْرَ أَنْ كَثِيرِينَ ، مِنْ النَّبِلَاءِ وَأَعْضَاءِ
مَجْلِسِ الشُّيُوخِ ، أَمَلُوا إِلَّا يَمُودَ مِنْ رِحْلَتِهِ . وَقَدْ طَالَ غِيَابُهُ عَنْ
رُومِيَّةَ ثَمَانِي سِنِينَ .

وَفَادَرَ قَيْصَرُ الْمَدِينَةَ إِلَى بِلَادِ النَّالِ ، الَّتِي تُكُونُ فِرْنَسَا
وَسُوسِرَا الْيَوْمَ جُزْأَ مِنْهَا . وَكَانَتْ يَوْمَئِذٍ تَعِيشُ فِيهَا قَبَائِلُ
مُخْتَلِفَةٌ . وَقَدْ صَمَّ قَيْصَرُ أَنْ يُخَضِّعَهَا كُلَّهَا . وَكَانَ جَيْشُهُ يُجِبُّهُ
وَيَتَّبِعُهُ إِلَى حَيْثُ أَرَادَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ ^(١) ، مِنْ
جُنُودِهِ ، أَنْ يَفْعَلُوا مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ هُوَ نَفْسُهُ . فَقَدْ كَانَ
صَدِيقَهُمْ كَمَا كَانَ قَائِدَهُمْ .

وَأَسْتَبَسَلَ ^(٢) الْغَالِيُونَ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنْ حُرِّيَّتِهِمْ ،

(١) توقع الأمر : انتظر حصوله . (٢) استبسل القوم : استقوتوا .

وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى ^(١). فَإِنَّ قَيْصَرَ كَانَ يُحْزِرُ ^(٢) النَّصْرَ بَعْدَ
النَّصْرِ، وَعِنْدَ نِهَايَةِ سَنَةِ خَمْسِينَ، قَبْلَ الْمَسِيحِ، فَقَدَّتِ الْبِلَادُ كُلُّهَا
أَمَلًا، وَأَصْبَحَتْ بِلَادُ أَلْغَالِ وَلَايَةِ رُومَانِيَّةٍ. وَقَدْ كَتَبَ قَيْصَرُ، هُوَ
نَفْسُهُ، تَارِيخَ هَذِهِ الْحُرُوبِ الْغَالِيَةِ، فِي أُسْلُوبٍ ^(٣) شَائِقٍ ^(٤)
سَهْلٍ الْمَأْخُذِ ^(٥). وَعَبَرَ الْبَحْرَ إِلَى بَرِيطَانِيَا مَرَّتَيْنِ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يُخْضِعْ سِوَى قِسْمٍ مِنْ هَذَا الْقَطْرِ، الَّذِي اسْتَوْلَى عَلَيْهِ
الرُّومَانِيُّونَ، فِيمَا بَعْدُ.

غَيْرَ أَنَّ رُومِيَّةَ، الَّتِي كَانَ فِي وَسْمِهَا أَنْ تُخْضَعَ أَمَّا
بِأَسْرِهَا، عَجَزَتْ عَنْ إِدَارَةِ شُؤُونِهَا نَفْسَهَا. وَكَانَ بُمْبِيُوسُ قَدْ
أَنْفَضَ إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ، وَبَاتُوا عَلَى وَجَلٍ ^(٦) مِنْ عَوْدَةِ قَيْصَرَ.
إِلَّا أَنَّ قَيْصَرَ عَوَّلَ ^(٧) عَلَى الرُّجُوعِ، وَلَمْ يُسَرِّحْ ^(٨) جَيْشَهُ،
كَمَا أَمَرَ أَنْ يَفْعَلَ. وَعَبَرَ نَهْرَ الرُّوَيْكُونِ، الَّذِي يَقْصِلُ بَيْنَ
إِيطَالِيَا وَغَالِيَا، وَالَّذِي كَانَ الْحَدُّ الَّذِي تَنْتَهِي عَنْدهُ سَيْطَرَتُهُ ^(٩)،

(١) الجدوى : النفع . (٢) أحرز النصر : أصابه . (٣) الأسلوب : الفن من
القول أو العمل . (٤) شائق : جذاب . (٥) المأخذ : المنهج والمسلك . (٦) الوجل :
الخوف . (٧) عول على الأمر : اعتمد عليه . (٨) سرح الجيش : أطلقه . (٩) السيطرة :
السلطان .

وَتَقَدَّمَ بِحَيْثِهِ ، كَأَنَّهُ زاحِفٌ ^(١) فِي أَرْضٍ لِلْأَعْدَاءِ ، وَقَالَ ،
وَهُوَ يَعْبُرُ النَّهْرَ :

— قُضِيَ الْأَمْرُ ^(٢) .

وَقَدْ عَنَى بِهَذَا أَنَّهُ غَدَا مُضْطَرّاً أَنْ يُحَارِبَ روميةَ نَفْسَهَا .
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ دُخُولَ الْمُتَمَرِّدِ ، فَلَمْ تَلْبَثِ الْمَدِينَةُ أَنْ
أَنْضَمَّتْ إِلَيْهِ . ثُمَّ تَمَقَّبَ قُوَادِمُيُوسَ فِي إِسْبَانِيَا ، وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ
جَمِيعاً . وَفِي سَنَةِ ثَمَانِي وَأَرْبَعِينَ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ ، تَغَلَّبَ عَلَى
بُيُيُوسَ نَفْسِهِ ، فِي بِلَادِ الْيُونَانِ ، وَغَدَا سَيِّدَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ
وَأَصْبَحَ دِكْتَاتُوراً . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ صَارَ مُتَحَكِّماً ^(٣) ، يُحَقِّقُ لَهُ
وَحْدَهُ أَنْ يَسُنَّ الشَّرَائِعَ ، وَيَتَخَبَّ الْأَعْضَاءَ لِجَلِيسِ الشُّيُوخِ .
وَكَانَ الشَّعْبُ يُحْتَرِمُهُ ، وَيَهْتِفُ لَهُ كُلُّبَا رَأَهُ ، وَيُسَرُّ ^(٤) الزُّهُورَ
عِنْدَ قَدَمَيْهِ .

وَبَدَلَ قَيْصَرُ الْوَسْعِ لِيَكُونَ أَهْلاً لِهَذَا الْإِكْرَامِ . فَسَنَّ
كَثِيرًا مِنَ الشَّرَائِعِ الْحَكِيمَةِ ، وَسَاعَدَ الْفُقَرَاءَ ، وَوَضَعَ الْخُطَطَ

(١) زحف الجيش : معنى في همل لكثرة . (٢) قضي الأمر : حكم به الله .

(٣) التحكم : الذي يحكم في الأمر وفصل برأي له من غير أن يبرز وجهاً للحكم . (٤) يذتر
الزهور : يرميها متفرقة .

لِتَجْمِيلِ الْمَدِينَةِ وَإِنْشَاءِ الطَّرِيقِ . وَكَانَ فِي كُلِّ سَنَةٍ يُقِيمُ
لِلشَّعْبِ عِيداً عَظِيماً ، يَوْمَ ذِكْرَى مَوْلِدِهِ . وَلَا نَزَالُ إِلَى يَوْمِنَا
هَذَا نُسَمِّي الشَّهْرَ ، الَّذِي وُلِدَ فِيهِ ، يُوْلِيُو نِسْبَةً إِلَى أَسْمِهِ ،
يُوْلِيُوسَ .

كَانَ قَيْصَرُ أَكْثَمَ رَجُلٍ فِي رُومِيَّةَ ، وَلَكِنْ كَانَ لَا يَزَالُ
لَهُ أَعْدَاءُ . فَإِنَّ التُّبَلَاءَ وَأَشْيَاعَهُمْ ^(١) كَانُوا يَحْسِدُونَهُ ، وَيَقُولُونَ :
— دُونَكُمْ ^(٢) هَذَا الرَّجُلُ ؛ إِنَّهُ يَلْبَسُ ثَوْباً مِنْ الْأَرْجُوانِ ،
وَيَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ ذَهَبِيٍّ ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَلِكاً .
وَقَدْ كُنَّا ، نَحْنُ الرُّومَانِيُّينَ ، أَحْرَاراً ، عَلَى مَدَى الْأَجْيَالِ ،
وَلَا نُرِيدُ مَلِكاً عَلَيْنَا .

وَهُمُ ^(٣) بِقَتْلِ قَيْصَرَ لَدَى ذَهَابِهِ إِلَى مَجْلِسِ الشُّيُوخِ .
وَاتَّفَقَ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَقَيْصَرُ بِسِيرٍ فِي الشَّارِعِ ، أَنْ أَمْسَكَ
رَجُلٌ شَيْخٌ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ ، وَقَالَ :
— إِحْذَرِ يَا قَيْصَرُ الْيَوْمَ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ آذَارَ .

(١) الاشباع جمع شعبة : الاتباع والانصار . (٢) دونكم : خنوا وانظروا .
(٣) هموا بقتله . عنهموا عليه .

وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْيَوْمَ، الَّذِي كَانَ مُزْمِعاً ^(١) أَنْ يَتَعَدَّ فِيهِ
أَجْمَاعاً خَطِيراً ^(٢) فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ. فَضَحِكَ قَيْصَرٌ وَلَمْ يَأْبَهُ ^(٣)
لِتَحْذِيرِ الشَّيْخِ.

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الْمَذْكُورُ، غَادَرَ قَيْصَرٌ مَنَزَلَهُ. وَفِيمَا هُوَ
خَارِجٌ إِلَى الشَّارِعِ سَقَطَ تَحْتَالُهُ نَفْسُهُ، وَكَانَ قَائِماً بِجَانِبِ
الْبَابِ، فَتَحَطَّمَ. فَأَرْتَعَدَ ^(٤) قَيْصَرٌ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ سَائِراً فِي
طَرِيقِهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى أَلْوَرَاءِهِ. وَبَعْدَ بَضْعِ دَقَائِقَ صَادَفَ
الرَّجُلَ الشَّيْخَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ الْحَزِينِ الْمُكْتَبِ. فَأَبْتَسَمَ
قَيْصَرٌ، وَوَقَفَ عَنِ الْمَسِيرِ، وَقَالَ:

— هَا قَدْ أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ آذَارَ.

فَأَجَابَ الشَّيْخُ قَائِلاً:

— نَعَمْ، يَا قَيْصَرُ، إِنَّهُ قَدْ أَقْبَلَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْقَضِ.

وَقَبْلَ أَنْ يَنْقَضِيَ الْيَوْمُ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ آذَارَ،
سَقَطَ قَيْصَرٌ فِي مَجْلِسِ الشُّيُوخِ مَيِّتاً، فَإِنَّ أَعْدَاءَهُ قَتَلُوهُ هُنَاكَ.

(١) از مع الاسر: اظهر فيه مهماً. (٢) الخطير: الرقيق الضمر. (٣) لم يأبه
للأسر لم يلتفت إليه. (٤) ارتعد: اضطرب واهتز.

مَرْقِسُ أَوَّلِيُوسُ أَنْطُونِينُوسُ

كَانَ يُولِيُوسُ قَيْصَرُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومَانِيِّينَ وَحُكَمَائِهِمْ،
وَكَانَ مَقْتَلُهُ خَطَأً فَظِيماً. وَلَوْ فُسِّحَ فِي أَجَلِهِ ^(١) لَصَنَعَ. وَلَا
رَيْبَ، أَلْعَظَائِمُ لِلْعَالَمِ الرُّومَانِيِّ. غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي رُومِيَّةِ قَوْمٍ
مِنْ أَمْثَالِ يَرُوتُوسَ. ظَنُّوا أَنَّ قَيْصَرَ كَانَ عَظِيمَ الطُّمُوحِ،
فَقَتَلُوهُ. إِلَّا أَنَّ أُكْتَاْفِيُوسَ، ابْنَ بِنْتِ أُخْتِ قَيْصَرَ، تَغَلَّبَ عَلَيْهِمْ
جَمِيعاً، وَغَدَا فِي بَضْعِ سَنَوَاتِ سَيِّدِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ
يَلَا مُنَازِعٍ ^(٢)، وَتَسَلَّطَ عَلَيْهَا أَرْبَعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، سَادَ فِي أَثْنَانِهَا
السَّلَامُ فِي الْعَالَمِ.

وَهَذِهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الَّتِي تَسَلَّطَ عَلَيْهَا أُكْتَاْفِيُوسُ، أَوْ
أَغُسْطُسُ، كَمَا دُعِيَ لَمَّا آلَتْ إِلَيْهِ السُّلْطَةُ، كَانَتْ حُدُودُهَا الصَّخْرَاءَ
جَنُوباً، وَالْمُحِيطَ الْأَمَلْسِيَّ غَرْباً، وَنَهْرَ الْفُرَاتِ شَرْقاً، وَنَهْرَ
الدَّانُوبِ وَالرَّيْنِ شِمَالاً. وَأَخَذَ أَغُسْطُسُ عَلَى نَفْسِهِ تَحْصِينَ

(١) لَسَحَ فِي أَجَلِهِ: مَدَّ فِي عَمْرِهِ وَلَمْ يَاجِلهُ الْمَوْتُ. (٢) النَّازِعُ: الْخَاصِمُ.

الحدود، وإدارة الولايات إدارة حازمة^(١). وقد زان^(٢) رومية بالأبينية العظيمة، وكان يباهي^(٣) أنه وجد رومية مدينة من الآجر^(٤)، فغادرها مدينة من الرخام.

والأباطرة الذين تلو أغسطس^(٥) ثم طيباريوس، وكاليكولا وكلوديوس، وتيرون وكلهم من سلالة^(٦) يوليوس. ودعي عهد^(٧) قرن السلم الأول. ثم كان عهد^(٨) السلالة أفلافية، المؤلفة من فسباسيانوس، وتيطس، ودومنيانوس، من سنة تسع وستين إلى سنة ست وتسعين، بعد المسيح. وتلاهم خمسة من خيرة الأباطرة، وهم: نرفا، وتراجانوس، وهدريانوس، وأنطونيوس يثوس، ومرقس أورليوس أنطونينوس. وقد دعي هذا العهد قرن السلم الثاني.

وهذه السلسلة الثانية من الأباطرة رفعت الإمبراطورية إلى ذروة^(٩) الفلاح والسعادة. وكانت من أعظم واجبات هؤلاء الأباطرة تعزيز^(١٠) الدفاع عن حدود الإمبراطورية.

(١) الحازم: الذي يضبط أمره ويأخذ فيه بالثقة. (٢) زان: حسن وزخرف.

(٣) يباهي: يفاخر. (٤) الآجر: ما يبنى به من الطين المعوي. (٥) السلالة: النسل.

(٦) كان ذلك على عهده: أي في زمانه. (٧) القروة: أعلى الشيء. (٨) تعزيز: تقوية.

وَكَانَتْ الإِمْبَرَاطُورِيَّةُ تَحْمِيهَا الصَّخْرَاءَ جَنُوبًا، وَالنُّحِيطُ
الْأَطْلَسِيَّ غَرْبًا. غَيْرَ أَنَّهَا، شِمَالًا وَشَرْقًا، كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْهُجُومِ.
وَكَانَتْ أَلْقَبَائِلُ الْجُرْمَانِيَّةِ الْمُضْطَرِبَّةُ لَا تَنْفَكُ تَهْدُدُ الْحُدُودَ
الشَّمَالِيَّةَ. وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ الْمَدِينَةَ الرُّومَانِيَّةَ الْمُطَيِّعَةَ، حَوْلَ
الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ، كَانَتْ فِي خَطَرٍ دَائِمٍ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا
أَهْلُ الشَّمَالِ. وَكَانَتْ أَكْثَرُ مُشْكِلةٍ لِلْبَشَرِيَّةِ الْمُقْبِلَةِ فِي هَلْ
يَسْتَطِيعُ الْأَبَاطِرَةُ الرُّومَانِيَّةُونَ أَنْ يَصُدُّوا^(١) الْبَرَابِرَةَ، رَئِيسًا
يُصِيبُ هَؤُلَاءِ الشَّمَالِيُونَ الْجَفَاءَ^(٢)، مَعَ الزَّمَنِ، قِسْطًا^(٣) مِنْ
الْمَدِينَةِ، يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَنْ يَخْتَرِمُوهَا، أَوْ، عَلَى الْأَقْلَى، أَنْ
يَسْتَبْقُوا شَيْئًا مِنْهَا لِلْبَشَرِيَّةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَدْ انْتَهَى قَرْنَا السَّلْمِ فِي عَهْدِ الإِمْبَرَاطُورِ مَرْقُسَ أَوْرِيُوسَ
(الَّذِي تَسَلَّطَ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِينَ وَمِئَةٍ إِلَى سَنَةِ إِحْدَى
وِثْمَانِينَ وَمِئَةٍ، بَعْدَ الْمَسِيحِ). وَكَانَ عُمُرُ أَوْرِيُوسَ ثَلَاثَةَ
أَشْهُرٍ فَقَطْ، لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُوهُ، فَكَفَلَهُ^(٤) جَدُّهُ. وَكَانَ هَدْرِيَانُوسُ

يصدوا : يدفوا . (٢) الجفاء جمع الجافي : التليظ الحشن . (٣) القسط : الحصصة
والنصيب . (٤) كفله : طاله واهق عليه وقام بأمره.

وَقَتِيدِ إِمْبَرَاطُورًا، وَأَخْتَارَ خَلْفًا لَهُ أَنْطُونِيُوسَ يِيُوسَ، خَالَ
مَرْقُسَ، مُشْتَرَطًا عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبَعَنِي ^(١) مَرْقُسَ أَوْرِيُوسَ،
وَيَخْتَارَهُ لَهُ خَلِيفَةً. فَكَانَ أَنْطُونِيُوسُ يِيُوسَ أَفْضَلَ مُرَبِّ
لَأَوْرِيُوسَ. وَقَدْ قَالَ أَوْرِيُوسُ نَفْسُهُ :

«إِنَّ الْأَلِهَةَ جَادَتْ عَلَيَّ بِأَنْ جَعَلْتَ لِي أَجْدَادًا فَضْلًا،
وَوَالِدِينَ فَاضِلِينَ، وَأُخْتًا فَاضِلَةً، وَمُعَلِّمِينَ فَضْلًا، وَشُرَكَاءَ
فُضْلًا، وَأَقَارِبَ وَأَصْدِقَاءَ فَضْلًا. وَيَكَادُ كُلُّ شَيْءٍ، جَعَلْتُهُ لِي،
يَكُونُ خَيْرًا».

وَلَمْ يَتَلَقَّ ^(٢) أَوْرِيُوسَ الْعِلْمَ فِي الْمَدْرَسَةِ، بَلْ أَخَذَهُ عَنْ
مُعَلِّمِينَ، أَتَمَّنُوا خَاصَّةً عَلَى تَخْرِيجِهِ ^(٣) فِي عُلُومِ الْبَيَانِ وَالشُّعْرِ
الْعَادِيَةِ. وَلَكِنَّهُ، اتَّصَلَ فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ مِنْ عُمْرِهِ،
بِدِيُوغِنَاتُوسِ الْمُصَوِّرِ وَالْفَيْلسُوفِ الزَّيْنُونِيِّ، فَجَهَرَتْهُ ^(٤) الْفَلَسَفَةُ
الَّتِي كَانَ يُعَلِّمُهَا، فَقَادَرَ أَلْبَيَانَ ^(٥) وَالشُّعْرَ إِلَى الْفَلَسَفَةِ. وَأَرْسَلَ
أَنْطُونِيُوسُ يِيُوسَ يُسْتَدْعِي أَبُولُونِيُوسَ، الْفَيْلسُوفَ الزَّيْنُونِيِّ

(١) تَبَانَهُ : أَخَذَهُ ابْنًا . (٢) تَلَقَّى الْعِلْمَ : تَأَلَّفَهُ وَآخَذَهُ . (٣) التَّخْرِيجُ :

التَّحْرِيبُ وَالتَّعْلِيمُ . (٤) جَهَرَتْهُ : غَلَبَهُ وَأَثَرَتْ فِيهِ جَدًّا . (٥) عِلْمُ الْبَيَانِ : عِلْمُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ .

الشهير، لِيُؤَدِّبَ أُوْرَلِيُوسَ الَّذِي كَانَ قَدْ زَوَّجَهُ بِنْتَهُ قَوْسَتِينَا.
فَلَمَّا وَصَلَ أَبُولُونِيُوسُ إِلَى رُومِيَّةَ، كَتَبَ إِلَيْهِ الْإِمْبَرَاطُورُ
يَسْتَقْدِمُهُ^(١) إِلَى قَصْرِهِ. فَأَجَابَ أَبُولُونِيُوسُ:

«إِنِّي أَعْجَبُ مِنْ أَنْ تَسْأَلَنِي الذَّهَابَ إِلَى قَصْرِكَ، مَعَ أَنَّهُ
مِنْ وَاجِبِ التَّلْمِيزِ أَنْ يَقْصِدَ الْمُعَلِّمُ، وَلَيْسَ مِنْ وَاجِبِ الْمُعَلَّمِ
أَنْ يَقْصِدَ التَّلْمِيزَ».

فَلَمَّا قَرَأَ الْإِمْبَرَاطُورُ هَذَا تَبَسَّمَ، وَكَتَبَ إِلَى الْفِيلَسُوفِ قَائِلًا:
«إِنِّي أَعْجَبُ، يَا أَبُولُونِيُوسُ، مِنْ أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ صُعُوبَةً، فِي
الْمُجِيبِ مِنْ بِلَادِ أَيُْونَانَ إِلَى رُومِيَّةَ. ثُمَّ تَجِدُ مَشَقَّةً فِي الْمَسِيرِ
مِنْ أَحَدِ جَوَانِبِ رُومِيَّةَ إِلَى جَانِبِ آخَرَ. وَعَلَى كُلِّ فَلَانِي مُرْسِلٌ
إِلَيْكَ، فِي الْحَالِ، أُوْرَلِيُوسَ، مُتَبَيِّنًا^(٢)، لِكَيْ تُؤَدِّبَهُ».

وَاطَّنُكُمْ تُوَافِقُونِي أَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَنْطُونِيُوسَ يَبُورِسَ
كَانَ مِنْ مُحِبِّي الْعِلْمِ، وَأَنَّ أُوْرَلِيُوسَ الشَّابَّ قَدْ وَجَدَ بِهِ خَيْرَ
قُدْوَةٍ^(٣).

(١) يستقدمه: يطلب قدمه. (٢) متبَيِّنًا: الولد الذي اتخذته ابناً. (٣) القدوة:

الأسوة وما اقتديت به.

وَأَنْصَرَفَ أَوْرَلْيُوسُ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَى دَرَسِ الْفَلَسَفَةِ الزَّيْنُونِيَّةِ .
وَكَيْسَتْ هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ كَثِيرًا مِنْ الْمَذَاهِبِ الْفَلَسَفِيَّةِ . فَقَدْ
كَانَ مَشْوُهَا فِي أَثْنَاءِ سَنَةِ عَشْرِ وَثَلَاثِ مِئَةٍ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ .
وَوَاضِعُهَا ، رَجُلٌ ، يُدْعَى زَيْنُونٌ . وَيَقُومُ خَطَرُهَا ^(١) الْأَعْظَمُ
بِالْجَانِبِ الْأَدْبِيِّ مِنْهَا . وَهِيَ تَرَى أَنَّهَا ، إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَكُونَ
سُعْدَاءَ ، يَتَّبِعِي لَنَا أَنْ تَتَغَلَّبَ عَلَى عَوَاطِفِنَا وَشَهَوَاتِنَا ، وَأَنْ
تَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ بِالْخُضُوعِ لِإِرَادَتِهِ . وَيَجِبُ أَنْ نَطْلُبَ
الْفَضِيلَةَ لِأَنَّهَا الْخَيْرُ الْأَعْظَمُ ، وَقَدْ نَلَقَى الْمَنَاءَ فِي مُحَاوَلَتِنَا
الْوُصُولَ إِلَى هَذَا الْخَيْرِ الْأَعْظَمِ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَنَاءَ ، فِي مِثْلِ هَذَا
السَّبِيلِ الصَّالِحِ ، يَجِبُ أَلَّا يُعْتَدَ ^(٢) بِهِ .

وَقَدْ دَرَسَ أَوْرَلْيُوسُ هَذِهِ الْفَلَسَفَةَ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِدَرْسِهَا ،
بَلْ عَاشَ ، عَلَى مُقْتَضَاهَا ^(٣) ، مُتَقَشِّفًا ^(٤) جَاهِدًا ^(٥) ، وَبَالِغٌ فِي ذَلِكَ
حَتَّى أَضَرَ بِصِحَّتِهِ . وَتَعَلَّمَ مِنْ مُعَلِّمِيهِ الزَّيْنُونِيِّينَ ، أَنْ يَحْتَدَّ
فِي الْعَمَلِ ، وَيَزْجُرَ ^(٦) نَفْسَهُ ، وَيُحَازِرَ الْأَسْمَاعَ إِلَى أَقْوَالِ الْوُشَاةِ ^(٧)

(١) الخطر : ارتضاع القدر . (٢) لا يعتد به : لا يلتفت إليه . (٣) القضي :

الوجب . (٤) للضعف الذي يبيش عيشاً خشناً . (٥) الجاهد : الصب الجاد . (٦) زجر

نفسه : منها ونهاها . (٧) الوشاة جمع الواشي : التام .

وَتَعْمَلِ الْمَكَارِهَ ، وَلَا يَحِيدَ عَنْ قَصْدِهِ ^(١) . وَتَعْلَمُ أَيْضًا أَنْ
يَلْزَمَ الرِّزَانَةَ ^(٢) غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ ^(٣) ، وَتَلْطَفُ ^(٤) فِي إِرْشَادِ النَّاسِ
إِلَى الصَّوَابِ ، وَأَلَّا يُكْثِرَ مِنَ الْقَوْلِ لِأَيِّ كَانَ : «لَيْسَ لَنِي
سَعَةٌ مِنَ الْوَقْتِ» أَوْ يَكْتُبَ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، وَأَلَّا يَمْتَدِّرَ
عَنْ إِمَالِهِ وَاجَابَتِهِ ، مُخْتَجًا بِالشَّوَاغِلِ الْإِضْطِرَارِيَّةِ .

وَقَدْ قِيلَ أَوْرَلِيُوسُ بِكُلِّ هَذِهِ النَّصَائِحِ الطَّيِّبَةِ ، وَكَانَ أَجْمَعَ
مَعَ ذَلِكَ ، يُحِبُّونَهُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَنْدَلِ عَنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي نَشَأَ
عَلَيْهَا . نَمَّ إِنَّهُ كَانَ يَقْسُو عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ رَفِيقًا ^(٥) بِغَيْرِهِ .
أَفَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقْتَبِسَ ، مِنْ هَذَا الْإِمْبَرَاطُورِ الْوَنِيِّ ،
عِبْرًا كَثِيرَةً ، تُسَاعِدُنَا عَلَى إِصْلَاحِ حَيَاتِنَا ؟

تُوُفِّيَ الْإِمْبَرَاطُورُ أَنْطُونِيُوسُ يُّيُوسُ ، سَنَةً إِحْدَى وَسِتِّينَ
وَمِئَةً ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ، وَأَوْصَى أَنْ يَخْلُقَهُ أَوْرَلِيُوسُ ، وَكَانَ وَقْتُهُ
فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمرِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ كَمُودُسَ ، مُتَبَنَاهُ الثَّانِي ، الَّذِي
غَلَبَ عَلَيْهِ اسْمُ لُوسِيُوسَ فِيرُوسَ .

(١) لَا يَحِيدُ عَنْ قَصْدِهِ : لَا يَدُلُّ عَنْ طَرَفِهِ الْمُسْتَقِيمِ . (٢) يَلْزَمُ الرِّزَانَةَ : لَا يَهَارِقُ

الْوَقْتَ . (٣) غَيْرَ مُتَكَلِّفٍ : غَيْرَ مُتَعَصِّمٍ فَلَا يَحْمِلُهَا عَلَى خِلَافِ عَادَتِهِ . (٤) يَلْطَفُ : يَتَرَفَّقُ .

(٥) الرَّفِيقُ : الْكَلِيفُ .

فَنَدَبَ ^(١) مَجْلِسُ الشُّيُوخِ أَوْرَلْيُوسَ لِيَتَوَلَّى إِدَارَةَ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ وَخَدَهُ، وَلَكِنْ أَيْ كَرَّمُ أَخْلَاقِهِ إِلَّا أَنْ يُشْرِكَ
كُمُودُسَ فِي ذَلِكَ. فَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي تَسَلَّطَ
فِيهَا إِمْبَرَاطُورَانِ فِي رُومِيَّةَ. وَكَانَ أَوْرَلْيُوسُ رَجُلًا عَظِيمًا،
رَفِيقًا، حَازِقًا، وَأَمَّا كُمُودُسُ فَكَانَ ضَعِيفًا مُهَادِدًا ^(٢) نَفْسَهُ،
غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُؤَكِّدُ ^(٣) أَوْرَلْيُوسَ، وَيُؤَافِقُهُ فِي رَأْيِهِ.

وَتَصَدَّعَتْ ^(٤) سُحْبُ الْأَخْطَرِ أَخِيرًا، وَتَدَفَّقَ الْبَرْتِيُونَ عَلَى
أَرْمِينِيَّةَ، وَسُورِيَّةَ، وَكَانَتَا وَفْتِيذَ جُزْأَيَا مِنَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ.
فَلَبَّتْ أَوْرَلْيُوسُ بِرُومِيَّةَ، وَرَحَلَ كُمُودُسُ لِمُقَاوَمَةِ الْبَرْتِيِّينَ.
وَكَسَرَ الْبَرْتِيُونَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمِئَةً. وَلَمْ يَسْكُنْ ذَلِكَ
بِفَضْلِ كُمُودُسَ، لِأَنَّهُ أَرْخَى الْعِنَانَ ^(٥) لِمَشْهُوَاتِهِ، بَلْ بِفَضْلِ
قُوَادِرِهِ الْقَادِرِينَ. وَأَتَقَصَّبَتْ قَبِيلَةٌ أُخْرَى مِنَ الْبَرَابِرَةِ عَلَى إِيطَالِيَّةِ
مِنْ جِبَالِ الْأَلْبِ، فَبَادَرِ الْإِمْبَرَاطُورَانِ لِمَصَدِّهَا ^(٦). وَتَوَفَّى كُمُودُسُ
فِي الْحَرْبِ الَّتِي نَشِبَتْ وَفْتِيذَ، سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَمِئَةً.

(١) ندبه الأمر : دعاه ورشحه لقيام به . (٢) هادو نفسه : مايلها وسايها .

(٣) يؤكّد : يجعل وسطم . (٤) تصدعت : تفلقت . (٥) العنات : سير العجام .

(٦) صدها : دفعها .

وَعَدَا مَرْفُسُ أَوْرَلْيُوسُ سَيِّدَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ بِلَا مُنَازَعٍ^(١)،
وَذَلِكَ فِي أَشَدِّ الْأَطْوَارِ اضْطِرَابًا فِي تَارِيخِهَا. وَقَدْ وُصِفَ مُلْكُهُ
عَلَى هَذَا الْوَجْهِ :

«لِأَنَّهُ كَانَ يَعُدُّ نَفْسَهُ خَادِمًا لِلْجَمِيعِ ، كَمَا كَانَ الْأَمْرُ فِي
الْوَاقِعِ . فَإِنَّ تَسْجِيلَ أَسْمَاءِ الرِّعَايَا ، وَقَعَ^(٢) الْمُتَخَصَّصَاتِ
وَالْمُرَافَعَاتِ ، وَالنُّهُوضَ بِالتَّقْوَى الْمُعْتَنِيَةِ الْعَامَّةِ ، وَالْعِنَايَةَ
بِالْقَاصِرِينَ^(٣) ، وَالْاِقْتِصَادَ فِي النِّفَقَاتِ الْعَامَّةِ ، وَالتَّقْلِيلَ مِنْ
الْمُصَارَعَاتِ وَالْمُجَالِدَاتِ^(٤) الدَّمَوِيَّةِ ، وَالْعِنَايَةَ بِالطَّرِيقِ ، وَتَجْدِيدَ
مَا لِمَجْلِسِ الشُّيُوخِ مِنْ الْأَمْتِيَازَاتِ ، وَتَمْيِينَ الْحُكَّامِ مِنْ ذَوِي
الْأَهْلِيَّةِ وَالْجِدَارَةِ^(٥) ، حَتَّى تَنْظِمَ السَّيْرَ فِي الطَّرِيقِ ؛ إِنَّ هَذِهِ
كُلُّهَا ، وَغَيْرَهَا مِنْ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي لَا تُحْصَى ، كَانَ يُعْنَى بِهَا
كُلُّ الْعِنَايَةِ ، حَتَّى لَهَا ، عَلَى حَالِ وَسَطٍ مِنَ الصَّحَّةِ ، كَثِيرًا مَا
أَزَمَتْهُ عَمَلًا شَاقًّا ، مِنَ الصَّبَاحِ أَلْبَا كَرٍ إِلَى مَا بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .
وَكَانَ مَقْصِدُهُ كَثِيرًا مَا يَضْطَرُّهُ أَنْ يَحْضُرَ الْأَلْيَابَ وَالْمَشَاهِدَ ،

(١) المنازع : المحاضم . (٢) قع المتخصصات : أزالها وردعا . (٣) القاصر :
الذي لم يصل إلى سن الامراءك . (٤) المجالدة : البضارية باليف . (٥) الجلوة : الأهلية .

وَلَكِنَّهُ، فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ ، كَانَ يَشْغَلُ نَفْسَهُ إِمَّا بِالْقِرَاءَةِ ،
وَأَمَّا بِالْإِصْنَاءِ إِلَى مَنْ يَقْرَأُ لَهُ ، وَإِمَّا بِكِتَابَةِ تَذَاكِرَ . فَقَدْ كَانَ
وَاحِدًا مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَرُونَ أَنَّهُ يَنْبَغِي التَّرِيثُ^(١) فِي عَمَلِ
كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنْ لَيْسَ ، إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْجَرَائِمِ ، مَا هُوَ شَرٌّ مِنْ
إِضَاعَةِ الْوَقْتِ .

وَأَضْطُرُّ أَوْزَ لِيُوسُ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِينَ وَمِئَةٍ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ،
أَنْ يُحَارِبَ الْقَبَائِلَ الْجَرْمَانِيَّةَ مَرَّةً أُخْرَى ، وَقَضَى سِنِينَ عَدِيدَةً ،
وَهُوَ يُحَاوِلُ صَدَّهَا . وَقَدْ عَلَّمَتْهُ الْفَلَسَفَةُ الزَّيْنُونِيَّةُ ، الَّتِي
نَشَأَ عَلَيْهَا ، أَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ^(٢) الْعَيْشِ ، فَكَانَ بِذَلِكَ خَيْرَ
قُدْوَةٍ لِلْحَيْثِ بِأَشْرِهِ . فَلَمْ يَكُنْ يَسْعُ الْعَامَّةُ مِنَ الْجُنُودِ أَنْ
يَتَبَرَّمُوا^(٣) بِعَمَلِ شَاقٍّ ، وَمَنْ يَرُونَ الْإِمْبَرَاطُورَ نَفْسَهُ ، فِي كُلِّ
حِينٍ ، يَتَحَمَّلُ مَا هُوَ أَشَقُّ ، طَيِّبَ النَّفْسِ صَابِرًا .

وَجَاءَهُ ، وَهُوَ فِي جَرْمَانِيَا ، أَنَّ أَفِيدِيُوسَ كَاسِيُوسَ ، قَائِدَ
الْجُيُوشِ الرُّومَانِيَّةِ فِي آسِيَا ، قَدْ تَمَرَّدَ وَنَادَى بِنَفْسِهِ لِمَبْرَاطُورًا .

(١) التريث : الإبطاء والتهميل . (٢) الميسور : السهل . (٣) تبرم بالمثل :

تفجر منه .

(وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةً خَمْسَ وَسَبْعِينَ وَمِئَةً ، بَعْدَ الْمَسِيحِ) . فَتَأْتِبَ
أُورَلْيُوسُ فِي الْحَالِ لِمُقَاوَمَتِهِ ، وَقَالَ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ لِجُنُودِهِ
إِنَّهُ يَدْفَعُ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةَ طَوْعاً^(١) إِلَى أَفِيدْيُوسَ ، إِذَا عُدَّ ذَلِكَ
عَوْنًا عَلَى الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ ، لِأَنَّهُ ، هُوَ ، لَمْ يَجْنِ مِنَ الرَّفْعَةِ
وَسُمُو الْمَقَامِ سِوَى الْعَمَلِ الْمُتَوَاصِلِ وَالنَّصَبِ^(٢) . وَقَالَ :

— إِنِّي مُسْتَعِدٌّ أَنْ أُوَاجِهَ أَفِيدْيُوسَ أَمَامَ مَجْلِسِ الشُّيُوخِ
وَأَمَامَكُمْ ، وَأَنْ أَدْفَعُ إِلَيْهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةَ ، لَا يُشْرَ^(٣) فِي سَبِيلِ
ذَلِكَ سَيْفٌ وَلَا يُسْفِكُ دَمٌ ، إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْخَيْرُ لِلشَّعْبِ .
غَيْرَ أَنَّ أَفِيدْيُوسَ لَنْ يَرْضَى الْإِخْتِكَامَ^(٤) إِلَى مِثْلِ هَذَا الْقَضَاءِ ،
فَمَنْ خَانَ عَهْدَ^(٥) الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ لَا يَثِقُ بِأَحَدٍ . وَلَنْ يَثِقَ بِي ،
أَنَا أَيْضًا ، إِذَا أُتِيحَ لِي النَّصْرُ عَلَيْهِ . وَإِنِّي أَصَارُ حَكْمَ^(٦) يَاجُنُودِي
الْأَعْزَاءِ ، بِأَصْدَقِ نِيَّةٍ ، أَنِّي لَسْتُ أَخْشَى ، مَعَ ذَلِكَ ، سِوَى أَمْرِ
وَاحِدٍ ، وَهُوَ أَنْ يَضَعَ أَفِيدْيُوسُ ، هُوَ نَفْسُهُ ، حَدًّا لِحَيَاتِي ،
أَوْ أَنْ يَقُومَ أَحَدٌ ، مُؤَيَّدًا^(٧) لِي ، فَيَعْجَلْ مَوْتَهُ . وَأَكْبَرُ أَمَلٍ لِي

(١) فعل الامر طوعاً : اي غير مكره عليه . (٢) النصب : التبع . (٣) مهر
السيف : سله فرقه . (٤) الاحتكام الى الحاكم : رفع المحاسنة اليه ليفصل فيها . (٥) العهد :
هنا بمعنى المودة واليثاق . (٦) اصارحكم : اجاهركم وأظهر لكم . (٧) أيده : قواه

هُوَ أَنْ أَقِيمَ الدَّلِيلَ عَلَى اسْتِطَاعَتِي أَنْ أَغْفِرَ أَفْبَحَ الْإِهَانَاتِ ،
وَأَنْ أَغْنِمَ مَوَدَّتَهُ ، عَلَى كُرْهِهِ لِي ، وَأَنْ أَظْهِرَ لِلْعَالَمِ أَنَّ
الْحُرُوبَ الْأَهْلِيَّةَ نَفْسَهَا قَدْ تُقْضِي ^(١) إِلَى خَاتِمَةِ حَسَنَةٍ .

وَلَمْ يَلْبَثِ الْحُبُّ ، الَّذِي شَمَلَ النَّاسَ جَمِيعًا لِلْإِمْبَرَاطُورِ
الصَّالِحِ ، أَنْ عَادَ عَلَى أَفَيْدِيوسَ بِالشَّرِّ ، فَقَتَلَهُ جُنُودُهُ أَنْفُسَهُمْ .
وُحِلَ رَأْسُهُ إِلَى الْإِمْبَرَاطُورِ ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَسَفِ ، وَأَمَرَ أَنْ يُدْفَنَ
بِالْإِكْرَامِ . وَطَامَلَ أُسْرَتُهُ وَسَائِرَ الْمُتَأَمِرِينَ بِوَالِدِ الْحِلْمِ .
فَأَعْجَبَ الْبَعْضُ بِهَذَا الصَّفْحِ ، وَأَنْكَرَهُ ^(٢) الْبَعْضُ الْآخَرُ . غَيْرَ
أَنَّ الْإِمْبَرَاطُورَ قَلِمًا كَانَ يُبَالِي ^(٣) بِإِنْكَارِ النَّاسِ وَاسْتِحْصَانِهِمْ ،
بَلْ كَانَ يَتَفَادَى لِكَرَمِ طَبِيعَتِهِ ، وَيَصْنَعُ مَا يَرَاهُ عَدْلًا ،
مُغْتَبِطًا ^(٤) مُكْتَفِيًا بِاسْتِصْوَابِ ^(٥) نَفْسِهِ وَرِضَاهَا .

وَأَجْتَرَأَ ^(٦) بَعْضُهُمْ عَلَى تَسْوِئَةٍ ^(٧) عَمَلِهِ قَائِلًا لَهُ : « إِنَّ أَفَيْدِيوسَ ،
لَوْ أُتِيحَ لَهُ الْفَوْزُ ، لَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمُ ^(٨) مِثْلَ هَذَا الْحِلْمِ » . فَأَجَابَ
الْإِمْبَرَاطُورُ بِهَذَا الْجَوَابِ الرَّائِعِ :

(١) تَقْضِي : تَوْصِلُ . (٢) أَنْكَرَهُ : عَابَهُ . (٣) يُبَالِي الْأَمْرَ : يَهْتَمُّ بِهِ وَيَكْتَرِبُ
لَهُ . (٤) مُغْتَبِطًا : مَسْرُورًا . (٥) اسْتِصْوَابُهُ : رَأَاهُ سَوَابًا . (٦) اجْتَرَأَ تَجَاسَرَ .
(٧) سَوَاءُ عَمَلِهِ تَسْوِئَةٌ عَابَهُ (٨) يَحْلُمُ : يَصِفُّحُ .

- لَمْ أُسَيِّدْ خِدْمَةَ الْأَلِهَةِ ، وَلَمْ يَبْلُغْ بِي الْجُورُ
وَالْحَرْقُ^(١) فِي مُلْكِي مَبْلَغًا ، خَشِيتُ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ الظَّفَرُ
لِأَفِيدِيُوسَ .

وَزَلَّ أَوْرِيلْيُوسُ ، بَعْدَ مَوْتِ أَفِيدِيُوسَ ، عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَا
يَزَالُ لَهُ أَعْدَاءُ كَثِيرُونَ ، وَرَغِبَ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ إِلَيْهِ . فَقَامَ بِرُحْلَةٍ
إِلَى الشَّرْقِ ، حَيْثُ سَحَرَ الْجَمِيعَ ، فِي كُلِّ مَكَانٍ ، بِلُطْفِهِ ،
وَأَثَارِ إِعْجَابِهِمْ بِحِلْمِهِ ، وَأَرْشَدَهُمْ بِنَصَائِحِهِ ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى إِصْلَاحِ
أَنْفُسِهِمْ أَقْتِدَاءَ بِسِيرَتِهِ . وَتَوَفِّيَتْ الْإِمْبَرَاطُورَةُ فَوْسْتِينَا فِي هَذِهِ
الرُّحْلَةِ ، بَعْدَ أَنْ وَلَدَتْ لَهُ أَحَدَ عَشَرَ وَلَدًا . وَلَمَّا عَوَدَتْهُ إِلَى
إِيطَالِيَا ، خَلَعَ ثَوْبَ الْجُنْدِيَّةِ وَفَعَلَ جُنُودَهُ كَذَلِكَ ، وَدَخَلُوا
رُومِيَّةَ بِالثِّيَابِ الَّتِي كَانُوا يَلْبَسُونَهَا أَيَّامَ السَّلْمِ . وَعَيْنَ وَقْتِئِذٍ
أَبْنَهُ كُودُسَ لِيَخْلُقَهُ فِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ (وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةً سِتِّ
وَسَبْعِينَ وَمِئَةً) .

وَقَدْ نَسْتَفْرِيبُ ، مَعَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ كَرَمِ أَخْلَاقِ أَوْرِيلْيُوسَ
وَتَسَاهُلِهِ ، أَنْ يَكُونَ قَدْ أَبَاحَ^(٢) أَصْطِهَادَ الْمَسِيحِيِّينَ ، فِي

(١) الحرق : سوء التصرف . (٢) أباح الأمر : أجازوه وجعله مباحاً .

عَهْدِهِ، اضْطِهَادًا شَدِيدًا. وَلَكِنْ يَجِبُ أَلَّا يَذْهَبَ عَنَّا أَنْ
الْاضْطِهَادَ كَانَ بِالْأَوَّلَى سِيَاسِيًّا لَا دِينِيًّا. فَإِنْ مَرُقُسَ أَوْ رِيُوسَ
لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مِنْ عَقَائِدِ الْمَسِيحِيَّةِ وَتَعْلِيمِهَا إِلَّا الْقَلِيلَ،
وَلَمْ يَكُنْ لِيَكْتَرِثَ لَهَا ^(١) كَبِيرَ اكْتِرَاثٍ، غَيْرَ أَنَّ أَتْبَاعَهَا،
بِمُحَدِّثِهِمْ ^(٢) الدِّينَ الَّذِي، يَعُدُّ الْأَبَاطِرَةَ فِي مُجَلَّةِ آلِهَتِهِ، قَدْ غَدَوْا
مُتَمَرِّدِينَ عَلَى الْأَوْضَاعِ ^(٣) الرَّاهِنَةِ ^(٤) وَعُدُّوا لِذَلِكَ مُجْرِمِينَ.

وَأَضْطُرُّ أَوْ رِيُوسَ سَنَةَ ثَمَانِي وَسَبْعِينَ وَمِئَةً، أَنْ يَنْزِلَ
إِلَى الْمِيدَانِ مَرَّةً أُخْرَى، لِمُحَارَبَةِ الْقَبَائِلِ الْجَرْمَانِيَّةِ، وَكَانَتْ
لَا تَنْفَكُ جَاعِحَةً ^(٥) مُضْطَرِبَةً. وَعَلَى حِينٍ أَخَذَ الْحِطُّ يَنْسِمُ
لِلْجُيُوشِ الرُّومَانِيَّةِ، وَافَتْ الْإِمْبَرَاطُورَ مَنِيتُهُ نَفَاةً، فَكَاتَ
بِالطَّاعُونَ، فِي التَّاسِعَةِ وَالْخَمْسِينَ مِنْ عُمْرِهِ (سَنَةَ ثَمَانِينَ وَمِئَةً.
وَقَدْ أُرْتَاخَ ^(٦) أَوْ رِيُوسَ لِلْمَوْتِ، بَلْ كَانَ تَوَاقًا إِلَى الرَّحِيلِ.
وَلَمْ يَكُنْ يَرَى فِي نَفْسِهِ سِوَى رَفِيقٍ لِكُلِّ مَنْ حَوْلَهُ فِي
سَبِيلِ الْحَيَاةِ الْعَالَمِ. وَوَدَّعَ أَصْدِقَاءَهُ وَدَاعَ مُتَقَدِّمِ ^(٧) لَهُمْ. وَلَمْ

(١) اكترث لها : اهتم بها . (٢) جدد الدين : انكره وكفر به . (٣) الاوضاع :
القوانين الموضوعة المثبتة . (٤) الراهنة : المدة الناجية . (٥) جاعحة : عاصية . (٦) ارتاخ
للموت : طاب له نمسه . (٧) المتقدم : السابق .

يَكُنْ وَلَدُهُ كَمُودُسُ، الَّذِي أَوْشَكَ أَنْ يَخْلِفَهُ، لِيَعْرِيهُ فِي
سَامَاتِهِ الْأَخِيرَةِ، لِأَنَّ أَوْرَلْيُوسَ كَانَ يَعْلَمُ حَقَّ الْعِلْمِ أَنَّ وَلَدَهُ
كَانَ جَاهِلًا، قَاسِيًا، فَاسِقًا^(١). وَكَمْ مِنْ أَبٍ صَالِحٍ، وَلَدَهُ
أَبْنًا شَرِيرًا !

وَبَعْدَ مَوْتِ أَوْرَلْيُوسَ أَخَذَتِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الرُّومَانِيَّةُ
فِي الْأَنْحِطَاطِ. فَإِنَّا نَشَاهِدُ مُذْ ذَلِكَ إِمْبَرَاطُورِيَّةً، تَضَخَّمتُ^(٢)
تَضَخُّمًا عَظِيمًا، تَهَيَّطُ بِمَا ثَقُلَتْ، يُحْدِثُ بِهَا^(٣) فِي الْخَارِجِ أَعْدَاءُ
بَرَابَرَةٍ حَالِفِهِمْ^(٤) الْفُوزُ، وَتُخَزِّفُهَا فِي الدَّخْلِ أَحْزَابُ تَنَازَعَتِهَا^(٥)
الْأَطْلَاعُ وَالْقِسُوءُ. وَلَا يَذْهَبَنَّ عَنَّا، مَعَ ذَلِكَ، أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْعَظِيمَةِ لَا تَدُولُ^(٦) سَرِيمًا. فَلَمْ تَكُنْ أُمُورُ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ كُلِّهَا، قَبْلَ مَرَقُسَ أَوْرَلْيُوسَ، عَلَى حَالٍ صَالِحَةٍ،
وَلَمْ تَسُوءْ أُمُورُهَا كُلِّهَا بَعْدَهُ.

مَاتَ مَرَقُسُ أَوْرَلْيُوسُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَزَالُ حَيًّا بِمَا أَبْقَاهُ
مِنْ الْأَثَارِ. فَقَدْ ضَمَّنَ فَلْسَفَتَهُ فِي الْحَيَاةِ كِتَابًا، سَمَّاهُ

(١) الفاسق : الخارج عن طريق الحق والصلاح . (٢) تضخمت : صارت ضخمة .

(٣) يحدث بها : يحيط بها . (٤) حالفهم : لازمهم . (٥) تنازعها : تهاذبها . (٦) تدول :

تقلب من حال الى حال .

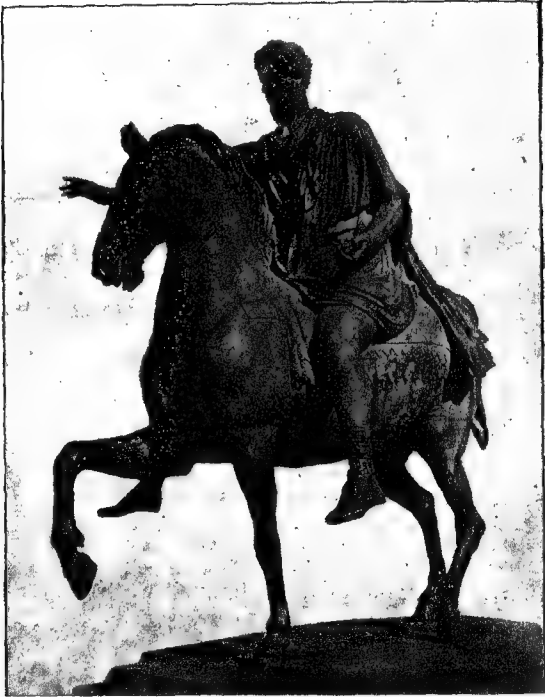
« التآملات » ، وَضَعَهُ فِي اللُّغَةِ أَلِيُونَانِيَّةٍ ، وَهَذِهِ التَّأْمَلَاتُ كُتِبَتْ عِنْدَ سُنُوحٍ ^(١) الْفُرُصِ ، فِي وَسْطِ الْمَشَاغِلِ الْعَامَّةِ ، أَوْ فِي عَشِيَّةٍ ^(٢) الْمَارِكِ الَّتِي كَانَ مَصِيرُ الْأَمْبَرَاطُورِيَّةِ مَنُوطًا ^(٣) بِهَا ، وَبِهَذَا تَقُومُ قِيَمَتُهَا الْفِعْلِيَّةُ وَجَمَالُهَا . وَهَذَا الْكِتَابُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ ، عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْعَوَاطِفِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَمِنْ أَمْنِ مَخْلَقَاتِ ^(٤) الْأَزْمِنَةِ الْقَدِيمَةِ .

إِذَا أُتْبِحَ لَكُمْ يَوْمًا أَنْ تَهْبُطُوا ^(٥) رُومِيَّةً ، مَدِينَةَ الْأَبَاطِرَةِ ، فَقَدْ يَسُرُّكُمْ أَنْ تُشَاهِدُوا فِيهَا أَثَرَيْنِ ^(٦) عَظِيمَيْنِ لِمَرْقُسَ أَوْرَلِيُوسَ .

هُنَاكَ فِي يَتَسَا كُلُّنَا (سَاحَةِ الْعَمُودِ) تَرَوْنَ عَمُودًا مِنْ الرُّخَامِ ، أَقَامَهُ مَرْقُسُ أَوْرَلِيُوسُ ، يَبْلُغُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ مِثْرًا وَنِصْفَ الْمِثْرِ طَوْلًا ، وَحَوْلَهُ عِشْرُونَ صَقًّا مِنَ التَّمَايِلِ ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، تُمَثِّلُ حُرُوبَ الرُّومَانِيِّينَ مَعَ قَبَائِلِ الدَّانُوبِ . وَتَبْتَعِدُونَ عَنْ هَذَا الْعَمُودِ مَسِيرَةَ خَمْسِ دَقَاقٍ وَتَصْنَعُونَ

(١) سَنَحَتِ الْفُرْصَةُ : عَرَضَتْ . (٢) الْعَشِيَّةُ : أَوَّلُ الظَّلَامِ . (٣) مَنُوطًا بِهَا :

مُتَعَلِّقًا بِهَا . (٤) مَخْلَقَاتُ : مَتْرُكَاتُ . (٥) هَبَطَ إِلَى الدِّينَةِ : دَخَلَهَا . (٦) الْأَثَرُ : مَا يَبْقَى بَعْدَ الْفِيءِ .



مرقس اورلیوس

دَرَجَاتِ أَثَرٍ عَظِيمٍ ، يُدْعَى الْكَمِيدُ لِيُو ، فَتَقِفُونَ أَمَامَ تَمثالِ
 فَارِسٍ ، هُوَ مَرْقُسُ أَوْرَلْيُوسُ . فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، تُشَاهِدُونَ
 إِمْبَرَاتُورًا ، كَانَ أَشْرَفَ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ ^(١) وَأَعَزَّهُمْ ، وَيَبْدُو لَكُمْ
 كَمَا كَانَ فِي حَيَاتِهِ . هُنَاكَ تَعُودُ رُومِيَّةُ الْإِمْبَرَاتُورِيَّةُ إِلَى الْحَيَاةِ
 أَمَامَكُمْ . هُنَاكَ تَرَوْنَهُ مُسْتَوِيًا ^(٢) عَلَى صَهْوَةٍ ^(٣) جَوَادِهِ ،
 رُومَانِيًّا فِي عَزِيمَتِهِ وَرَدْعِهِ ^(٤) ، رُومَانِيًّا فِي بُنْهِلِهِ وَعِزَّةِ نَفْسِهِ ،
 رُومَانِيًّا فِي مُلَازِمَةِ قَصْدِهِ ^(٥) ، رُومَانِيًّا فِي أَحْتِرَامِهِ لِلْقَانُونِ ،
 رُومَانِيًّا فِي بَذْلِهِ النَّفْسَ فِي سَبِيلِ أُمَّتِهِ وَوَمَانِهِ .



(١) أُسْرَتُهُ : أَهْلُهُ . (٢) مُسْتَوِيًا : مُسْتَقْرَأً . (٣) صَهْوَةُ الْجَوَادِ : مَقْعَدُ الرَّكَّابِ
 مِنْهُ . (٤) رَدْعُهُ عَنِ الْأَمْرِ : كَلْفُهُ وَرَدْعُهُ . (٥) الْقَصْدُ : اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ .

قُسْطَنْطِينُ الْكَبِيرُ

كَانَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِ الْمُسْتَحَبِّ ، عِنْدَ قُدَمَاةِ الْمُؤَرِّخِينَ فِي
 أَنْكِلِيرَا ، أَنَّ قُسْطَنْطِينَ الْكَبِيرَ ، الَّذِي جَعَلَ النَّصْرَانِيَّةَ دِينَ
 أَوْرُبَّا ، كَانَ بَرِيطَانِيَّ الدِّمِ وَبَرِيطَانِيَّ الْمَوْلِدِ . غَيْرَ أَنَّ مُتَقَدِّمَهُمْ
 هَذَا لَا يَقُومُ إِلَّا عَلَى أَنَّ قُسْطَنْطِينُوسَ ، أَبَا قُسْطَنْطِينَ ، قَدْ
 تَسَلَّطَ عَلَى بَرِيطَانِيَا حِينَ مِنَ الدَّهْرِ بِمَعْرِزِلَةِ نَائِبِ إِمْبَرَاطُورٍ .
 وَمِنْهَاكَ مَا يُرْجَحُ ^(١) الظَّنَّ أَنَّ قُسْطَنْطِينَ وَلِدَ فِي نَيْسَ ،
 مِنْ أَعْمَالِ سِرِّيَا الْحَدِيثَةِ ، سَنَةَ ثَمَانِيٍّ وَثَمَانِينَ وَمِثْنَيْنِ ، وَأَنَّ
 أُمَّهُ ، الَّتِي تُعْرَفُ الْيَوْمَ بِاسْمِ الْقَدِيسَةِ هِيلَانَةَ ، هِيَ ابْنَةُ
 صَاحِبِ فُنْدُقٍ ^(٢) ، لَمْ يَكُنْ يُقِيمُ يُوْرُكَ ، مِنْ أَعْمَالِ أَنْكِلِيرَا ،
 كَمَا زَعَمُوا ، بَلْ بِدِيرِيَانُومَ ، مِنْ مَدُنِ آسِيَا الصُّغْرَى . وَأَزْتَقَى
 أَبُوهُ فِي مَنَاصِبِ الْجُنْدِيَّةِ ، إِلَى أَنْ غَدَا مِنْ كِبَارِ الْقَوَادِ .
 وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِثْنَيْنِ بُوئِيَ ^(٣) مَنَصِبَ قَيْصَرَ ،

(١) رَجَحَ الظَّنَّ : غَلَبَ . (٢) الْفُنْدُقُ : الْخَانُ . (٣) بُوَأَ الْمَنْصَبُ : ائْتَلَهَ فِيهِ .

وَأَمْرٌ^(١) عَلَى أُولَايَاتِ الْفَرَسِيَّةِ التَّابِعَةِ لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ .
وَلَمَّا كَانَ قُسْطَنْطِينُ لَا يَزَالُ حَدَّثًا^(٢) أُرْسِلَ إِلَى أَلْبَلَاطِ^(٣)
الشَّرْقِيِّ رَهِينَةً . وَرَافَقَ الْإِمْبَرَاطُورَ دِيُوقْلِسِيَانُوسَ إِلَى الشَّرْقِ
سَنَةً اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثَ مِثَّةٍ ، وَرَفِيَ إِلَى رُبْنَةِ حَاكِمِ عَسْكَرِيٍّ ،
وَعَدِمَ فِي الْجُنْدِيَّةِ تَحْتَ إِمْرَةٍ^(٤) غَالِرِيُوسَ ، عَلَى نَهْرِ الدَّانُوبِ .
وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثَ مِثَّةٍ تَنَزَّلَ الْإِمْبَرَاطُورَانِ
دِيُوقْلِسِيَانُوسُ وَمَكْسِمِيَانُوسُ عَنْ عَرْشَيْهِمَا ، وَغَدَا كُلُّهُ مِنْ
قُسْطَنْطِينُوسَ وَغَالِرِيُوسَ إِمْبَرَاطُورًا . فَطَلَبَ قُسْطَنْطِينُوسُ مِنْ
غَالِرِيُوسَ أَنْ يُعِيدَ إِلَيْهِ ابْنَهُ ، وَكَانَ قَدْ اسْتَبْقَاهُ فِي نِيكُومِيدِيَا
بِحُجَّةٍ مِنَ الْحُجَجِ . غَيْرَ أَنَّ قُسْطَنْطِينَ تَمَكَّنَ مِنَ الْهَرَبِ ،
وَأَجْتَازَ بِأُورُبَا ، وَأَذْرَكَ^(٥) أَبَاهُ فِي بُولُونِيَا ، وَهُوَ يُوْشِكُ أَنْ
يَعْبُرَ الْبَحْرَ إِلَى بَرِيطَانِيَا ، لِيَصُدَّ غَارَةُ اللَّيْكَتَيْنِ وَالسَّكُوتَيْنِ .
وَبَعْدَ أَنْ أَصَابَ قُسْطَنْطِينُوسُ نَصْرًا ، تُوُفِّيَ فِي يُونُوكَ ، سَنَةَ سِتِّ
وَثَلَاثَ مِثَّةٍ ، وَنَادَى الْجَيْشُ بِابْنِهِ إِمْبَرَاطُورًا .

(١) أمره : ولاء الامارة وحكمه . (٢) الحدث : الشاب . (٣) بلاط الملك : قصره ، ومجازاً جملة وزعمائه . (٤) الأمرة : الامارة . (٥) اذركه : خلفه .

وَيَبَادَرُ^(١) إِلَى الْأَذْهَانِ ، عِنْدَمَا نَقَرَأُ أَنْ الْجَيْشَ هُوَ
الَّذِي غَدَا يُنَادِي بِمَنْ أَحَبَّ لِمَبْرَاطُورًا ، أَنْ شَرَّاءَ عَظِيمًا طَرَأَ^(٢)
عَلَى الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ . وَفِي الْوَاقِعِ أَنْ هَذِهِ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْعَظِيمَةُ تَبَدَّلَتْ ، فَلَمْ تَبْقَ عَلَى حَالِهَا قَبْلًا . وَقَدْ
رَأَيْنَا أَنَّ مَرْقُسَ أَوْرِيُوسَ نَفْسَهُ ، وَهُوَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ ، عَجَزَ
عَنْ إِنْقَاضِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ مِنْ الْمَرْجِ^(٣) . وَجَاءَ بَعْدَ مَرْقُسَ
أَوْرِيُوسَ (الَّذِي مَلَكَ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَخَمْسِينَ وَمِثَّةٍ إِلَى سَنَةِ
خَمْسِينَ وَمِثَّةٍ) قَرْنُ ثَوْرَاتٍ وَفَتَنٍ^(٤) . فَإِنَّ الْجُيُوشَ الرُّومَانِيَّةَ
أَخَذَتْ تَسْتَعْصِي عَلَى الضَّبْطِ^(٥) ، لِأَنَّهَا كَانَتْ مُؤَلَّفَةً مِنْ
عُنَاصِرَ وَأَجْنَاسٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَكَانَتْ تُقِيمُ بِأَمَا كِنَ بِمِدَقِ
عَنْ رُومِيَّةَ ، مَرَكَزِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ . فَضَعُفَ أَمْرُ النِّظَامِ ، وَأَخَذَ
الْجُنُودُ الْجَفَاءُ يَقِلُّ خَوْفُهُمْ ، شَيْئًا فَشَيْئًا ، مِنْ سُلْطَةِ رُومِيَّةَ .
وَأَدَّى بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا يَنْتَخِبُونَ ثُمَّ أَقْسَمُوا بِالْإِبَاطِرَةِ .
وَلَمْ تَكُنْ فِي رُومِيَّةَ قَوَانِينُ تُقَرَّرُ كَيْفِيَّةَ اتِّخَابِ الْإِبَاطِرَةِ .

(١) تبادر : أسرع . (٢) طرأ : جاء فجأة . (٣) المرج : الفتنة والاختلاط .

(٤) الفتنة : اختلاف الناس وما يقع بينهم من القتال . (٥) استعصى على الضبط : اشتد

فصر ضبطه .

وَفِي سَنَةِ اُنْتَتِي عَشْرَةَ وَمِثْنَيْنِ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ، مُنِحَتْ
حُقُوقُ الرَّعَوِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ لِكُلِّ رَجُلٍ حُرٍّ مُقِيمٍ صِنْفِ نَحُومِ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ ، فَشَمَرَتِ الْوِلَايَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ أَنَّ لَهَا مَا لِإِيطَالِيَا
مِنْ الْحَقِّ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا .

وَأَدَّى ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَى اضْطِرَابٍ وَخَلَلٍ عَظِيمَيْنِ . وَفِي حِقْبَةٍ ^(١)
لَا تَرِيدُ عَلَى تِسْمِينِ سَنَةِ اخْتِيرَ مَا لَا يَقِلُّ عَنِ الثَّمَانِينَ مِنَ الْأَبَاطِرَةِ
مِنْ طَبَقَةِ الْجُنُودِ الْفِلَاطِ الْجُفَاءِ . فَكَانَ لِذَلِكَ قَرْنٌ نَشِبَتْ فِيهِ
الثَّوَرَاتُ ، مِنْ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَمِئَةٍ إِلَى سَنَةِ ثَمَانِينَ وَمِثْنَيْنِ ،
هَذَا تَنْقُصُ ^(٢) صَرَحُ ^(٣) الْمَدَنِيَّةِ ، وَأَنْقَضَى مَا لَا يَقِلُّ عَنْ خَمْسِينَ
سَنَةً اُنْتَهَى فِيهَا النِّظَامُ الْعَامُّ ، إِذْ كَانَتْ الْجُيُوشُ الَّتِي أَنْصَرَفَتْ
إِلَى النَّهْبِ وَالسَّلْبِ ، تَنْقُلُ صَوَاجِنَ رُومِيَّةٍ مِنْ يَدِ إِمْبَرَاطُورٍ
جُنْدِيٍّ إِلَى آخَرَ . وَعَادَ النَّاسُ فِي كُلِّ جِهَةٍ لَا يَأْمَنُونَ عَلَى
أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَعَمَّ النَّهْبُ وَالْقَتْلُ كُلَّ مَكَانٍ ، وَتَعَطَّلَتْ
الْأَعْمَالُ مُجْمَعَةً ، وَجَلَّ الْخَرَابُ بِالْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ ،
وَأَنْقَدَ ^(٤) الْجَيْشُ الرُّومَانِيُّ قِوَاهُ فِي أَلْفَتَيْنِ .

(١) الحِقْبَةُ : الدَّعَةُ مِنَ الْوَقْتِ . (٢) اِنْتَقَضَ الْبِنَاءُ : اِنْجَلَّ . (٣) الصَّرَحُ : الْبِنَاءُ
الْعَامِلِي . (٤) اِنْقَدَّ قِوَاهُ : اِنْفَتَحَتْ .

وَبَادَرَ أَلْبَرَابِرَةُ الشَّامِلِيُونَ ، وَهُمْ أَلْقَبَائِلُ الْجِرْمَانِيَّةِ ، إِلَى
الْأَسْتِيفَادَةِ مِنْ هَذَا الضَّعْفِ ، الَّذِي نَزَلَ بِالْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ ،
فَعَبَرُوا الْحُدُودَ حَيْثُمَا شَاءُوا ، وَلَمْ يُلْفُوا ^(١) أَمَامَهُمْ صَادًا ^(٢) ،
وَأَوْغَلُوا ^(٣) حَتَّى بِلَادِ الْيُونَانِ وَإِيطَالِيَا . وَتَدَقَّقُوا غَرْبًا عَلَى
بِلَادِ الْغَالِ وَإِسْبَانِيَا ، وَوَصَلَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَفْرِيْقِيَّةِ نَفْسِهَا .
وَزَدَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ دَوْلَةً جَدِيدَةً ، قَامَتْ فِي الشَّرْقِ تُنْذِرُ ^(٤)
بِالْخَطَرِ . فَإِنَّ أَلْبَرَتِيَّيْنَ ، الَّذِينَ كَانُوا مُتَسَلِّطِينَ فِيمَا بَيْنَ
النَّهْرَيْنِ ، تَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمْ ، سَنَةً سِتٍّ وَعِشْرِينَ وَمِئَتَيْنِ ، دَوْلَةُ
فَارِسِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ، أَقَامَهَا قَوْمٌ ، يُقَالُ لَهُمُ السَّاسَانِيُّونَ ، وَصَيَّرُوا
بِلَادَ فَارِسَ خَصْمًا خَطِيرًا لِرُومِيَّةَ . وَكَانَتْ عَاصِمَتُهُمْ مَدِينَةُ
طَيْسِفُونَ ، عَلَى عَدْوَةٍ دِجَلَةٍ . فَأَضْطَرَّتْ رُومِيَّةٌ لِذَلِكَ أَنْ
تَصْرِفَ قُوَاهَا إِلَى الشَّرْقِ .

وَأَضْطَرَّتْ دِيُوقَلِسِيَانُوسُ (الَّذِي مَلَكَ مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ
وَعِشْرِينَ وَمِئَتَيْنِ إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِ مِئَةٍ) أَنْ يَشْتَبِكَ فِي

(١) لم يلفوا : لم يجدوا . (٢) الصاد : اللانح . (٣) اوغلوا : اجتهدوا . (٤) تنذر

بالخطر : تعلم .

حُرُوبٍ مُتَوَاصِلَةٍ مَعَ السَّاسَانِيِّينَ . وَلِذَلِكَ لَمْ يَقْضِ مُعْظَمُ
 مُلْكِهِ فِي رُومِيَّةَ ، بَلْ فِي آسِيَا الصُّغْرَى . وَلِكَيْ يُسْتَطَاعَ
 الإِشْرَافُ عَلَى شُؤُونِ رُومِيَّةَ وَالغَرْبِ ، عَيَّنَ دِيُوقْلِسِيَانُوسُ
 إِمْبَرَاطُورًا آخَرَ ، شَاطِرَهُ ^(١) السُّلْطَةَ . وَلَمْ يَكُنْ فِي نِيَّتِهِ أَنْ
 يَقْسِمَ الإِمْبَرَاطُورِيَّةَ إِلَى قِسْمَيْنِ ، غَيْرَ أَنْ قِسْمَي الإِمْبَرَاطُورِيَّةِ
 الرُّومَانِيَّةِ ، الْغَرْبِيَّ وَالشَّرْقِيَّ ، أَخَذَا مُذْ ذَاكَ يَنْفَصِلُ الْوَاحِدُ
 مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ . وَعَيَّنَ زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ نُوَابَ أَبَاطِرَةٍ . وَكَانَ
 الْأَبَاطِرَةُ يُحْمَلُونَ لَقَبَ أَغُسْطُسَ ، وَنُوَابُ الْأَبَاطِرَةِ لَقَبَ قَيْصَرَ .
 وَكَانَ قُسْطَنْطِينُوسُ أَغُسْطُسًا عِنْدَ وَفَاتِهِ ، وَبَنَاهُ عَلَى ذَلِكَ
 نَادَى الْجَيْشِ بِابْنِهِ ، قُسْطَنْطِينَ ، أَغُسْطُسًا أَوْ إِمْبَرَاطُورًا . غَيْرَ
 أَنْ قُسْطَنْطِينَ أَكْتَفَى بِلَقَبِ قَيْصَرَ ، وَغَدَا سَفِيرُوسُ أَغُسْطُسًا .
 وَنُودِيَ فِي رُومِيَّةَ بِمَكْسِنِسِيُوسَ ، ابْنِ الإِمْبَرَاطُورِ مَكْسِمِيَانُوسَ
 الْمُسْتَقِيلِ ^(٢) أَغُسْطُسًا ، وَنُودِيَ بَعْدَئِذٍ بِآخَرِينَ . وَ مَا هُوَ إِلَّا
 أَقْلِيلٌ ، حَتَّى كَانَ فِي الإِمْبَرَاطُورِيَّةِ سِتَّةُ أَبَاطِرَةٍ ، يَنْتَهَمُ قُسْطَنْطِينَ ،

(١) شاطره السلطة : فاعله إياها . (٢) استعمال من عمله : طلب أن

الَّذِي تَلَقَّبَ بِأَغُسْطُسَ . فَكَانَ لَا بُدَّ ، وَالْحَالَةَ هَذِهِ ، أَنْ
تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْمُتَنَافِسِينَ .

وَشُغِلَ قُسْطَنْطِينُ ، فِي بَادِي الْأَمْرِ ، بِمُدَافَعَةِ الْجَرْمَانِيِّينَ
عَنْ تَخْوِمِهِ ، فَلَمْ يَشْرَكَ فِي التَّرَاعِ^(١) الْقَائِمِ بَيْنَ سَائِرِ الطَّامِعِينَ
فِي الْعَرْشِ . وَلَكِنْ لَمَّا تَوَفَّى غَالِيرِيُوسُ ، سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ
وِثْلَاثِ مِثَّةَ ، وَلَمَّا حَطَّمْ مَكْسِنْسِيُوسُ تَمَائِيلَ قُسْطَنْطِينُ ،
مُعَلِّناً أَنَّهُ طَاقِيَّةٌ^(٢) ، رَأَى قُسْطَنْطِينُ أَنَّ الْحَرْبَ لَا مَنَاصَ مِنْهَا^(٣) .
وَكَانَ جَيْشُهُ دُونَ^(٤) جَيْشِ مَكْسِنْسِيُوسَ فِي الْعَدَدِ كَثِيراً ، فَلَمْ
يَتَرَدَّدْ ، مَعَ ذَلِكَ ، فِي الزَّخْفِ إِلَى إِيطَالِيَا ، وَالسَّيْرِ لِمُهَاجَةِ
رُومِيَّةَ .

فِي ذَلِكَ الْأَوَانِ ، وَقَعَ حَادِثٌ غَرِيبٌ جِدًّا . فَقَبِلَ كَانُ
قُسْطَنْطِينُ زَاحِفًا إِلَى رُومِيَّةَ ، سَنَةَ ائْتِنْتِي عَشْرَةَ وَثْلَاثِ مِثَّةَ ،
عَلَى رَأْسِ الْكِتَابِ^(٥) الْبَرِيطَانِيَّةِ وَالْغَالِيَّةِ ، لِيُنَازِعَ^(٦)
مَكْسِنْسِيُوسَ إِمْبَرَاطُورِيَّةَ الْمَغْرِبِ ، رَأَى عَلَى مَا ذَكَرَهُ

(١) التَّرَاعُ : المَصُومَةُ . (٢) الطَاقِيَّةُ : الجَبَارُ وَالتَّكْبَرُ الْعَاقِبُ . (٣) لَا مَنَاصَ

مِنْهَا : لَا مَهْرَبَ . (٤) دُونَ : اِطْعَمَ . (٥) الْكِتَابُ جَمْعُ الْكِتَابَةِ : الْقِطْعَةُ مِنَ

الْجَيْشِ . (٦) نَازَعَهُ الْهَيْمَةَ : جَاذَبَهُ إِيَّاهُ .

الْمُؤَرَّخُونَ، صَليًا فِي السَّمَاءِ، وَكِتَابَةً، هَذَا مُؤَدَّاهَا: «بِهَذِهِ
الْعَلَامَةِ تَنْتَصِرُ». وَفِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّهُ أُلْقِيَ إِلَيْهِ ^(١) فِي الْحُلْمِ أَنْ
يَتَّخِذَ النَّصْرَانِيَّةَ دِينًا. وَمَهْمَا يَكُنِ الْبَاعِثُ ^(٢) الْمُبَاشِرُ ^(٣)، فَإِنَّهُ
رَفَعَ الصَّلِيبَ عَلَى أَعْلَامِهِ ^(٤)، وَهَزَمَ مَكْنَسِيُوسَ، فِي الْمَعْرَكَةِ
الَّتِي دَارَتْ رَحَاهَا ^(٥) عِنْدَ جِسْرِ مِلْفِيَانِ عَلَى نَهْرِ التَّيْبَرِ، وَدَخَلَ
رُومِيَّةَ ظَافِرًا. وَلَمْ يَقَعْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ حَدِثٌ فَاصِلٌ
لِنَظِيرِ هَذَا.

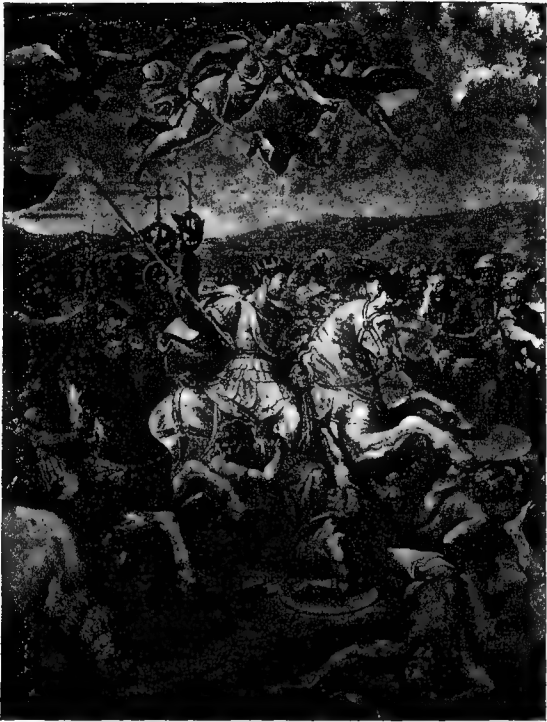
لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَمْرٌ مَا قَدْ حَمَلَ قُسْطَنْطِينَ عَلَى أَنْ يَخْتَارَ
شِعَارَ ^(٦) الْمَسِيحِيِّينَ قَبْلَ خَوْضِ الْمَعْرَكَةِ. وَقَدْ أُلِفَ عَظْمَاءُ
الرُّجَالِ قَدِيمًا أَنْ يَسْتَرَشِدُوا ^(٧)، وَيَسْتَفْتِحُوا مَغَالِقَ ^(٨) الْمُسْتَقْبَلِ
بِأَنْدِلَاقِ ^(٩) أَمْعَاءِ ^(١٠) حَيَوَانٍ، أَوْ بِطَيْرَانٍ طَائِرٍ. وَقَدْ أُسْتَعَانَ
مَكْنَسِيُوسُ بِإِلَهَةِ الرُّومَانِيِّينَ الْقَدِيمَةِ فَأَنْكَسَرَ، وَحَارَبَ
قُسْطَنْطِينَ تَحْتَ رَايَةِ ^(١١) إِلَهِ النَّصَارَى فَأُتْنَصَرَ. وَكَانَتْ الْخُطَّةُ

(١) أُلْقِيَ إِلَيْهِ الْحَبْرُ: أَبْلَغَهُ آيَاهُ. (٢) الْبَاعِثُ: السَّبَبُ. (٣) الْمُبَاشِرُ: الْأَقْرَبُ.

(٤) الْأَعْلَامُ: أَلْرَايَاتُ. (٥) الرَّحَى: الطَّاحُونُ. (٦) الْفَارُ: الْعَلَامَةُ. (٧) اسْتَرْشَدَ: طَلَبَ

الْمُعَايَاةَ. (٨) مَغَالِقُ جَمْعِ مَغْلَقٍ: مَا يَخْلُقُ بِهِ الْبَابُ وَغَيْرُهُ. (٩) أَنْدِلَاقُ الْفَيْءِ: خَرَجَ مِنْ

مَكَانِهِ. (١٠) الْأَمْعَاءُ: مَصَارِينُ الْبَطْنِ. (١١) الرَّايَةُ: عِلْمُ الْجَيْشِ.



قسطنطين الكبير

الْمَثْلَى ^(١) لِئَلَّا هُوَ لَاءَ الرِّجَالِ أَنْ يَدِينُوا لِلَّهِ الْأَقْوَى وَيُؤْمِنُوا
لَهُ الْوَلَاءَ ^(٢).

وَقَدْ دَانَ قُسْطَنْطِينُ نَفْسَهُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ شُكْرًا لِلَّهِ
النَّصَارَى. وَسَارَ قَاصِدًا إِلَى مَدِينَةِ مِيلَانُو، فَالْتَقَى زَمِيلَهُ،
الْأَغُسْطُسُ لَيْسِنْيُوسَ، فَزَوَّجَهُ أُخْتَهُ قُسْطَنْسِيَا، وَأَصْدَرَا مَعَ
مَرْسُومٍ ^(٣) مِيلَانُو، سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ، وَأَبَاحَا ^(٤)
فِيهِ الدِّينَ الْمَسِيحِيَّ فِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ كُلِّهَا. وَبَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ
قُسْطَنْطِينُ سَائِرَ الطَّامِعِينَ فِي الْعَرْشِ، غَدَا إِمْبَرَاطُورَ الْمَغْرِبِ،
وَلَيْسِنْيُوسُ إِمْبَرَاطُورَ الْمَشْرِقِ. وَلَمْ يُتَخَ لِلْإِمْبَرَاطُورَيْنِ، مَعَ
ذَلِكَ، أَنْ يَمِيشَا فِي سَلَامٍ. فَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ،
نَشَبَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ تَعَاقَدَا ^(٥) عَلَى صُلْحٍ أَسْتَمَرَ ^(٦) تِسْعَ
سَنَوَاتٍ. وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ أَثَارَ لَيْسِنْيُوسُ
أَضْطِهَادًا عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ، كَانَ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِ. وَغَدَا قُسْطَنْطِينُ،
سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ، الْإِمْبَرَاطُورَ الْوَحِيدَ فِي الْمَشْرِقِ

(١) الحِطَّةُ الْمَثْلَى : الطَّرِيقَةُ الْقَضَائِيَّةُ . (٢) الْوَلَاءُ : الصَّدَاقَةُ وَالْمُنَاصَرَةُ . (٣) لِلرَّسُومِ :

الْأَمْرُ الَّذِي يُصْدَرُهُ الْوَلَاءُ وَالْمُلُوكُ (٤) أَبَاحَ : أَجَازَ . (٥) تَعَاقَدَا : تَعَاهَدَا وَاتَّفَقَا (٦) اسْتَمَرَ :

والمغرب، فعادَ شكلُ الحكمِ القديمِ إلى الإمبراطوريةِ،
مرةً أخرى.

وفي سنةٍ سِتٍّ وَعَشْرِينَ وَثَلَاثَ مِئَةٍ، فيما كانَ قُسْطَنْطِينُ
يُحْتَفِلُ في روميةَ بِانْقِضَاءِ عِشْرِينَ سَنَةً عَلَى مُلْكِهِ، وَقَعَ حَادِثٌ
رَهِيبٌ. وَكَانَ قُسْطَنْطِينُ قَدْ تَزَوَّجَ مَرَّتَيْنِ، وَوُلِدَ لَهُ مِنْ
زَوْجَتِهِ الْأُولَى، مِزَفِينَا، وَلَدٌ دَعَاهُ كَرِئِسْبُوسَ، وَوُلِدَ لَهُ مِنْ
زَوْجَتِهِ الثَّانِيَةِ، فَوْسْتَا، ثَلَاثُ بَنَاتٍ وَثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ. فَاتَّهَمَتْ
كَرِئِسْبُوسُ زَوْجَتَهُ أَيُّهُ بِالْخِيَانَةِ، فَأَمَرَ قُسْطَنْطِينُ أَنْ يُخْرَجَ
ابْنُهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ وَيُقْتَلَ. غَيْرَ أَنَّ هِيلَانَةَ، أُمَّ قُسْطَنْطِينِ،
يَلَّتْ لِابْنِهَا بَرَاءَةَ كَرِئِسْبُوسَ، فَأَمَرَ أَنْ تُخْنَقَ زَوْجَتُهُ فِي الْحَمَّامِ.
وَيَعْسُرُ عَلَيْنَا، لَدَى سَمَاعِنَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِسْوَةِ، أَنْ نُصَدِّقَ أَنَّ
قُسْطَنْطِينِ كَانَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ حَلِيمًا ^(١) رَفِيقَ الْمَوَاطِفِ.
يَبْدُو أَنَّ لِلطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ التَّنَاقُضِ ^(٢) شَيْئًا عَجَبًا.

وَمِمَّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ مِنْ حَسَنَاتِ قُسْطَنْطِينِ أَنَّهُ كَانَ دَائِمًا
أَمِينًا مُخْلِصًا لِهِيلَانَةَ أُمِّهِ، خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ طَلَقَهَا أَبُوهُ، لَمَّا أَرَادَ

(١) الحليم : ذو الحلم والصبر . (٢) التناقض : التخالف .

أَنْ يَتَزَوَّجَ يودورا، إحدَى نِسَاءِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ . وَقَدْ أَسْتَدْعَى قُسْطَنْطِينُ أُمَّهُ إِلَى الْبِلَاطِ الْإِمْبِرَاطُورِيِّ ، بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ ، وَمَنْحَهَا لَقَبَ أَعْظَا ، وَأَمَرَ أَنْ تُكْرَمَ الْإِكْرَامَ الْأَلْتَنَ بِأُمِّ الْمَاهِل^(١) ، وَأَنْ تُضْرَبَ^(٢) نَقُودٌ ، عَلَيْهَا صُورُهَا . وَدَانَتْ هِيلَانَةُ بِالنَّصْرَانِيَّةِ بِتَأْثِيرِ وَلَدِهَا ، وَقَبْلَ أَنْهَا قَدِمَتْ لِرِيَاةِ الْأَمَاكِينِ الْمُقَدَّسَةِ فِي فِلِسْطِينَ . وَعُنِيَتْ بِاسْتِنْفَاضِ^(٣) فِلِسْطِينَ لِثُعَيْنِ . أَمَا كَانَتْ دِينَهَا الْمُقَدَّسَةَ ، وَأَبْتَنَتْ كَنِيسَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا فِي يَنْتَ لَحْمَ ، وَالْأُخْرَى عَلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ ، قَرِيبًا مِنْ أُورُشَلِيمَ .

وَفِي التَّارِيخِ أَيْضًا أَنَّهَا هِيَ الَّتِي كَشَفَتْ عَنِ الْخَشَبَةِ ، الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا السَّيِّدُ الْمَسِيحُ ، وَكَانَتْ مَحْبُوءَةً فِي مَغَارَةٍ ، عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ قَبْرِهِ . وَتُؤَفِّقُ فِي الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ نَحْوَ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِ مِئَةٍ ، فِي الثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهَا . وَكَانَ قُسْطَنْطِينُ حَاضِرًا عِنْدَ وَفَاتِهَا .

وَأَعْتَرَمَ قُسْطَنْطِينُ ، سَنَةَ سِتِّ وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِ مِئَةٍ ،

(١) الماهل . الملك : الأعظم (٢) ضرب النقود : سبكها وطبعها . (٣) استنفذ

الكلان نظر جميع ما فيه حتى يرقه .

أَنْ يَنْقُلَ مَرْكَزَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ مِنْ رُومِيَّةَ إِلَى الشَّرْقِ .
وَفَكَّرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي مَوْقِعِ مَدِينَةِ سَرْدَةِ ، أَوْ فِي مَوْقِعِ
مَدِينَةِ طُرُودَةِ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ أَخِيرًا مَوْقِعًا
لِلْعَاصِمَةِ الْجَدِيدَةِ . وَلَكِنِّي بِحَوْلِ^(١) قُسْطَنْطِينُ دُونَ اضْطِرَابَاتٍ
جَدِيدَةٍ فِي الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ ، وَلَكِنِّي يُزَايِلُ^(٢) عَادَاتِ رُومِيَّةَ
الْجُمْهُورِيَّةِ وَالْوَتَنِيَّةِ ، رَأَى مِنْ الْأَوْفَقِ أَنْ يَنْقُلَ عَاصِمَتَهُ إِلَى
الشَّرْقِ ، وَخَاصَّةً إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى بِزَنْطِيَّةَ
فِي الْأَصْلِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ الْمَرْكَزَ الْأَوْسَطَ لِمُتَمَلِّكَاتِهِ الْوَاسِعَةِ
الْمُتَرَاوِمَةِ الْأَطْرَافِ^(٣) . هُنَاكَ لَمْ يَكُنْ مَجْلِسُ شُيُوخٍ ، وَلَا
قَنَاصِلُ ، يَحْبِسُونَ^(٤) سُلْطَتَهُ الْمُطْلَقَةَ . وَبَذَلَ الْمُسْتَطَاعَ لِتَوْسِيعِ
نِطاقِ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَتَحْصِينِهَا وَتَجْمِيلِهَا .

وَعِنِّي قُسْطَنْطِينُ ، فِي السَّنَوَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْ مُلْكِهِ ،
يَرْفَعُ الْمُسْتَوَى الْأَدَبِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ وَالْاِقْتِسَادِيَّ فِي بِلَادِهِ ، وَأَنْتَمُّ
بِأَمْرِ إِدَارَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . فَوَلَّى ابْنِي أَخِي ،

(١) حال دون الشيء : حجزه وصدده . (٢) زاياله : فارقه . (٣) ترامت أطراف

للملكة : اتسعت أرجاؤها . (٤) حبس سلطته : ضبطها .

دِمَاسِيُوسَ وَهَنِيْبَالِيَانُوسَ ، بَعْضَ الْوَلِيَّاتِ ، وَعَيْنَ أَوْلَادِهِ
الْثَلَاثَةِ ، قُسْطَنْسِيُوسَ ، وَقُسْطَنْطِينُوسَ ، وَقُسْطَنْسَ ، لِيَتَوَلَّوْا
شُؤْنَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَقَبِيلَ وَفَاتِهِ ، اضْطَرَّتْهُ
الْأَعْمَالُ الْعِدَائِيَّةُ الَّتِي بَدَتْ مِنْ مَلِكِ الْفَرَسِ ، سَابُورَ ، أَنْ
يَنْزِلَ إِلَى مِيدَانِ الْقِتَالِ مَرَّةً أُخْرَى . وَفِيمَا كَانَ مُتَأَهِّبًا لِلزَّحْفِ
إِلَى الْعَدُوِّ أَصَابَتْهُ عِلَّةٌ ، مَاتَ بِهَا ، فِي شَهْرِ أَيَّارَ مِنْ سَنَةِ
سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَ مِثَّةٍ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ . وَدُفِنَ فِي
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ قُسْطَنْطِينَ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ ،
وَأَنَّمَا كَانَ عَظِيمًا بِالْعَمَلِ الَّذِي تَمَّ عَلَى يَدِهِ ، لَا بِشَخْصِيَّتِهِ . غَيْرَ
أَنَّ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ عَظَائِمَ كَثِيرَةً ، قَامَ بِهَا رِجَالٌ نَعُدُّهُمْ عُظَمَاءَ ،
وَيَكَادُ يَكُونُ مِنَ الْمَجْزُومِ فِيهِ ^(١) أَنَّهُمْ لَمْ تَكُنْ لِيَتِمَّ إِلَّا
عَلَى يَدِ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ .

وَلِمَاذَا دُعِيَ قُسْطَنْطِينُ كَبِيرًا ؟

إِنَّهُ دُعِيَ كَذَلِكَ أَوَّلًا ، لِأَنَّهُ مَنَحَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةَ الْعَظِيمَةَ

(١) المجزوم فيه : القَطْرُوعُ وَالسَّلْمُ .

الْحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ ، بِاسْتِبدَالِهِ الْوَسْئِلَةِ بِالَّذِينَ الْمَسِيحِيِّ . وَهَذَا
الَّذِينَ الْمَسِيحِيِّ قَدْ أَثَرَهُ هُوَ أَيْضًا ، لَمَّا حَانَ الْأَوَانُ ، فِي الْبَرَابَرَةِ ،
الَّذِينَ كَانُوا كَالنُّسُورِ يَرْقُبُونَ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةَ الْمُنَازَعَةَ ، وَأُسْتَبْقَى
لَنَا شَيْئًا مِنَ الْمَدِينَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْعَظِيمَةِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَنْشَأَ رُومِيَّةً جَدِيدَةً فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنْ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ ، وَقَدْ سَقَطَتْ رُومِيَّةُ نَفْسُهَا ، وَالْقِسْمُ الْغَرْبِيُّ مِنْ
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ ، سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعٍ مِثَّةً ، أَمَامَ تَدْفُقِ
الْبَرَابَرَةِ وَأَكْتِسَاحِهِمْ^(١) ، غَيْرَ أَنَّ الْقِسْمَ الشَّرْقِيَّ ، الَّذِي كَانَتْ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ حَاصِلَتَهُ ، ظَلَّ قَائِمًا أَلْفَ سَنَةٍ أُخْرَى ، حَتَّى سَنَةِ
ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعٍ مِثَّةً وَأَلْفٍ .

ثُمَّ إِنَّ رُوحًا جَدِيدَةً تَبَدَّتْ^(٢) فِي شَرَائِعِ الصَّادِرَةِ عَنْ
رَأْفَةِ^(٣) وَحَنَانٍ . فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ، فِي أَيَّامِ وَثْنِيَّتِهِ يُلْقَى
الْمُلُوكَ الْبَرَابَرَةَ طُعْمَةً لِلْوُحُوشِ ، حَظَرَ الْمَلَاكِمَ^(٤) فِي الْمَقَاوِمِ
وَالْمِيَادِينِ . وَلَمْ يَفْعَلْ أَحَدٌ قَدِيمًا أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَهُ لِإِصْلَاحِ حَالِ

(١) اكتساح البلاد : ذهب بما فيها . (٢) تبدت : ظهرت . (٣) الرأفة : أشفد

الرحمة . (٤) الملاكم جمع ملحمة : القتلة العظيمة ، وحظرها : منعا .

الْعَبِيدِ وَاللُّقْطَاءِ^(١). فَقَدْ أُصْدِرَ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِ مِثْقَةٍ مِنْ
الْأَحْكَامِ، لِإِصْلَاحِ الْهَيْئَةِ الْأَجْمَاعِيَّةِ، نَصٌّ فِيهَا عَلَى التَّرَفُّقِ^(٢)
بِالْأَسْرَى وَالْعَبِيدِ. وَفَرَضَ عُقُوبَاتٍ شَدِيدَةً عَلَى مَا يَمَسُّ الْأَخْلَاقَ.
وَمِنْ الْمُحَقِّقِ أَنَّ قُسْطَنْطِينَ كَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يُنْقِذَ أَكْثَرَ
إِمْبَرَاتُورِيَّاتِ الْعَالَمِ، يَدَّ أَنْهُ جَاءَ مُتَأَخِّرًا.

وَقَدْ أَرَاهُ. أَوْرُبَا، وَقِسْمًا عَظِيمًا مِنْ آسِيَا مِنْ الْأَضْطِهَادِ
الدِّينِيِّ، وَأَتَانَحَ^(٣) لِلإِمْبَرَاتُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ أَنْ تَبْقَى أَلْفَ سَنَةٍ
أُخْرَى عَلَى الْبُسْفُورِ، وَأَقَامَ الْمُجْتَمَعَ عَلَى أُسُسٍ جَدِيدَةٍ، بَعْدَ
أَنْ كَانَ قَائِمًا عَلَى أَعْمَالِ^(٤) الْعَبِيدِ. وَلِذَا اسْتَحَقَّ قُسْطَنْطِينُ
الْكَبِيرُ أَنْ يُعَدَّ فِي مَصَافِّ^(٥) عُظَمَاءِ التَّارِيخِ.



(١) اللقطاء جمع لقيط : الولود النبوذ . (٢) الترفق : المعاملة بلطف . (٣) أتانح =

هيا ويسر . (٤) الاعمال : العمل المجهد . (٥) المصاف جمع مصف : الصف .

عمر بن الخطاب

كَانَتْ بِلَادُ الْعَرَبِ ، الَّتِي فَاجَأَتْ الْعَالَمَ ، فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ ،
بِمَا صَرَفَ إِلَيْهَا الْعِنَايَةَ وَالْإِقْتِيَامَ ، تُعْرَفُ بِأَنَّهَا مَوْطِنُ الْمُنْصَرِّ
السَّامِيِّ . وَقَدْ جَاوَزَتْ أَمْصَاراً ^(١) ذَاتَ حَضَارَةٍ رَاقِيَةٍ ، مُدَّةً
تُرْبِي ^(٢) عَلَى أَلْفِي سَنَةٍ ، وَلَمْ يُكْتَرَثْ لَهَا ، مَعَ ذَلِكَ ، كَبِيرُ
أَكْثَرَاتٍ ، لِأَنَّ الصَّخْرَاءَ قَدْ فَصَلَتْهَا عَنِ الْحَضَارَةِ الْكَبِيرَةِ ،
بِوَعْنِ تِلْكَ الْمَجَارِي الْمُسْكِرِيَّةِ ، الَّتِي كَانَتْ لَا تَنْفُكُ غَادِيَةً
رَاحَةً ^(٣) بَيْنَ نَهْرِي النَّيْلِ وَالْفُرَاتِ . وَقَدْ مَّ الْإِسْكَندَرُ الْكَبِيرُ
أَنْ يَبْعَثَ سَرَايَا ^(٤) مِنْ جَيْشِهِ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، الَّتِي كَادَتْ أَنْ
تَسْكُونَ بِجَهَوْلَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَنِيَّةَ عَاجَلَتْهُ ، سَنَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ
وِثَلَاثَ مِئَةٍ ، قَبْلَ الْمَسِيحِ ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ . وَلَوْ أُتْبِحَ
لِلْإِسْكَندَرِ أَنْ يَضُمَّ بِلَادَ الْعَرَبِ إِلَى إِمْبَرَاطُورِيَّتِهِ ، لَعَرَفْنَا
أَكْثَرَ مِمَّا نَعْرِفُهُ عَنِ الْمَمَالِكِ الْأَرْبَعِ الْمُتَحَضَّرَةِ ^(٥) الَّتِي نَعْلَمُ أَنَّهَا

(١) الامصار : الأقطار - (٢) تربى : تربد . (٣) غادية راحة : منطلقة راجعة .

(٤) سرايا جمع سرية : قطع الجيش - (٥) المحصرة : المتمددة .

نَشَأَتْ هُنَاكَ وَأَزْدَهَرَتْ، قَبْلَ زَمَنِ الْإِسْكَندَرِ. وَهَذِهِ الْمَمَالِكُ
الْأَرْبَعُ هِيَ مَمْلَكَةُ مَعِينٍ، وَسَبَأُ، وَحَضْرَمَوْتُ، وَقَطْبَانَ.

وَلَمَّا أَغْظَمَ هَذِهِ الْمَمَالِكُ خَطَرًا الْمَمْلَكَةُ السَّبْيِيَّةُ، الَّتِي
زَارَتْ لِإِخْدَى مَلِكَاتِهَا سُلَيْمَانَ، نَحَوَ سَنَةِ تَحْسِينَ وَتِسْعِ مِئَةِ،
قَبْلَ الْمَسِيحِ، وَفِي نَحْوِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمِئَةِ، قَبْلَ الْمَسِيحِ،
أَنْتَقَلَ الْمَلِكُ مِنَ السَّبْيِيِّينَ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَقْصَى الْجَنُوبِ
الْفَرِيزِيِّينَ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ، يُقَالُ لَهُمُ الْحَمِيرِيُّونَ. وَقَدْ حَاوَلَ
الرُّومَانِيُّونَ وَتَقْتَدِ، بِقِيَادَةِ إِيْلْيُوسَ عُلُوسَ، قَائِدِ الْجُيُوشِ الرُّومَانِيَّةِ
فِي مِصْرَ، أَنْ يَنْزِلُوا بِبِلَادِ الْعَرَبِ، إِلَّا أَنَّ الْأَدِلَاءَ^(١) غَدَرُوا
بِالْجَيْشِ الرَّاحِفِ عَلَيْهَا، فَتَاهَ فِي رِمَالِ الصَّحْرَاءِ وَبَادَ أَكْثَرُهُ.

وَفِيمَا بَعْدُ، أَخَذَ الْأَخْبَاشُ، وَكَانُوا قَدْ رَحَلُوا قَدِيمًا مِنْ
بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى السَّاحِلِ الْمُحَازِي^(٢) مِنْ أَفْرِيقِيَّةَ، يَمُودُونَ
وَيَسْتَحْدِرُونَ إِلَى جَنُوبِي بِلَادِ الْعَرَبِ. وَأَخَذَ عَدَدُهُمْ يَزْدَادُ عَلَى
تَوَالِي الْأَيَّامِ، فَتَمَكَّنُوا فِي نَحْوِ سَنَةِ ثَلَاثِ مِئَةٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ،
أَنْ يَخْطَمُوا الْمُلُوكَ الْحَمِيرِيِّينَ، وَيُقِيمُوا مُلُوكًا مِنْ بَنِي جِلْدَتِهِمْ^(٣).

(١) أدلاء جمع دليل: مرشد. (٢) المحاذي: المقابل. (٣) من بني جلدتهم: من جنسهم.

وَلَمْ يَرْكَنْ الْحَمِيرِيُّونَ إِلَى الشُّكُونِ ، بَلْ ظَلَّ الْخِلَافُ
 قَائِمًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَحْبَاشِ إِلَى أَنْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يُقِيمُوا مَمْلَكَةً
 سَبْئِيَّةً ، اِتَّخَذَتْ الْيَهُودِيَّةَ دِينًا . وَمِنْ أَشْهَرِ مُلُوكِهَا رَجُلٌ ،
 يُقَالُ لَهُ ذُو نُوَّاسَ . وَغَدَا التَّرَاغُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ وَالْأَحْبَاشِ
 زُرْعًا بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَسِيحِيَّةِ . وَاشْتَدَّ الْأَضْطِهَادُ عَلَى الْمَسِيحِيِّينَ
 فَاسْتَنْجَدُوا بِالْبِيزَنْطِيِّينَ ، فَأَعَانُوا عَلَى كَسْرِ شَوْكَةِ ^(١) الْيَهُودِ
 وَثَلَّ ^(٢) مُلْكِهِمْ . وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةً خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسٍ مِثَّةٍ .
 وَفِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَخَمْسٍ مِثَّةٍ ، زَحَفَ أَبْرَهَةُ ، نَائِبُ مَلِكِ
 الْحَبَشَةِ ، إِلَى مَكَّةَ يَبْنِي الْأَسْتِبْلَاءَ عَلَيْهَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِطَائِلٍ ^(٣) .
 وَاسْتَمَانَ أَعْدَاءُ الْمَسِيحِيَّةِ ، بَعْدَ خَمْسِ سَنَاتٍ ، بِالْفُرْسِ ، فَأَخْرَجُوهُ
 الْأَحْبَاشَ مِنَ الْيَمَنِ وَجَعَلُوا عَلَيْهَا حَمَالًا مِنْ قِبَلِهِمْ .
 وَيَحْذَرُ بَنَا قَبْلِ الْإِتِّقَالِ إِلَى زَمَنِ مُحَمَّدٍ ، أَنْ نَذْكُرَ
 ثَلَاثَ مَمَالِكٍ هِيَ : الْحَبِيرَةُ ، وَغَسَّانُ ، وَكِنْدَةُ .

وَتَقَعُ مَمْلَكَةُ الْحَبِيرَةِ بَيْنَ نَهْرِ الْفُرَاتِ وَصُفْرَاءِ بِلَادِ الْعَرَبِ .
 وَكَانَتْ عَاصِمَتُهَا الْحَبِيرَةُ ، عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْ مَدِينَةِ الْكُوفَةِ .

(١) كسر شوكتة : اضعف قوته . (٢) ثل : هدم . (٣) لم يظفر بطائل : لم يغز بغير فائدة .

وَلَسْنَا نَعْرِفُ مِنْ تَارِيخِهَا الْقَدِيمِ إِلَّا الْقَلِيلَ . يَبْدُو أَنَّهُ ، فِي نَحْوِ
الْقَرْنِ الثَّالِثِ ، قَامَتْ فِيهَا دَوْلَةُ اللّخَمِيِّينَ ، وَقَدْ كَثُرَ وُرُودُ
ذِكْرِهِمْ فِي تَارِيخِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ ، وَدَامَتْ حَتَّى سَنَةِ اثْنَتَيْنِ
وَسِتِّ مِئَةٍ . وَلَمْ تَكُنِ الْحِيرَةُ مُسْتَقِلَّةً فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ ،
يَكُنْ كَانَتْ خَاصِمَةً لِلْفُرْسِ عَلَى الدَّوَامِ .

وَفِي مُسْتَهَلِّ^(١) الْقَرْنِ السَّادِسِ ، دَخَلَتْ دَوْلَةُ جَدِيدَةٌ ،
عُرِفَتْ بِدَوْلَةِ الْجَفْنِيِّينَ ، فِي تَارِيخِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّتَيْنِ الْبِيزَنْطِيَّةِ
وَالْفَارِسِيَّةِ . وَقَدْ تَسَلَّطَ هَؤُلَاءِ الْجَفْنِيُّونَ عَلَى قَبِيلَةِ غَسَّانَ ،
وَكَانَتْ قَدْ جَاءَتْ مِنَ الْجَنُوبِ ، وَأَنْشَأَتْ مَمْلَكَةً إِلَى الْجَنُوبِ
مِنْ أَلْبَتَرَاءِ . وَفِي سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسٍ مِئَةٍ ، أَدْرَكَ
الْإِمْبَرَاطُورُ يُسْتِنْيَانُوسُ ، أَنَّهُ يُحْسِنُ حَمَلًا بِاتِّخَاذِ الْغَسَّانِيِّينَ
دَرِئَةً^(٢) لِلْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْبِيزَنْطِيَّةِ ، فَأَقْرَبَ مِنْهُمْ الْحَارِثَ مَلِكًا
عَلَى الْعَرَبِ . فَظَلَّ هَذَا الْمَلِكُ بِسَبَبِ ذَلِكَ مُشْتَبِكًا فِي حُرُوبِ
مُتَوَاصِلَةٍ مَعَ الْحِيرَةِ وَالْفُرْسِ . وَبَعْدَ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسٍ مِئَةٍ
تَدَاعَى^(٣) مُلْكُ الْغَسَّانِيِّينَ ، وَمَالَيْتُ أَنْ زَالَ عِنْدَ نَجْيِ الْأَسْلَامِ .

(١) مُسْتَهَلُّ السَّنَةِ : أَوَّلُهَا . (٢) الدَّرِئَةُ : السَّيْرُ . (٣) تَدَاعَى : تَصَدَّعَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْقُطَ .

وَفِي نَحْوِ سَنَةِ تِسْعِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ، قَامَتْ
فِي وَسْطِ بِلَادِ الْعَرَبِ مَمْلَكَةٌ جَدِيدَةٌ ، قَوْمُهَا ^(١) قَبِيلَةُ كِنْدَةَ .
وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْقَبِيلَةُ مِنَ الْجَنُوبِ أَيْضًا . وَيُظْهَرُ أَنَّهَا ظَلَّتْ عَلَى
الدَّوَامِ خَاضِعَةً لِلْيَمَنِ . وَكَانَ أَمْرُ الْقَيْسِ ، نَابِغَةُ ^(٢) شُعْرَاءِ
الْجَاهِلِيَّةِ ، مِنْ أَلَيْتِ الْمَالِكِ فِي كِنْدَةَ .

فَيَسْتَدَلُّ بِمَا تَقَدَّمَ أَنَّ بِلَادَ الْعَرَبِ ، فِي زَمَنِ صَاحِبِ
الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، كَانَتْ آهَلَةً ^(٣) بِقَبَائِلَ مُتَخَلِّفَةٍ ، بَعْضُهَا عَلَى
اتِّصَالٍ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ بِمَالِكِ كِنْدَةَ ، وَالْحَبِيرَةِ ، وَغَسَّانَ ، الَّتِي
كَانَتْ هِيَ أَيْضًا خَاضِعَةً لِلْحَبَشِ وَالْفُرْسِ وَالْبِزَنْطِيِّينَ ، وَبَعْضُهَا
جَمَاعَاتٌ أَقْلُ عَدَدًا ، كَانَتْ تَتَوَلَّى أَمْرَهَا أَعْضَاءُ عَشَائِرِهَا الْكُبْرَى ،
كَمَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْحِجَازِ . وَفِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ ، كَانَ ، فِي أَنْحَاءِ
مُتَخَلِّفَةٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ ، جَمَاعَاتٌ مِنَ الْبَدْوِ يَمِيشُونَ عَيْشَ الْقَبَائِلِ
الرَّحَالَةِ ، وَيَحْتَمُونَ أحيانًا ، عَلَى مَا يُوَافِقُهُمْ ، بِالْوَحِيدَةِ أَوْ بِالْأُخْرَى
مِنَ الْمَمَالِكِ الْكَبِيرَةِ . وَيَنْصَافُ إِلَى هَؤُلَاءِ عَدَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ
وَالْعَشَائِرِ الْيَهُودِيَّةِ ، قَامَ بَعْضُهَا بِجَمَاعَاتٍ نَزَحَتْ ^(٤) مِنْ فِلِسْطِينَ ،

(١) قوام الأمر: عماده (٧) النابغة: العظيم الشأن. (٢) آهلة: ممتورة. (٣) نزحت: اجسدت

وَبَعْضُهَا بِجَمَاعَاتٍ دَانَتْ^(١) بِالْيَهُودِيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ -
 وَقَدْ اسْتَعَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الْإِسْلَامِ ، بِالَّذِينَ وَالْقَوْمِيَّةِ فِي آنٍ
 وَاحِدٍ ، أَوْ لِنَهْ ، بِالْأُخْرَى ، أَوْجَدَ شُعُورًا بِكِلَيْهِمَا . وَقَدْ رَأَى
 أَنَّ بِلَادَ الْعَرَبِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ لِلْعَرَبِ . وَأَرَادَ بِهَذَا أَنَّ
 مَا كَانَ لِلْأَجَاشِ وَالْقُرْسِ وَالْبِزَنْطِيِّينَ مِنَ النُّفُوزِ ، فِي بِلَادِ
 الْعَرَبِ ، يَجِبُ أَنْ يَقْطَعَ^(٢) ، إِذَا لَمْ تَرْتَضِ هَذِهِ الْأُمَمُ نَفْسُهَا
 الْإِسْلَامَ دِينًا . وَقَدْ أَخْضَعَ مُحَمَّدٌ بِلَادَ الْعَرَبِ نَفْسَهَا ، وَلَمْ شَعْنَهَا^(٣)
 وَوَحْدَهَا ، وَقَامَ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ بِالْجِهَادِ^(٤) وَالْفَتْحِ ، فِيمَا
 وَرَاءَ حُدُودِ الصَّحْرَاءِ .

وَمَا يَحْدُرُ ذِكْرُهُ أَنَّ بِلَادَ الْعَرَبِ كَانَتْ وَقْتِيذَ آهْلَةٍ بِشَعْبَيْنِ
 عَظِيمَيْنِ ، هُمَا عَرَبُ الْجَنُوبِ وَعَرَبُ الشَّامِ . وَهَذَا الْإِتْقِسَامُ
 يَطُولُ شَرْحُهُ ، وَلَكِنَّا نَذْكُرُ أَنَّ لُغَةَ عَرَبِ الشَّامِ ، وَهِيَ الْلُغَةُ
 الْعَرَبِيَّةُ الْفُصْحَى ، مَا لَبِثَتْ أَنْ أَصْبَحَتْ لُغَةً مُعْظَمَ الْبِلَادِ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْعَرَبَ ، فِيمَا عَدَا حَوَاشِي^(٥) الصَّحْرَاءِ ، لَمْ يَقُمْ
 مِنْهُمْ ، فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مُلُوكٌ بَلَّ زُحْمَاءُ ، وَلَمْ تَنْشَأْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ ، بَلَّ

(١) دانت باليهودية : اتخنتها ديناً . (٢) يجمع : يصرف ويزال . (٣) لم شعننا :

جمع امرها . (٤) الجهاد : القتال في سبيل الدين . (٥) حواشي : اطراف .

قَبَائِلُ. وَكَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، لَا يَرَالُونَ عَلَى حَالٍ وَسَطٍ بَيْنَ
الْهَمْجِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ ، ذَلِكَ عَلَيْهَا تَدْرِجُهُمْ فِي أَسْنِمَالِ رُسُومٍ
لِكِتَابَةِ لُغَتِهِمْ ، فِيهَا مَا فِيهَا مِنَ النِّقْصِ . غَيْرَ أَنَّ اخْتِكَاكَهُمْ
بِالْبِزْنِطِيِّينَ وَالْفُرْسِ أَدَّى بِهِمْ تَدْرِجًا إِلَى حَالٍ مِنَ الْحَضَارَةِ
أَرْقَى . وَقَدْ أَمَاتَتْ عَلَى ذَلِكَ الْقَوَائِلُ بِمَا اقْتَبَسَتْهُ فِي طَرِيقِهَا .

وَقَدْ أَتَجَمَعَ ^(١) جَانِبٌ كَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ عَلَى أَشْهُرِ
حُرْمٍ ^(٢) تَكُونُ فِيهَا مُهَادَنَةٌ ^(٣) هَامَّةٌ ، يُجَرَّمُ فِيهَا الْقِتَالُ . وَكَانُوا
يُقِيمُونَ أَسْوَاقًا ، تَأْتِيهَا الْقَبَائِلُ لِلْمُتَاجَرَةِ ، وَمُنَاشَدَةِ الْأَشْعَارِ ،
وَالِاشْتِرَاكِ فِي بَعْضِ الْحَفَلَاتِ الدِّينِيَّةِ . وَكَانَ أَعْظَمَ هَذِهِ
الْأَسْوَاقِ خَطَرًا سَوْقٌ ، تُقَامُ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنْ مَكَّةَ ، حَيْثُ
الْكَعْبَةُ الْمُشْرِفَةُ ، وَهِيَ هَيْكَلٌ صَغِيرٌ ، فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ ،
الَّذِي يَسْتَلِمُهُ ^(٤) الْحُجَّاجُ تَبَرُّكًا .

وَكَانَتِ السِّيَادَةُ فِي مَكَّةَ لِقُرَيْشٍ ، أَوْسَعِ التَّشَائِرِ حَضَارَةً .
وَكَانُوا سَدَنَةً ^(٥) الْكَعْبَةِ ، وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ، وَبِئْسَ زَمْرَمٌ ،

(١) أَجْمَعُوا عَلَى الْأَمْرِ : اتَّفَقُوا . (٢) حَرَمٌ جَمْعُ حَرَامٍ : الْحَرَمُ (٣) الْمُهَادَنَةُ : الْمَصَالِحَةُ .

(٤) يَسْتَلِمُهُ : يَتَنَاوَلُهُ وَيَمْسُهُ . (٥) سَدَنَةٌ جَمْعُ سَادَنٍ : خَادِمٌ وَحَاجِبٌ .

وَالْأَصْنَامِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَلْيَتِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ ، وَعَدَدُهَا سِتُونَ
وَتَلَاثُ مِئَةِ صَنَمٍ . فَكَانُوا ، وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، ثُمَّ الْمُشْرِفِينَ ^(١) عَلَى
أَقْدَسِ مَقَادِسِ ^(٢) بِلَادِ الْعَرَبِ . وَكَانَ أَزْدِحَامُ الْحُجَّاجِ فِي كُلِّ
سَنَةٍ ، يَأْتِيهِمْ بِرَبِيعٍ لَا يُسْتَهَانُ بِهِ ^(٣) ، وَكَذَلِكَ قَوَا فِلْهُمْ التَّجَارِيَةُ ،
الَّتِي كَانَتْ لَا تَنفَكُ مُتَرَدِّدَةً ^(٤) بَيْنَ بُصْرَى وَدِمَشْقَ ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ
الْمُدُنِ عَلَى حَاشِيَةِ الْوَلَايَاتِ الْبِيزَنْطِيَّةِ . وَعَلَى هَذَا ، كَانَتْ مَكَّةُ
أَرْزَقِي مُدُنَ الْجَزِيرَةِ حَضَارَةً .

وَالْأَرْجَحُ أَنْ دِينَ الْعَرَبِ ، فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ ، كَانَ دِينًا
مَادِّيًّا سَادِجًا ، وَكَانَ هُوَ الدِّينَ ، الَّذِي أَقَامُوا عَلَيْهِ الْوَفَا مِنْ
السَّنِينَ . غَيْرَ أَنَّهُمْ ، إِلَى جَانِبِ هَذَا الدِّينِ ، الَّذِي لَمْ يَتَأَصَّلْ
فِيهِمْ إِلَى مَدَى بَعِيدٍ ، كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى ، إِلَهَ الْإِسْمَاعِيلِ
وَالْإِسْرَافِيلِ . وَقَدْ زَادَ إِعْمَانُهُمْ بِاللَّهِ مُتَعَالً تَأْثِيرُ الْقَبَائِلِ الْيَهُودِيَّةِ
وَالْمَسِيحِيَّةِ الْمُنْبَتَّةِ ^(٥) فِي أُنْحَاءِ بِلَادِهِمْ ، وَخَاصَّةً عَلَى السَّاحِلِ الْغَرْبِيِّ .
وَكَانَ الْبِيزَنْطِيُّونَ وَالْفَرُسُ ، قَبْلَ مُحَمَّدٍ قُرُونًا ، قَدْ خَبَرُوا ^(٦)

(١) أشرف على العمى : اطلع عليه من فوق ، وهنا بمعنا حافظ عليه . (٢) المقدس :

الاماكن القدسة . (٣) لا يستهان به : لا يحقر . (٤) مترددة : ذاهبة راجعة .

(٥) المنبتة : النعمرة . (٦) خبروا : علموا عن تجربة .

مَالِ الْعَرَبِ مِنَ الشَّدَّةِ وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ فِي الْقِتَالِ . وَمَا يَسْتَطِيعُهُ
فُرْسَانُ الْبَدْوِ ، مَتَى تَيَسَّرَ لَهُمْ زَعِيمٌ يَجْمَعُ كَلِمَتَهُمْ ، وَمَكَانٌ
يَتَأَلَّبُونَ ^(١) فِيهِ ، وَقَضِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ يَنُودُونَ ^(٢) عَنْهَا ، قَدْ اُنْضَحَ
أَيَّامَ عَجْدٍ تَذْمُرُ وَأَزْدِهَا رَهَا ، عَلَى عَهْدِ أُذَيْنَةَ وَرَزَوِيَا . غَيْرَ أَنَّ
الْعَرَبَ كَانُوا فِي الْأَعْمِ مُنْقَسِمِينَ إِلَى قَبَائِلَ صَغِيرَةٍ لَا يُخْشَى خَطَرُهَا .
وَكَانَتْ الْحَرْبُ لَا تَنْفَكُ نَاشِئَةً بَيْنَ هِرَقْلَ مَلِكِ أَلْبِيزَنْطِيِّينَ ،
وَكِسْرَى مَلِكِ الْفُرْسِ ، فَأَضْمَفَ ذَلِكَ مِنْ قُوَّةِ إِمْبَرَاطُورِيَّتَيْهِمَا ،
وَفِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ ، كَانَتْ مَحَابَةِ ^(٣) مِنَ الْخَطَرِ ، بِقَدَرِ رَاحَةٍ ^(٤)
الْكَفِّ ، تَصْعَدُ فِي الْجَنُوبِ عَلَى مَهَلٍ .

وَقَدْ وُلِدَ مُحَمَّدٌ فِي مَكَّةَ ، بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ ، عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيُّ ،
وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ نَيْسَانَ ، سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ
وَحَمْسَ مِئَةٍ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ . وَأَخَذَ ، فِي نَحْوِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ
وَسِتْ مِئَةٍ ، يَعْظُمُ النَّاسَ بِمَكَّةَ ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ الْجَدِيدِ .
فَلَمْ تَرُقْ دَعْوَتُهُ أَهْلَ مَكَّةَ وَاسْتَحَفُّوا بِهِ أَوَّلَ الْأَمْرِ ،
وَأَذَوْهُ . فَاضْطُرَّ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَسِتْ مِئَةٍ ، وَهِيَ السَّنَةُ

(١) يَتَأَلَّبُونَ : يَجْمَعُونَ . (٢) يَنُودُونَ : يَدَاوُونَ . (٣) الرَاحَةُ : الْكَفِّ

الأولى للهجرة ، أنْ يُغَادِرَ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأُخْتَفِيَ بِهِ ^(١) أَهْلُهَا ، وَكَانُوا مِنْ أَنْصَارِهِ .

وَلَمْ تَلْبَثِ الْحَرْبُ أَنْ نَشِيتَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، وَكَانَ الْفَوْزُ لِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ . وَمَا جَاءَتْ سَنَةٌ ثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِثَّةٍ ، حَتَّى كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ قَضَى عَلَى ^(٢) كُلِّ مُقَاوَمَةٍ ، وَخَضَعَتْ لَهُ بِلَادُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا ، وَرَضِيَتْ الْإِسْلَامَ دِينًا . وَأَخَذَ بَعْدَ حِينٍ يَتَأَهَّبُ لِإِرْسَالِ الْجِيُوشِ لِحَارَبَةِ الْبِزْطَنِيِّينَ وَالْفُرْسِ ، فَخَالَتْ مَنِئَتُهُ ^(٣) دُونَ ذَلِكَ . وَتَوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِثَّةٍ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ، عَنْ عَمَلٍ نَاجِزٍ ^(٤) ، وَدَانَتْ بِلَادُ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ ، وَأَخَذَ أَهْلُ هَذَا الدِّينِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَنْشُرُوهُ مِنْ سَوَاحِلِ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ إِلَى جَزَائِرِ مَلَقَا .

وَعَلَى أَثَرِ وَفَاةِ مُحَمَّدٍ قَرَّ رَأْيُ الْعَرَبِ عَلَى اتِّخَابِ زَعِيمٍ لَهُمْ يَخْلُفُهُ ، فَوَقَعَ الْأَخْتِيَارُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَكَانَ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ ، وَذَلِكَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِثَّةٍ . وَقَامَ بَعْدَ وَفَاةِ مُحَمَّدٍ ،

(١) اخفى به : بالغ في أكرامه . (٢) قضى عليه : أهلكه . (٣) المنية : الموت .

(٤) الناجز : التام .

أَنْبِيَاءَهُ كَذَبَةً، وَأُرْتَدَّتْ قَبَائِلُ كَثِيرَةٌ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَعَظُمَتْ
الْفِتَنُ، غَيْرَ أَنَّ أَبَا بَكْرًا مَا لَبِثَ بِمُؤَاوَزَةِ ^(١) الْقَائِدِ الْبَاسِلِ
خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنْ أَعَادَ النُّظَامَ إِلَى نِصَابِهِ. وَكَانَتْ خِلَافَةُ أَبِي
بَكْرٍ دُونَ السَّنَتَيْنِ، أَقَامَ فِيهَا الْخِلَافَةَ عَلَى أَسَاسٍ وَطِيدٍ ^(٢)، وَبَعَثَ
الْجُيُوشَ لِفَتْحِ الْأَقْطَارِ الْمُجَاوِرَةِ، فَكَانَ النَّصْرُ حَلِيفَهَا. وَلَمَّا
أَحْسَنَ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، أَوْصَى بِالْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .
وَهَذِهِ صُورَةُ الْعَهْدِ الَّذِي اسْتَنْظَفَهُ ^(٣) بِهِ .

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . هَذَا عَهْدُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ قُحَافَةَ،
عِنْدَ آخِرِ عَهْدِهِ بِالْأَشْيَاءِ خَارِجًا مِنْهَا، وَأَوَّلِ عَهْدِهِ بِالْآخِرَةِ
دَاخِلًا فِيهَا . حَيْثُ يُؤْمِنُ الْكَافِرُ، وَيَشْقَى الْفَاجِرُ ^(١) وَيَصْدُقُ
الْكَاذِبُ، إِنِّي أَمَرْتُ ^(٢) عَلَيْكُمْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَإِنْ عَدَلَ
وَأَتَّقَى، فَذَلِكَ ظَنِّي بِهِ، وَرِجَائِي فِيهِ، وَإِلَّا بَدَلٌ وَغَيْرُ،
فَاخْذِرْ أَرَدْتُ، وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» .

فَلَمَّا آلَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى عُمَرَ، وَذَلِكَ سَنَةٌ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ

(١) الْمُؤَاوَزَةُ : الْمَعَاوَنَةُ . (٢) الْوَطِيدُ : الْقَوِيُّ . (٣) اسْتَنْظَفَهُ : جَعَلَهُ خَلِيفَةً

لَهُ . (٤) الْفَاجِرُ : الَّذِي يَرْكَبُ الْحَاصِي . (٥) أَمَرْتُهُ : جَعَلْتُهُ أَمِيرًا .

وَسِيتٌ مِثَّةٌ، دَعَاهُ النَّاسُ خَلِيفَةَ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ عَدَلُوا عَنْ هَذَا اللَّقَبِ لِطَوْلِهِ، وَأُسْتُبْدِلُوهُ بِلِقَبِ « أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » فَكَانَ هُوَ اللَّقَبَ الَّذِي لَزِمَهُ وَلَزِمَ خُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ. وَلَمَّا خَطَبَ النَّاسَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، صَعِدَ الْمَنْبَرُ، وَقَعَدَ عَلَى دَرَجَةٍ دُونَ مَقْعَدِ أَبِي بَكْرٍ قَبْلَهُ، وَقَالَ:

« أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ. فَإِنْ أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقُومُونِي ^(١). الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى آخِذَ لَهُ حَقُّهُ، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ. وَلَا تَأْمَثَلُ الْعَرَبُ مِثْلُ جَمَلٍ أَنْفٍ ^(٢) اتَّبَعَ قَائِدُهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ حَيْثُ يَقُودُهُ. وَأَمَّا أَنَا فَوَرَبُّ الْكَعْبَةِ لَا أَهْلَنَّاكُمْ ^(٣) عَلَى الطَّرِيقِ ». وَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ جُيُوشَ الْإِسْلَامِ أَزْدَادَتْ بِمُرَّةٍ قُوَّةً وَنَشَاطًا. وَكَانَتْ أَوَامِرُهُ إِلَى قَوَادِمِهِ تَدُلُّ عَلَى حُسْنِكَ ^(٤) وَخُبْرَةٍ وَاسِعَةٍ بِفُنُونِ الْحَرْبِ. وَتَدْفَقُ الْمَالُ الْوَفْرُ عَلَى يَدَيْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ،

(١) قوموني : ازيلوا اعوجاجي. (٢) أنف البعير : اشتكى أهله. (٣) جملة على الطريق : أكرمه على السير فيها (٤) الحنكة : الخبرة في الأمور.

وَجُعِلَ التَّصَرُّفُ فِيهِ لِعُمَرَاءَ ، وَظَلَّ عُمرُ . مَعَ ذَلِكَ ، يَعِيشُ .
عَيْشًا خَشِنًا قَانِعًا بِالْيَسِيرِ . وَكَانَ يَقْضِي الشُّطْرَ ^(١) مِنْ وَقْتِهِ
يَعْطُ النَّاسَ ، وَالشُّطْرَ الْآخَرَ يُقِيمُ الْعَدْلَ فِيهِمْ . وَكَانَ يَصْنَعُ
طَعَامَهُ مِنَ السُّوَيْقِ ^(٢) وَالْمَاءِ عَلَى دَرَجِ الْمَسْجِدِ ، وَيَدْعُو كُلَّ مَنْ
يَمُرُّ بِهِ لِشَاطِرِهِ ذَلِكَ الطَّعَامَ .

وَلَا غَرَوْ ^(٣) أَنْ كَانَ النَّصْرُ حَلِيفَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا
الرَّجُلُ قَائِدَهُمْ ، وَتِلْكَ الْجُيُوشُ جُيُوشَهُمْ ، وَأَعْدَاؤُهُمْ عَلَى أَسْوَأِ
حَالٍ مِنَ الضَّعْفِ وَالتَّضَعُّعِ ^(٤) . وَقَدْ سَمَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى
أَلْبِيزَنْطِيِّينَ وَالْفُرْسِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَظَلَّ الْفُوزُ فِي الْحَمَلَةِ
الْوَحِيدَةِ مُسَايِرًا ^(٥) لِلْفُوزِ فِي الْحَمَلَةِ الثَّانِيَةِ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ .
وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ ، عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ ، قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَى
مُعْظَمِ فَلِسْطِينِ ، غَيْرَ أَنْ مَدِينَتَيْ دِمَشْقَ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ ظَلَّتَا
فِي حَوْزَةِ ^(٦) جُيُوشِ الْإِمْبَرَاطُورِ أَلْبِيزَنْطِيِّ ، الَّذِي اضْطُرَّ ، لَمَّا
رَأَى الْخَطَرَ قَدْ اشْتَدَّ ، أَنْ يَنْزِلَ بِنَفْسِهِ إِلَى مِيدَانِ الْقِتَالِ . وَالْجِيءَ

(١) الشُّطْرُ : جزء الشيء ونصفه . (٢) السُّوَيْقُ : الناعم من دقيق الحنطة والشعير-

(٣) لَا غَرَوْ : لَا عَجَبَ . (٤) التَّضَعُّعُ : الضعف وسوء الحال . (٥) سَايَرَهُ : سَارَ

معه . (٦) الْحَوْزَةُ : الناحية .

المسلمون، بعد استيلائهم على دمشق ومعظم فلسطين وسوريا، أن يرتدوا أمام جوع الروم البيزنطيين، غير أن الفريقين اصطدما أخيراً عند نهر اليرموك، في شهر حزيران، سنة ست وثلاثين وميت مئة. وكان يقود المسلمين في هذه المعركة خالد بن الوليد (سيف الله المسلول) وأبو عبيدة بن الجراح. وكانت نساء العرب في المؤخرة يحفزن^(١) الرجال، ويستنقضن منهم الهيم. وكانت الغلبة^(٢) في هذه المعركة للمسلمين، فمادوا واستولوا سريعاً على دمشق وسائر سوريا.

وقد عزل خالد عن القيادة ووليها أبو عبيدة. ولم يعرف السبب الحقيقي الذي حمل عمر على عزل خالد، ولعل ذلك لأن خالدًا قد أثرى^(٣) بما أصاب في الفتوح. وأذعن خالد للأمر. ونزل عن القيادة، وقال: «ما أنا بالذي يعصى أمير المؤمنين، ولو أمرني أن أكون في طاعة غلام لفعلت». وعاد خالد بعد حين إلى المدينة، ومات فيها مُعديماً^(٤) منسياً، سنة اثنتين وأربعين وميت مئة.

(١) يحفزن: يدفن. (٢) الغلبة: النصر. (٣) أثرى: كثر ماله. (٤) المعديم: المنقر.

وَوَلَّى عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، بَعْدَئِذٍ قِيَادَةَ الْجَيْشِ الزَّاحِفِ عَلَى
فِلِسْطِينَ، وَتَوَجَّهَ إِلَى يَنْتِ الْمَقْدِسِ (أَوْرَشَلِيمَ) وَحَاصَرَهَا .
فَطَلَبَ الْبَطْرِيَرَكُ صُفْرُونِيوسُ الصَّلْحَ، مُشْتَرطاً أَنْ يَحْضُرَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ نَفْسُهُ لِيَتَوَلَّى^(١) عَقْدَ شُرُوطِ الصَّلْحِ وَالتَّسْلِيمِ .
فَرَضِيَ عُمَرُ ذَلِكَ، وَكَانَتْ تِلْكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ سَافَرَ فِيهَا أَحَدُ
الْخُلَفَاءِ إِلَى مَا وَرَاءَ حُدُودِ الْجَزِيرَةِ .

وَسَارَ عُمَرُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى يَنْتِ الْمَقْدِسِ، وَهُوَ عَلَى
بَعِيرٍ أَحْمَرَ، وَلَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْعَتَادِ^(٢) سِوَى غِرَارَتَيْنِ^(٣)، فِي
إِحْدَاهُمَا سَوِيْقٌ^(٤)، وَفِي الْأُخْرَى تَمْرٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ قِرْبَةٌ مَمْلُوءَةٌ مَاءً،
وَحُلْفَةٌ جَفْنَةٌ^(٥) لِلزَّادِ . وَقَدْ قَطَعَ فِي هَذَا الزَّمَانِ^(٦) الْمَسَافَةَ بَيْنَ
الْمَدِينَةِ وَيَنْتِ الْمَقْدِسِ، مُعَاقِباً أَهْلَ الشَّرِّ مُقِيماً الْعَدْلَ بَيْنَ النَّاسِ .
وَأَعَدَّ أَهْلُ يَنْتِ الْمَقْدِسِ قَصراً فَخْماً لِنِزْوَلِهِ، وَلَكِنَّهُ أَبَى
أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ، فَتُصِيبَتْ لَهُ خِيَمَةٌ خَارِجَ الْأَسْوَارِ . وَفِي
هَذِهِ الْخِيَمَةِ رَأَى وَفُودُ الْمَدِينَةِ وَلِيَّ أَمْرِهَا جَالِساً عَلَى الْعَرَاءِ^(٧) .

(١) تولى العمل : قام به . (٢) العتاد : ما أعد لأمر ما . (٣) غرارة : كيس
كبير من صوف أو شعر . (٤) الجفنة : الفصعة الكبير . (٥) الزي : الهيئة . (٦) الرءاء :
الأرض لا يستراها شيء .

وَقَطَعَ^(١) لَهُمْ عُمَرُ عَهْدًا، أَمَّنَهُمْ فِيهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَكَثَائِسِهِمْ، وَأَطْلَقَ لَهُمُ الْحُرِّيَّةَ الدِّيْنِيَّةَ، وَفَرَضَ عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةَ، وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ الْأَقَامَةِ وَالرَّحِيلِ مَعَ الرُّومِ الْبِزَنْطِيِّينَ، وَحَظَرَ^(٢) عَلَى الْيَهُودِ أَنْ يَسْكُنُوا مَعَهُمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ.

وَسَأَلَ عُمَرُ الْبَطْرِيْرَكَ صُفْرُونِيوسَ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مَكَانٍ لَائِقٍ لِيُبْقِمَ فِيهِ مَسْجِدًا، فَدَلَّهُ الْحَبْرُ عَلَى الْمَوْجِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ هَيْكَلُ سُلَيْمَانَ. وَكَانَ وَقْتُهُ تَعْلُوهُ الْأَقْدَارُ. وَفِيمَا بَعْدُ أَقِمَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَسْجِدًا يُعَدُّ مِنْ أَجْمَلِ مَا شَادَتْهُ^(٣) الْمُهَنْدِسَةُ الْعَرَبِيَّةُ. وَلَمْ يَكُنْ تَسْلِيمُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ هُوَ الْبَاعِثُ^(٤) الْوَاحِدَ عَلَى سَجْدَةِ عُمَرَ، فَقَدْ سَارَ أَوَّلًا إِلَى الْجَلْيَةِ، عَلَى حُدُودِ الشَّامِ، وَنَظَّمَ إِمَارَةَ الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ عَلَى أُسَاسٍ وَطِيدٍ، وَأَعَادَ النَّظَرَ فِي أَلْمُؤَدِّينَ الْمَقْطُوعَةِ، وَفَرَضَ الضَّرَائِبَ، وَعَيَّنَ الْعَلَائِقَ^(٥) بَيْنَ الْفَاتِحِينَ وَأَهْلِ الْبِلَادِ. وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ أَيَّامًا، نَظَّمَ فِيهَا أَمْرَ الْفَتْوحَاتِ السُّورِيَّةِ، عَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ أَشْفَقَ^(٦) أَهْلُهَا أَنْ يَكُونَ قَدْ

(١) قطع العهد : بته وأمضاه. (٢) حظر عليه الشيء : منعه. (٣) شاد البناء : رفعه.

(٤) الباعث : السبب. (٥) العلائق : الصلات. (٦) أشفق : خاف.

عمر بن الخطاب أمام بيت المقدس



أَسْتَهْوَاهُ^(١) جَمَالُ دِمَشْقَ وَقَدَاسَةُ يَتِّ الْمَقْدِسِ.

وَفِي السَّنَةِ الْخَامِسَةِ لِحِلَاقَةِ عُمَرَ أُصِيبَتِ الْبِلَادُ بِالْمَجَاعَةِ وَالطَّاعُونِ . وَقَدْ دُعِيَتْ تِلْكَ السَّنَةُ عَامَ الرَّمَادَةِ ، إِذْ أُجْدِبَ فِيهَا النَّاسُ ، وَجَاعُوا لِانْجِبَاسِ الْمَطَرِ فِي الْحِجَازِ . وَقَدْ أَقْسَمَ عُمَرُ أَنْ لَا يَذُوقَ مَمْنًا ، وَلَا لَبَنًا ، وَلَا لَحْمًا حَتَّى يَمُتَ^(٢) النَّاسُ . وَأَشْتَرَى غُلَامًا لَهُ عُكَّةٌ^(٣) تَمْنِي وَوَطْبًا^(٤) مِنْ لَبَنٍ بِأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ، فَتَصَدَّقَ بِهَا وَقَالَ :

«إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ آكُلَ إِسْرَافًا^(٥) وَكَيْفَ يَمْنِي^(٦) شَأْنُ الرَّعِيَّةِ ، إِذَا لَمْ يُصْنِي مَا أَصَابَهُمْ» .

وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى أُمِّهِ الْأَنْصَارِ يَسْتَفِيهِمْ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا . فَلَمْ يَلْبَثِ الْغَوْتُ^(٧) أَنْ جَاءَهُمْ ، وَأَسْتَغْنَى أَهْلُ الْحِجَازِ ، وَكَانَ مَنشَأُ الطَّاعُونِ فِي عَمَّوَسَ إِحْدَى قُرَى فِلِسْطِينَ ، وَدُعِيَ طَاعُونُ عَمَّوَسَ . وَأَشْتَدَّ هَذَا الْوَبَاءُ^(٨) أَشَدًّا فِي فِلِسْطِينَ ، وَسُورِيَّةَ ، وَبِلَادِ الْعَرَبِ ، فَأَفْنَى الْأُلُوفَ مِنَ النَّاسِ .

(١) استهواه : استله . (٢) يمنا : هنا بمعنى يغضب . (٣) العكة : زقيق اللسان .

(٤) الوطب : وءاء من جلد . (٥) الاسراف التبذير . (٦) عناء الأمر : شغله وأمه

(٧) الغوت : الموتة . (٨) الوباء : كل مرض عام .

وَكَانَتْ مِصْرُ لَا تَزَالُ فِي حَوْزَةِ أَلْبِزَنْطِيَّيْنِ ، وَكَانَ الْقِبْطُ ،
 سُكَّانُ وَادِي النَّيْلِ ، يَكْرَهُونَهُمْ كُلَّ الْكَرِّهِ . وَكَانَتْ الْحَالُ
 مُوَائِيَةً ^(١) ، إِلَّا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ تَرَدَّدَ فِي الْمُجَازَفَةِ ^(٢)
 بِجَيْشٍ يُرْسِلُهُ ، عَنْ طَرِيقِ سَيْنَاءَ ، إِلَى ذَلِكَ الْقَطْرِ ، عَلَى حِينِ
 كَانَ الْقِتَالُ عَلَى أَشَدِّهِ فِي بِلَادِ فَارِسَ . غَيْرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِ ،
 أَحَدَ عُظَمَاءِ الْقَوَادِ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، زَحَفَ آخِرًا عَلَى هَذَا
 الْقَطْرِ ، بِأَتْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسِتِّ
 مِئَةٍ . وَلَمْ تَنْقُصِ سَتَانِ ، حَتَّى سَقَطَتْ مِصْرُ كُلُّهَا فِي
 حَوْزَةِ الْعَرَبِ .

وَيَبْنَا كَانَتْ بِيْزَنْطِيَّةُ تُقَطِّعُ أَطْرَافَهَا ، كَانَتْ بِلَادُ فَارِسَ تَسِيرُ
 شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الدَّمَارِ . وَكَانَ الْعَرَبُ قَدْ أَغَارُوا عَلَى الْعِرَاقِ ، سَنَةَ
 اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ ، وَكَانَتْ مُدُنُ بَابِلَ وَسُومَرَ
 وَأَكَّدَ قَدْ عَفَّتْ آثَارُهَا ^(٣) وَقَامَ عَلَى أَنْقَاضِهَا مُدُنٌ جَدِيدَةٌ ، فِي
 أَرْضٍ خَصْبَةٍ ، زَادَتْ مُجَاهِدِي الْجَنُوبِ الْعِجَافِ ^(٤) إَغْرَاءَ بِهَا ^(٥)

(١) مُوَائِيَةٌ : مُوَاقِفَةٌ . (٢) الْمُجَازَفَةُ : الْخَاطِرَةُ (٣) عَفَا الْأَمْرُ : زَالَ وَاعْمَى .

(٤) عِجَافٌ جَمْعُ أَعْجَفَ : الضَّعِيفُ الْغَزِيلُ . (٥) الْإِغْرَاءُ : الْحُضْرُ .

وَكَسَرَ الْأَمِيرُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ الْفُرْسَ، سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ
وَسِتِّ مِئَةٍ، فِي وَقْعَةِ الْقَادِسيَّةِ، بَعْدَ ثَلَاثِ مَعَارِكٍ كَبِيرَةٍ.
وَأَنْهَزَمَ مَلِكُ الْفُرْسِ يَزْدَجَرْدُ، وَعَبَّرَ الْعَرَبُ نَهْرَ دِجْلَةَ وَأُسْتَوَلُوا
عَلَى طَيْسِفُونَ (المدائن)، حَاصِصَةَ الْفُرْسِ. وَكَانَتْ الْوَقْعَةُ
الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُمَا، سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِئَةٍ، فَإِنَّ
الْعَرَبَ سَحَقُوا الْفُرْسَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ وَقَضَوْا عَلَى مُلْكِ فَارِسَ.
وَلَمْ تَنْقُضْ بَضْعُ سَنَوَاتٍ، حَتَّى كَانَ الْعَرَبُ قَدْ عَبَرُوا نَهْرَ
جِيحُونَ، وَجَازُوا شِمَابَ الْهِنْدُكُوشِ، وَأَشْتَبَكُوا فِي الْحَرْبِ
مَعَ أَقْيَالِ^(١) الْهِنْدِ. وَلَمْ يَرَوْا لِفُتُوحَاتِهِمْ نَظِيرٌ مُنْذُ عَهْدِ الإسْكَندَرِ
الْكَبِيرِ. وَلَمْ يَمْتَدَّ أَجَلُ عُمَرَ فَيَرَى هَذِهِ الْفُتُوحَاتِ الْإِلَاحِقَةَ.
وَلَمْ يَشْهَدْ عُمَرُ الْحَرْبَ بِنَفْسِهِ، مَعَ أَنَّهُ رَغِبَ فِي ذَلِكَ مِرَارًا،
وَلَكِنَّهُ ظَلَّ فِي الْمَدِينَةِ يُدِيرُ شُؤُونَ الْقِتَالِ كَأَحَدٍ وَزَرَءِ الْحَرِّيَّةِ
الْعِظَامِ فِي أَيَّامِنَا. وَلَمْ يَدْعُ أَرْمَةَ^(٢) السُّلْطَةَ ثَقَلَتْ مِنْ يَدَيْهِ،
بِمَا كَانَ لَهُ مِنْ عَظِيمِ الْهَيْبَةِ. وَقَدْ اتَّضَحَ بَعْدُ نَظَرُهُ السِّيَاسِيَّ،
بِمُحَاوَلَتِهِ أَنْ يَضَعَ حَدًّا لِامْتِدَادِ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ اُمْتِدَادًا

(١) الأقيال : صغار الملوك . (٢) أرملة : معاود .

مُسْتَشْرًا، وَبِأَن يُحَافِظَ عَلَى الصَّبَةِ ^(١) الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، فِي الْمَمْلَكَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ، وَيُقَوِّمَهَا، وَخَاصَّةً بِتَنْظِيمِ الشُّؤْنِ الدَّاخِلِيَّةِ.

وَقَدْ سَمَى فِي أَنْ يَجْعَلَ الْأُمَّةَ بِأَسْرِهَا جَيْشًا لِلَّهِ، بِأَن يَكُونَ
الْعَرَبُ جُنُودًا وَحَسْبُ ^(٢). وَحَظَرَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْتَرُوا بَقَاعًا مِنْ
الْأَرْضِ، فِي الْمَمَالِكِ الَّتِي أَفْتَتَحُوهَا. وَكَانَتْ الْأَرْضُ كُلُّهَا إِمَّا
تُجْعَلُ مَالًا لِلْأُمَّةِ، وَإِمَّا تُعَادُ إِلَى أَصْحَابِهَا الْأَصْلِيِّينَ، وَتُقْرَضُ
عَلَيْهَا ضَرَائِبُ، تَقُومُ بِهَا أُعْطِيَاتُ ^(٣) الْجُنْدِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَقَامَ عُمَرُ الْمَدَلَ عَلَى أَوْطَدِ الْأُسُسِ، صَرَفَ
عِنَايَتَهُ خَاصَّةً إِلَى الشُّؤْنِ الْمَالِيَّةِ، كَقَرْضِ الضَّرَائِبِ فِي الْبِلَادِ
الْمُفْتَتَحَةِ، وَتَعْيِينِ وُجُوهِ الْإِنْفَاقِ ^(٤). وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَرَخَ بِالْهَجْرَةِ،
وَكَانَ الْعَرَبُ قَبْلَهُ يُورِّخُونَ بِآخِرِ حَادِثٍ عَظِيمٍ أَهْتَمَّتْ لَهُ
الْأُمَّةُ جَمْعًا، كَعَرَبٍ، أَوْ مَجَاعَةٍ، أَوْ وَبَاءٍ، فَكَانَ تَارِيخُ
وَقَائِعِهِمْ، وَالْحَالَةُ هَذِهِ، فِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الْحَلَلِ ^(٥) وَالْإِخْتِلَاطِ.
وَجَاءَ عُمَرُ ذَاتَ يَوْمٍ غُلَامٌ فَارِسِيٌّ مِنْ أَهْلِ نِهَاوَنْدَ، يُقَالُ

(١) الصبغة : السمة والعلامة . (٢) وحسب : وكفى . (٣) أعطيات جمع

عطاء : ما يعطى . (٤) وجوه : سبل . (٥) الحلال : الصاد .

لَهُ فَيَرَوْهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، يَشْكُو إِلَيْهِ ثِقَلَ الْخَرَجِ ^(١) الَّذِي جَعَلَهُ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ، وَكَانَ خَرَجُهُ دِرْهَمَيْنِ كُلِّ يَوْمٍ. فَأَجَابَ عُمَرُ أَنَّهُ لَا يَرَى خَرَجَهُ ثَقِيلًا فِي كُنْهِ ^(٢) مَا يُحْسِنُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَكَانَ الْفُلَامُ تَقَاشًا، نَجَارًا، حَدَادًا. فَسَاءَ ذَلِكَ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، وَتَوَعَّدَ ^(٣) الْخَلِيفَةَ فِي وَجْهِهِ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ اشْتَمَلَ ^(٤) عَلَى خَنْجَرٍ ذِي حَدَّيْنِ، نِصَابُهُ ^(٥) فِي وَسْطِهِ، وَقَعَدَ لِعُمَرَ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايا الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ وَثَبَ عَلَيْهِ وَطَعَنَهُ بِضِعْ طَعَنَاتٍ، وَطَعَنَ فِي الْمَسْجِدِ مَعَهُ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ. وَأَقْبَلَ رَجُلٌ فَالْتَقَى كِسَاءَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا عَلِمَ الشَّقِيَّ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ، طَعَنَ نَفْسَهُ. وَتَوُفِّيَ عُمَرُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فِي ذِي الْحِجَّةِ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ (فِي شَهْرِ تَشْرِينَ الثَّانِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّ مِثَّةٍ، بَعْدَ الْمَسِيحِ). وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ عَشَرَ سَنَاتٍ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ. وَعَاشَ ثَلَاثَةَ وَسِتِّينَ عَامًا. عُدَّ عُمَرُ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ مُنْظَمَ الْفَتْحِ، وَالرَّجُلَ الَّذِي

(١) الخراج : الضريبة والجزية . (٢) كنه الشيء : قدره . (٣) توعّد : تهدّد .

(٤) اشتمل عليه : حمله مخفياً إياه . (٥) النصاب : مقيس السكين وغيرها .

اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْفَضَائِلُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِلْخَلِيفَةِ . وَقَدْ أَشَادَ^(١) الْمُؤَرِّخُونَ بِذِكْرِ سَجَايَاهُ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ ، وَرَوَوْا عَنْهُ مِنْ الْحِكَايَاتِ مَا فِيهِ مَظْهَرٌ لِأَخْلَاقِهِ السَّامِيَةِ وَتُمَيِّزَاتِ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ . فَقَدْ أَصَابَ الْعَرَبُ فِي عَهْدِهِ نَصْرًا بَاهِرًا ، وَأَنْبَسَطَ سُلْطَانُهُ عَلَى مُلْكٍ وَاسِعٍ ، فَلَمْ يُؤْثَرْ ذَلِكَ فِي زُهْدِهِ ، بَلْ ظَلَّ عَلَى مَا أَلْفَهُ مِنْ خُسُونَةِ الْعَيْشِ وَاحْتِقَارِ الْعِظَمَةِ وَالْفَخْفَخَةِ^(٢) الْبَاطِلَةِ . وَلَمْ يَكُنْ لِبَاسُهُ أَفْضَلَ مِنْ لِبَاسِ أَحَقَرِ رَعِيَّتِهِ .

وَلَمْ يَكُنْ لِيَمُضِي^(٣) عَلَى مَا يَأْتِيهِ أَهْلُ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ مِنَ الْمَظَالِمِ . وَكَانَ يَحْمِلُ دِرَّةً^(٤) يُؤَدِّبُ بِهَا أَكْبَرُ عُمَّالِهِ ، إِذَا مَا بَدَأَ مِنْهُمْ تَقْصُّ ، وَكَانَ لَهُ بِهَا صَوْلَةٌ^(٥) تُزْهِبُ النَّاسَ ، حَتَّى قِيلَ بَعْدَهُ : « لِدِرَّةٍ مُهْمَرٍ أَهْيَبُ مِنْ سَيْوفِكُمْ » . وَقَالَ مَرَّةً :

« لَسْتُ عِشْتُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، لِأَسِيرِنَ فِي الرَّعِيَّةِ حَوْلًا^(٦) — وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَنَعِمَ الْحَوْلُ — فَلِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ لِلنَّاسِ حَوَائِجَ تُقَطَّعُ دُونِي ، أَمَّا عُمَّالِي فَلَا يَرْفَعُونَهَا إِلَيَّ ، وَأَمَّا أَنَا فَمَا يَصِلُونَ إِلَيَّ » .

(١) أشاد بذكره : رفعه بالثناء عليه . (٢) الفخخة : المفاخرة بالباطل . (٣) أغضى

على الأمر : سكت وصبر . (٤) الدرة : السوط يضرب به . (٥) الصولة : السطوة والقدرة

(٦) الحول : السنة .

كَانَ مُعَمَّرٌ زَاهِدًا عَفِيفًا، يَقُومُ بِالْوَاجِبِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا
 مُحَابٍ ^(١)، شَدِيدًا إِلَى حَدِّ الْخُسُوفَةِ وَالْعُنْفِ ^(٢)، مَعَ رِفْقٍ بِالضُّعْفَاءِ،
 عَاطِسِيًّا فِي الْحُكْمِ عَلَى النَّاسِ، وَخَاصَّةً عَلَى نَفْسِهِ، رَجُلًا كَامِلًا
 فِي كُلِّ مَا أَتَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، فَكَأَنَّهُ وَلَدٌ لِيَكُونَ لَهُ الْحُكْمُ.
 وَقَدْ يَجْنَحُ ^(٣) مَنْ يَقِفَ عَلَى مَا تَلَا مَوْتَهُ مِنْ الْفِتَنِ ^(٤) إِلَى
 مُوَافَقَةِ ابْنِ خَلْكَانَ عَلَى قَوْلِهِ، بَعْدَ خَمْسَةِ قُرُونٍ: «إِنَّ جَدَّ ^(٥)
 الْإِسْلَامِ قَدْ أُدْرِجَ ^(٦) فِي أَكْفَانِ مُعَمَّرِ بْنِ الْخَطَّابِ».



(١) المحابي : المائل إلى أحد الخصمين منحرفاً عن العدل . (٢) العنف : العدة
 والقسوة . (٣) يجنح : يميل . (٤) الفتن : اختلافات الناس في الآراء وما يقع بينهم من
 القتال . (٥) الجدد : الحظ والسعد . (٦) أدرجه في الكفن : لقيه

شَارْطَانِ الرَّجُلِ الْخَيْدِيِّ

هَلَكَ آخِرُ إِمْبَرَاطُورٍ رُومِيَّةَ ، سَنَةَ سِتِّ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ ، بَعْدَ الْمَسِيحِ ، وَأَخَذَتِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ بَعْدَئِذٍ تَصِيرُ إِلَى الْأَنْحِلَالِ . وَدُعِيَتْ الْأَزْمِنَةُ الَّتِي تَلَتْ ذَلِكَ « الْمَصُورُ الْمُظْلِمَةُ » . فَلِمَاذَا دُعِيَتْ تِلْكَ الْأَزْمِنَةُ الْمَصُورُ الْمُظْلِمَةُ ؟

لِأَنَّ الَّذِينَ أَغَارُوا عَلَى الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ كَانُوا بَرَابِرَةً ، مُتَوَحِّشِينَ ، مُوَلِّينَ بِالْحُرُوبِ وَالْفُرُوقِ . وَلَمْ يَكْتَرِثُوا ، إِلَّا قَلِيلًا ، لِلشُّعْرَاءِ وَالْمُؤَرِّخِينَ ، وَالنَّقَّاشِينَ وَالْمُصَوِّرِينَ ، وَالْفَنَّانِينَ وَالْبَنَاتِينَ ، وَالْقُضَاةِ وَالْمُسْتَرِيعِينَ ^(١) الَّذِينَ كَانُوا فِيهَا مَضَى مِنَ الْأَزْمَانِ . غَيْرَ أَنَّ مَدِينَةَ رُومِيَّةَ الزَّاهِرَةَ لَمْ تَكُنْ لِيُقْضَى عَلَيْهَا الْقَضَاءُ النَّامُ . فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْبَرَابِرَةَ كَانُوا ، عَلَى جَهْلِهِمْ ، يَرْغَبُونَ فِي التَّعَلُّمِ ، وَلَمَّا حَانَ الْوَقْتُ ، نَشَأَتْ مِنَ الظُّلْمَةِ وَالْخَرَابِ حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ ، تُضَارِعُ ^(٢) الْحَيَاةَ الْقَدِيمَةَ قُوَّةً وَجَوْدَةً . وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ غَرُبَتْ عَلَى نَجْدِ رُومِيَّةَ ، وَعَقَبَ

(١) للفتوح : واضح الفرائح . (٢) تضارع : تعاقب

الَّيْلُ الْمَسَاءَ، غَيْرَ أَنَّ اللَّيْلَ انْقَضَى، وَبَزَغَ^(١) نَهَارٌ جَدِيدٌ،
عَادَتْ الْحَيَاةُ مَعَهُ إِلَى الظُّهُورِ قُوَّةً مُتَّعِشَةً^(٢).

وَكَانَ فِي مُجَلَّةِ هُوْلَاءِ الْبَرَابِرَةِ الَّذِينَ اكْتَسَحُوا
الْإِمْبَرِاطُورِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ، قَبِيلَةٌ جَرْمَانِيَّةٌ، يُقَالُ لَهَا الْفِرَنْكُ.
وَقَدْ حَارَبَ هُوْلَاءُ بِقِيَادَةِ مَلِكِهِمْ كِلُوفِيسَ حُرُوبًا كَثِيرَةً،
حَالِفَهُمُ النَّصْرُ فِيهَا، وَاكْتَسَحُوا بِلَادَ الْغَالِ فَدَعَوْهَا فِرَنْسَا.
وَقُدِّرَ لِلْفِرَنْكِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ شَأْنٌ كَبِيرٌ فِي تَارِيخِ أَوْرُبَّا،

وَفِي نَحْوِ سَنَةِ خَمْسِ مِئَةٍ، دَانَ مَلِكُهُمْ كِلُوفِيسُ
بِالنُّصْرَانِيَّةِ، فَأَحْدَثَ ذَلِكَ انْقِلَابًا عَظِيمًا فِي بِلَادِهِ. فَلِإِنَّ
الْفِرَنْكَ، لَمَّا كَانُوا وَثَنِيَّينَ، لَمْ يَكْتَرِثُوا لِمَدَنِيَّةِ الرُّومَانِيِّينَ
الزَّاهِرَةِ، وَلَكِنَّهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَيَّامِ، اضْطَرُّوا أَنْ يَقْتَسِبُوا
الشَّيْءَ الْكَثِيرَ مِنَ الرُّومَانِيِّينَ.

وَلَمَّا مَاتَ كِلُوفِيسُ فِي بَارِيسَ، سَنَةِ خَمْسِ مِئَةٍ وَإِحْدَى
عَشْرَةَ، قُسِمَتِ مَمْلَكَتُهُ بَيْنَ أَوْلَادِهِ الْأَرْبَعَةِ. وَبَقِيَتِ الْحَرْبُ
نَاشِئَةً مُدَّةَ مِئَةِ سَنَةٍ بَيْنَ الْإِخْوَةِ الْمُتَنَافِسِينَ. غَيْرَ أَنَّ الْأُمَّةَ

(١) بزغ النهار : طلع . (٢) اتعش : لعل بعد فتور .

ظَلَّتْ تَمْتَدُّ حَتَّى شَمَلَتْ، سَنَةَ سِتِّينَ وَخَمْسَ مِئَةٍ كُلًّا مِنْ
 فِرْنَسَا، وَبِلْجَا، وَهولَنْدَة، وَجِرْمَانِيَا الْفَرِيسِيَّة. وَكَانَتْ هَذِهِ
 الشُّعُوبُ كُلُّهَا مُتَبَايِنَةً^(١) فِي الْعَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ، وَلَكِنَّهَا
 كَانَتْ كُلُّهَا مُتَمَاثِلَةً^(٢) فِي جَهْلِهَا لِلْفَنُونِ، وَالْآدَابِ، وَالْعُلُومِ،
 الَّتِي ابْتَدَعَهَا الْيُونَانُ وَأَقْتَبَسَهَا مِنْهُمْ الرُّومَانُ. فَقَدْ كَانُوا جَهْلَةً،
 يُسْطَاءُ، أُمِدَاءُ، لَا يَسْتَهْوِيهِمْ^(٣) إِلَّا الْقِتَالُ، وَالطَّعَامُ، وَالشَّرَابُ.
 وَلَمَّا كَانَ مَلِكُهُمْ لَا يَزَالُ مُتَغَيِّبًا فِي الْحُرُوبِ، آَلَتْ^(٤)
 أَرْزَمَةُ السُّلْطَةِ، شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَى يَدِ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ، أَوْ قِيَمِ^(٥)
 الْقَصْرِ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِلْفِرْنَكِ، لِكَيْ يُحَافِظُوا عَلَى كِيَانِهِمْ^(٦)،
 أَنْ يَكُونَ عَلَى رَأْسِهِمْ رَجُلٌ قَدِيرٌ. وَلَمْ يَجِدُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ
 الْقَدِيرَ فِي شَخْصِ الْمَلِكِ، بَلْ فِي شَخْصِ قِيَمِ الْقَصْرِ. وَقَدْ
 فَعَلَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْقِيَمِينَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لِجَعْلِ الْفِرْنَكِ مُسَحِّدِينَ
 أَقْوِيَاءَ. وَتَعَسَّرَ عَلَيْنَا الرَّجْمُ^(٧) بِمَا كَانَ عَسَاهُ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ لَمْ
 يَقُمْ مِثْلُ هَذَا الزَّعِيمِ وَقَتْنِذِ.

(١) متباينة : مغاورة . (٢) متماثلة : متشابهة . (٣) يستهويهم : يستبليهم .

(٤) آلت : صارت ورجعت . (٥) القيم : التولي . (٦) الكيان : الطبيعة والخلقة . (٧) الرجم :

التكلم بالظن .

فَإِنَّ الْعَرَبَ السَّامِيِّينَ خَرَجُوا مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَكَانُوا
 خَطَرًا عَاطِمًا عَلَى أَوْرُبَّا ، بَعْدَ إِكْرَارِ كَسَ وَجُيُوشِهِ الْفَارِسِيَّةِ ،
 وَهَنْبَالِ وَجُيُوشِهِ الْقَرَطَاجِنِيَّةِ ، وَأَتِيلَا وَجُمُوعِ الْهُونِ . وَقَدْ
 جَاءَ الْعَرَبُ ، بَعْدَ هَؤُلَاءِ ، لِيُجَدِّدُوا النِّزَاعَ الطَّوِيلَ بَيْنَ الشَّرْقِ
 وَالْعَرَبِ . وَكَانَ الْعَرَبُ قَدْ دَانُوا بِدِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ، وَكَانُوا
 حَيْثُمَا نَزَلُوا يُغْرُونَ ^(١) النَّاسَ بِدِينِهِمْ . وَقَدْ أَسْتَوْلُوا عَلَى بَقَاعِ ^(٢)
 عَظِيمَةٍ فِي الشَّرْقِ ، ثُمَّ فَتَحُوا مِصْرَ وَشِمَالِيَّ أَفْرِيقِيَّةَ ، وَعَبَرُوا
 الْبَحْرَ أَخِيرًا إِلَى إِسْبَانِيَا وَأَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا . وَلَمَّا قَبَضَ شَارْلُ مَارْتِلِ
 عَلَى أَرِزَةِ السُّلْطَةِ فِي بِلَادِهِ ، كَانَ الْعَرَبُ قَدْ خَرَجُوا مِنْ
 إِسْبَانِيَا لِلْمُهَاجَةِ فِرْنَسَا . وَفِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِ مِائَةٍ
 تَصَادَمَتِ الْقُوَّتَانِ فِي سَهْلِ ثُورَ ، مِنْ أَعْمَالِ فِرْنَسَا ، فَحَمَلَ
 الْعَرَبُ وَالْمَغَارِبَةُ الْأَفْرِيقِيِّونَ ، وَهُمْ مُنْمَنُطُونَ ^(٣) جِيَادُهُمُ الْمُطَهَّمَةُ ^(٤)
 عَلَى مُشَاةِ الْفِرَنْكِ ، وَكَانُوا قَدْ خَرَجُوا لِمُلَاقَاتِهِمْ بِقِيَادَةِ شَارْلِ
 مَارْتِلِ ، وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ جَدْوَى ^(٥) ، فَإِنَّ الْفِرَنْكَ كَانُوا أَشِدَّاءَ ،

(١) اغراء بالعوي : حظه عليه . (٢) بقاع جمع بقعة (بضم القاف) : القطعة من

الأرض . (٣) منمطون : راكبون . (٤) اللطم : التام الحسن . (٥) الجدوى : النفع .

فَتَمَكَّنُوا مِنْ كَسْرِهِمْ . وَرَجَعَ الْعَرَبُ إِلَى إِسْبَانِيَا وَأَقَامُوا هُنَاكَ
مَمْلَكَةً كَبِيرَةً .

فِي تِلْكَ الْحِقْبَةِ تَخَرَّجَ مَرْكَزُ الْبَابَا رَيْسِ الْكَنِيسَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ،
لِأَنَّ مَدِينَةَ رُومِيَّةَ ، حَيْثُ كَانَ يُقِيمُ الْبَابَا ، هَدَّتْهَا قَبِيلَةُ
جِرْمَانِيَّةٍ أُخْرَى ، يُقَالُ لَهَا اللُّمْبَرْدِيُّونَ ، فَبَادَرَ مَارْتِلُ الْمُسَاعَدَةِ
الْبَابَا . وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عِشْرِينَ سَنَةً عَلَى مَعْرَكَةِ تُورَ ، وَهِيَ الْمَعْرَكَةُ
الَّتِي نَشِيتَ بَيْنَ الْفَرَنْكِ وَالْعَرَبِ ، نُوْدِيَّ يِبْيَانُ بْنُ شَارْلَ
مَارْتِلَ مَلِكًا عَلَى الْفَرَنْكِ . وَأَضْطَرَّ يِبْيَانُ ، هُوَ أَيْضًا ، أَنْ يَذْهَبَ
لِلْمُسَاعَدَةِ الْبَابَا ، وَضَمَّ عِدَا ذَلِكَ ، أَمْلَاكَ كَثِيرَةً إِلَى الْمَمْلَكَةِ
الْفَرَنْكِيَّةِ . وَلَمْ يَبْلُغْ كُلُّ مَنْ شَارْلَ وَيِبْيَانُ ، عَلَى مَا فَعَلَاهُ
فِي سَبِيلِ وَطَنَيْهِمَا ، مَبْلَغَ ابْنِ يِبْيَانِ الْمَدْعُوعِ شَارْلَ ، شَارْلَ
الْعَظِيمِ ، أَوْ شَارْلَمَانَ ، فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَضَعَ الْأُسُسَ ، بِفَتْوحَاتِهِ
الْعَظِيمَةِ ، لِمَا نُسَمِّيهِ أَوْرُبَا الْحَدِيثَةِ .

وَكَانَ شَارْلُ رَجُلًا وَسِيمًا ، يَبْلُغُ طَوْلُهُ سَبْعَ أَقْدَامٍ فِي طَوْلِ
قَدَمِهِ نَفْسِهَا ، شَعْرُهُ ذَهَبِيٌّ مُسْتَرْمِلٌ ^(١) ، وَأَفْقُهُ أَقْفَى ^(٢) كَمِنْسَرٍ

(١) المسترسل: السهل التدلي . (٢) الأفق الاتقى : الذي ارتفع وسط نصبتة وضاق منخراة .

النَّسْرِ^(١)، وَعَيْنَاهُ تَتَقَدَّانِ عِنْدَ الْغَضَبِ كَمِئَتِي الْأَسَدِ . وَكَانَ قَوِيًّا جِدًّا ، يُقَوِّمُ بِأَصَابِعِهِ أَرْبَاعًا مِنْ نِيعَالِ الْخَيْلِ صُمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَيَصْرَعُ^(٢) الْحِصَانَ وَرَاكِبَهُ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَيَرْفَعُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ مُقَاتِلًا مُسْلَحًا إِلَى مُسْتَوَى^(٣) كَتِفِهِ . وَفِي إِحْدَى الْمَنْظُومَاتِ الْقَدِيمَةِ^(٤) : « أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا حَدِيدِيًّا » ، فَمِنْ الْحَدِيدِ خُوذَتُهُ^(٥) ، وَمِنْ الْحَدِيدِ سَاعِدَتَاهُ^(٦) ، وَمِنْ الْحَدِيدِ الزُّرْدُ^(٧) عَلَى صَدْرِهِ وَكَتِفَيْهِ ، حَدِيدِيٌّ رُوحُهُ ، وَحَدِيدِيٌّ لَوْنُ جَوَادِهِ الْحَرَبِيِّ^(٨) .

وَكَانَ فِي أَلْفَرَاتِ الَّتِي يَكْفُ فِيهَا عَنِ الْقِتَالِ ، يَتَمَسَّكُ بِمَادَاتِ قَوْمِهِ ، وَيَلْبَسُ الْبِلَاسَ الْفِرَنْكِيَّ ، وَكَانَ هَذَا الْبِلَاسُ يَقُومُ بِقَمِيصٍ قَصِيرٍ مِنَ الْكِتَافِ ، وَمَسَامٍ^(٩) مُتَقَاطِعَةٍ الْعَصَائِبِ^(١٠) ، وَرِدَاءٍ طَوِيلٍ خَشِينٍ يَصِلُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . وَسَأَلَ مَرَّةً رِجَالَ حَاشِيَتِهِ سَاحِرًا^(١١) ، وَقَدْ مَسَّ أَرْضِيَّتَهُمُ الْقَصِيرَةَ :

(١) النسرة : اللقار لجوارح الطير . (٢) يصرعه : يطرحه الى الارض . (٣) المستوى : مكان الاستواء . (٤) الخوذة : ما يحمي المحارب على رأسه ليقيه (٥) الساعدة : ما يلبس على الساعد من حديد أو غيره . (٦) الزرد : الفرع يتداخل بعضها في بعض . (٧) السامي جمع الساة : الجورب من الصوف . (٨) العصائب جمع العصابة : ما عصب به من منديل أو نحوه . (٩) ساحراً : هازئاً .

— ما هذه الخرق؟ وهل تصلح لتغطي أحدكم إذا نام،
أو لتقيه^(١) البرد والمطر؟

وكان شارل، على قوته وشراسته، وبساطة قلبه، يحب
الجمال، ويحفل^(٢) بالجواهر والمصوغات الذهبية، والنسج
الموشاة، بقدر ما كان يحفل بالشعر والموسيقى وأغاني المنشدين.
وكان يفرح أهل الصناعة والعلماء، من الأمم الأخرى، بالمجيء
إلى مملكته، وتعليم شعبه. وأنضم إلى حاشيته جماعة من
مشاهير أهل العلم، وكان يسر بمحادثتهم، ويستفيد منهم
حكمة ومعرفة.

وقد زعم بعضهم أنه لم يكن يعرف القراءة، غير أن هذا
الزعم لا صحة له. فإنه كان يقرأ، وكان يستمع، وهو يتناول
الطعام، إلى الموسيقى أو القراءة. وكان من عادته أن يحتفظ
بدفاتره وألواح تحت يديه، حتى إذا ما وجد سعة من
الوقت درّب^(٣) يده على تصوير الحروف، ولكنه لم ينتج
نجاحاً كبيراً في هذه الصناعة، التي أقبل على تعلمها أجلاً^(٤).

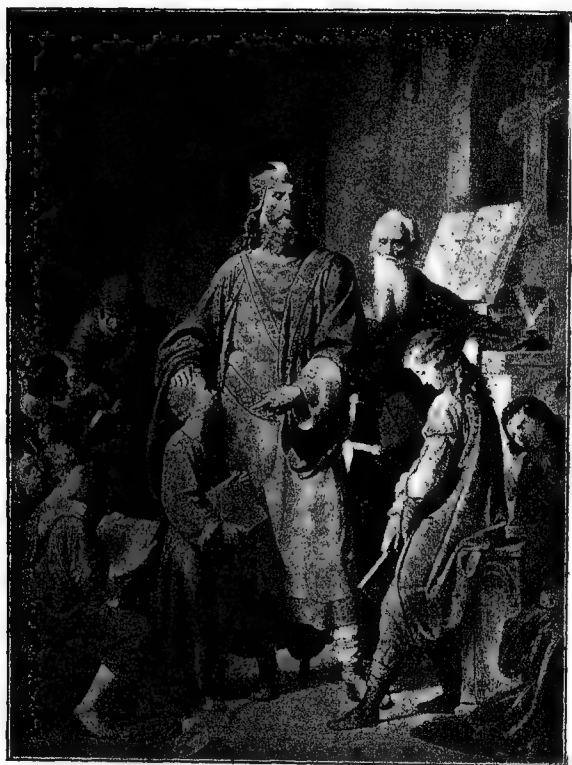
(١) بقي: يصون . (٢) يحفل به: يهتم به . (٣) درب عود . (٤) الأجل: عند العاجل.

وَلَا يَعْنِي هَذَا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْكِتَابَةَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَصِلْ
إِلَى حَدِّ الْإِتْقَانِ الْمَطْلُوبِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، فِي
ذَلِكَ الْمَصْرِ .

وَكَانَ يَعْرِفُ الْأَرْقَامَ مَعْرِفَةً تَامَةً ، وَيَسْتَقْصِي ^(١) سَيْرَ
الْكَوَاكِبِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْحِذْقِ . وَقَدْ صَمَّ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ نَفْسُهُ
لَمْ يَتَهَذَّبِ التَّهْذِيبَ التَّامَ . أَنْ يَتَعَلَّمَ أَوْلَادُهُ وَأَوْلَادُ رِجَالِهِ
الْبُلَاهُ ، وَفِي سِنِّ الْحِدَاثَةِ ، وَأَكْرَمَهُمْ ^(٢) عَلَى الذَّهَابِ إِلَى
الْمَدْرَسَةِ ، لِيَتَعَلَّمُوا كُلَّ فُرُوعِ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَتْ تُدْرَسُ فِي
ذَلِكَ الزَّمَنِ . وَأَعْلَنَ أَنَّهُ لَا يَمْنَحُ رَجُلًا جَاهِلًا أَوْ كَسَلَانًا وَظِيفَةً
مِنَ الْوُظَائِفِ الْعَالِيَةِ . وَيُؤَثِّرُ عَنْهُ قَوْلُهُ : « إِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ
خَيْرٌ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، غَيْرَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بَغَيْرِ الْمَعْرِفَةِ
لَيْسَتْ مُمَكِّنَةً » . وَقَدْ أَنْشَأَ مَدَارِسَ كَثِيرَةً . وَبَنَى كُنَائِسَ
عَدِيدَةً ، لَا يَزَالُ بَعْضُهَا قَائِمًا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَعَامِلَ شَارِمَانَ أَصْدِقَاءَهُ بِأَعْظَمِ الْإِحْتِرَامِ . وَلَمْ يَكُنْ
يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ إِلَّا مَعَ أَوْلَادِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ يُسَافِرُ إِلَّا مُسْتَنْصِحًا .

(١) يستقصي : يبلغ الغاية في الطلب والبحث . (٢) أكرمهم على الأمر : أحلمهم عليه قهراً .



شارلمان يزور إحدى المدارس

أَوْلَادُهُ، فَيَرْكَبُ أَبْنَاؤُهُ مَعَهُ، وَتَتَّبِعُ بَنَاتُهُ فِي السَّاقَةِ^(١). وَكَانَتْ
بَنَاتُهُ عَلَى جَانِبٍ مِنَ الْجَمَالِ، وَكَانَ أَبُوهُنَّ يُجْبِشْنَ^(٢) كَثِيرًا،
وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ أَبِي أَنْ يُزَوِّجَهُنَّ أَحَدًا، وَأَسْتَبْقَاهُنَّ فِي مَنْزِلِهِ
حَتَّى مَمَاتِهِ، زَائِمًا أَنَّهُ لَا يَقْوَى عَلَى مُفَارَقَتَيْنِ وَالتَّخَلِّي عَنْ
عِشْرَتَيْنِ. وَكَانَ مُعْتَدِلًا فِي أَحْنِسَاءِ^(٣) الْحَمْرِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ
يُحِبُّ الشَّوَاءَ^(٤).

وَلَمْ يَكْتَفِ شَارِلْمَانُ، الرَّجُلُ الْحَدِيدِيُّ، أَنْ يَكُونَ
مُتَسَلِّطًا عَلَى الْمَمْلَكَةِ نَفْسِهَا، الَّتِي تَسَلَّطَ عَلَيْهَا أَبُوهُ قَبْلَهُ، وَلَكِنَّهُ
كَأَيِّهِ، قَضَى مُعْظَمَ حَيَاتِهِ مُحَارِبًا. وَكَانَ هُمُ الْأَكْبَرُ أَنْ
يَضُمَّ الشَّعْبَ الْجِرْمَانِي كُلَّهُ، وَيَكُونَ مِنْهُمْ إِمْبَرَاطُورِيَّةً عَظِيمَةً،
وَيَحْمِلَهُمْ عَلَى تَرْكِ دِينِهِمِ الْوَثْنِيِّ، وَالتَّدْيِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ. وَقَدْ نَجَحَ
فِي مَسْعَاهُ هَذَا، وَأَخْضَعَ السَّكْسُونِيِّينَ، الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَوَالِينَ
عَلَى مُعْظَمِ جِرْمَانِيَا، وَلَنْصَرُمْ. ثُمَّ أَغَارَ عَلَى لُمْبَرْدِيَا فِي إِيطَالِيَا،
فَزَوَّلَا عَلَى رَغْبَةِ أَلْبَابَا، فَكَسَرَ اللَّيْبَرْدِيِّينَ، وَغَدَا مَلِكًا عَلَى

(١) اللقاة : مؤخرة الجيش . (٢) احتسى الحمر : شربها شيئاً بعد شيء .

(٣) الشواء : ما شوي من اللحم ونحوه .

مُبَرَّدِيَا . وَأَخْضَعَ السَّلَافِيْنَ وَالْبُوهِمِيْنَ أَيْضًا . وَاسْتَنْجَدَتْ
 بِهِ ^(١) إِسْبَانِيَا عَلَى أَعْدَائِهَا الْمَغَارِبَةِ ، فَذَهَبَ إِلَى هُنَاكَ وَاسْتَوَلَى عَلَى
 جَانِبٍ مِنَ الْبِلَادِ . وَكَانَ عَلَى أَتَمِّ وَفَاقٍ مَعَ الْخَلِيفَةِ هُرُونِ
 الرَّشِيدِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِ هَذَا الْخَلِيفَةُ هَدِيَّةً ، فِي جُلَّتِهَا فِيلٌ .
 وَفِي سَنَةِ ثَمَانِي مِئَةٍ ، رَحَلَ شَارْلَمَانُ ، أَعْظَمُ أُمَرَاءِ أَوْرُبَا ،
 وَبَطَلُ الْمُصَوِّرِ الْوُسْطَى ، إِلَى رُومِيَّةِ الْفَرَّةِ الرَّابِعَةِ لِيُوطِدَ سُلْطَةً
 أَلْبَابَا ، لَاوْنِ الثَّلَاثِ . وَذَهَبَ ، فِي صَبَاحِ يَوْمِ عِيدِ مِيلَادِ السَّيِّدِ
 الْمَسِيحِ ، إِلَى كَنِيسَةِ الْقِدِّيسِ بَطْرُسَ لِيُصَلِّيَ . وَكَانَ ثَمَرُهُ
 وَقَتْنِيْدُ ثَمَانِي وَخَمْسِينَ سَنَةً . فَأَرَادَ أَلْبَابَا أَنْ يُكَافِئَهُ عَلَى مَا
 أَسْلَفَ ^(٢) مِنَ الْجَمِيلِ ، وَأَنْ يُعْلِنَ لِلْعَالَمِ أَنَّ شَارْلَمَانَ نَصِيرُهُ
 وَمُحَامِيهِ . فَذَنَا مِنْهُ ، وَهُوَ سَاجِدٌ فِي تِلْكَ الْكَنِيسَةِ الْعَظِيمَةِ ،
 وَقَبْلَ أَنْ يَدْرِيَ شَارْلَمَانُ بِمَا كَانَ يَجْرِي ، وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ
 تَاجًا مِنَ الذَّهَبِ . وَفِي الْحَالِ هَتَفَ الْمُحْفِلُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ ،
 مُرَدِّدًا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْقَدِيمَةَ ، الَّتِي كَانَتْ أَبَاطِرُهُ الرُّومَانِيْنَ
 يُحْيُونَ بِهَا فِيمَا مَضَى ، وَهِيَ :

(١) استنجدت به : استغاثت . (٢) أسلف : قدم .

«الْحَيَاةُ وَالنَّصْرُ لِشَارَلٍ ، لِأَغُسْتُسَ الْكَلْبِيِّ التَّقْوَى ،
مُتَوَجِّحِ الرَّبِّ ، لِإِمْبَرَاطُورِ الرُّومَانِيِّينَ الْعَظِيمِ ، مُحِبِّ السَّلَامِ » .
وَهَكَذَا بُعِثَتْ ^(١) سُلْطَةُ جَدِيدَةٍ مِنْ بَيْنِ الْأَنْقَاضِ ^(٢)
وَالْفَوْضِ ^(٣) ، وَعَادَتْ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةُ الْعَظِيمَةُ ، الَّتِي سَقَطَتْ سَنَةً
سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعَ مِثْلَهُ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَظَلَّ الْأَنْسَمُ عَلَى الْأَقْلِ
قَائِمًا ، إِلَى أَنْ قَضَى نَابُولِيُونُ عَلَى هَذِهِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْقَضَاءَ النَّامَ .
وَكَانَ بَيْنَ جُنُودِ شَارْلَمَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْفَرَسَانِ ،
يُدْعَوْنَ بِلَادِينَ (أَيْ رِجَالِ الْقَصْرِ) . وَكَانَ بَيْنَهُمْ هُوَلَاءُ شَابَانَ ،
تَوَثَّقَتْ ^(٤) يَسْنَهُمَا عُرَى الصَّدَاقَةِ ، يُدْعَوَانِ أُولِيفِيَّةَ وَرُولَانَ . وَقَدْ
خَصَّ الْمَلِكُ هَذَيْنِ الْفَارِسَيْنِ بِعَطْفِهِ . وَكَانَ رُولَانُ ابْنُ أُخْتِ
شَارْلَمَانَ . وَقَدْ أَعْلَمْنَا شُعْرَاءَ ذَلِكَ الزَّمَنِ أَنَّ شَارْلَمَانَ أَعْطَى الشَّابَّ
قَرْنَ صَيْدٍ ، وَوَعَدَهُ أَنْ يُبَادِرَ لِمُسَاعَدَتِهِ إِذَا وَقَعَ فِي ضَيْقٍ ،
وَتَقَرَّ ^(٥) فِي ذَلِكَ الْقَرْنِ .

وَقَدْ اضْطُرَّ شَارْلَمَانَ ذَاتَ يَوْمٍ ، بَعْدَ أَنْ قَامَ بِأَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ

(١) بعثت : أقيمت وأُثيرت . (٢) انقراض جمع هض (بضم الهاء) ما انتفض من
البنان . (٣) الفوضى : الاضطراب . (٤) توثقت : تقوت . (٥) هز في البوق : هزج

مَجِيدَةٍ فِي إِسْبَانِيَا، أَنْ يَرْتَدَّ إِلَى الْجِبَالِ الْفَرَنْسَوِيَّةِ، وَغَادَرَ
رولانَ وَأُولَيفِيَةَ فِي حِرَاسَةِ سَاقَةِ^(١) الْجَيْشِ. وَقَادَ الْفَارِسَانِ رِجَالَهُمَا
فِي شِعْبِ^(٢) رُنْسِفُو الصَّخْرِيِّ الطَّوِيلِ. وَفِيمَا هُمْ يَتَسَلَّقُونَ الْجَبَلَ،
سَمِعُوا زَمْزَمَةً^(٣) أَصْوَاتٍ عَدِيدَةٍ صَاعِدَةً إِلَيْهِمْ. فَأَطْلَوْا فَإِذَا أُلُوَادِي
دُونَهُمْ مُزَبَّرٌ^(٤) بِالرَّمْلِ. وَكَانَ أُولَئِكَ هُمْ الْمَغَارِبَةُ. فَقَالَ أُولَيفِيَةُ:

— مَا عَسَانَا أَنْ نَصْنَعَ ؟

فَأَمَرَ رولانَ يَدَهُ عَلَى سَيْفِهِ، وَكَانَ قَدْ دَعَاهُ دُورَنْدَالُ
(أَيِ الْخَالِدِ)، وَأَجَابَ:

— نَسْتَرِيحُ هُمْ نَقُومُ بِوَاجِبِنَا.
فَقَالَ صَدِيقُهُ:

— كَلَّا يَا رولانَ، إِنَّا فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ، وَالْعَدُوُّ كَثِيرٌ.
فَأَنْقُرْ فِي قَرْنِكَ يَا صَاحِبَ، وَأَدْعُ الْمَلِكَ.
فَأَتَفَضَّ رولانُ مُتَشَاحِعًا^(٥). وَقَالَ:

— أَيْ اللَّهُ أَنْ أَنْقُرَ فِي قَرْنِي، وَأَقْقَدَ مَا لِي مِنَ الصَّيْتِ

وَالذِّكْرِ.

(١) ساقَة الجيش: مؤخرته. (٢) العقب: الطريق في الجبل. (٣) الزمزمة: الضجيج

(٤) المزبَّر: المتفحش. (٥) المتشاحع: المتكبر.

ثُمَّ أَهَابَ ^(١) بِرِجَالِهِ فَكَرَوْا ^(٢) وَأَنحَدَرُوا فِي الْجَبَلِ وَرَاءَ رَايَتِهِ . فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ وَرَاءِ الصُّخُورِ مِثَاتٌ مِنَ الْمُقَاتِلِينَ الْمُسَلَّحِينَ ، يَبْدُو أَنَّ دُونَ دَالِ أَبْنَى ^(٣) خَيْرَ بَلَاءٍ فَأَرْتَدَّ الْعَدُوُّ . وَإِذَا بِثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنَ الْمَنَارِبَةِ يَتَدَفَّقُونَ مِنَ الْوَادِي لِنَجْدَةِ ^(٤) أَصْحَابِهِمْ . فَحَارَبَ الْفَرَنْسَكِيُّونَ سَاعَاتٍ ، وَسَقَطَ مِنْهُمْ الْوَاحِدُ بَعْدَ الْآخَرِ ، وَلَكِنْ رَايَةُ رُولَانَ النَّاصِصَةِ ^(٥) الْبَيَاضِ ظَلَّتْ تَخْفُقُ ^(٦) فِي الْهَوَاءِ . وَسَقَطَ أُولَئِيقِ مِيتًا ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ رُولَانَ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ اصْصَحْبِهِ الْأُمْنَاءِ . وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ قَدْ شَجِبَتْ ^(٧) ، وَسَوَاعِدُهُمْ قَدْ كَلَّتْ ^(٨) . فَهَمَسَ ^(٩) أَقْرَبُ الْمُقَاتِلِينَ إِلَى رُولَانَ وَقَالَ :

— رُولَانُ ! رُولَانُ ! أَتَقْرُ فِي قَرْنِكَ .

فَرَفَعَ رُولَانُ قَرْنَهُ وَتَقَرَّرَ نَقْرَةً ، تَرَدَّدَ ^(١٠) صَدَاها فِي الْوَادِي ، وَحَمَلَتْهَا النَّسِيمُ إِلَى شَارْمَانَ . فَصَاحَ الْمَلِكُ ، وَأَصَابَهُ إِلَى شَفَتَيْهِ :

— صَه ! إِنِّي أَسْمَعُ قَرْنَ رُولَانَ .

(١) أهاب برجاله : دعاهم . (٢) كروا : رجعوا وعطفوا (٣) أبلى في الحرب : اظهر بأسه (٤) النجدة : المعونة . (٥) الناصصة البيضاء : القديسة البيضاء . (٦) تخفق : تضطرب . (٧) شجب وجهه : تغير من هزال ونحوه . (٨) كل ساعده : تمب وأعبأ . (٩) همس : قال بصوت خفي . (١٠) تردد : ترجع .

يَبْدُ أَنْ رِجَالَ الْحَاشِيَةِ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أُوغِرَ^(١) صَدْرُهُ عَلَى
الْفَارِسِ الشَّابِّ، لِمَا نَالَهُ مِنَ الْخُطْوَةِ^(٢) لَدَى الْمَلِكِ، ضَحِكُوا وَقَالُوا:
— كَلَّا يَا مَوْلَانَا، إِنَّهُ هَزِيرُ^(٣) الرِّيحِ لَيْسَ إِلَّا .

وَسَاوِرُ^(٤) الْقَلْقُ شَارِلْمَانَ، غَيْرَ أَنْ رِجَالَ الْحَاشِيَةِ شَغَلُوهُ
سَاعَةً أَوْ بَعْضَ سَاعَةٍ، سَمِعَ بَعْدَهَا نَقْرَةً، أَعْلَى مِنَ الْأُولَى وَأَمْدًا.
فَوَتَّبَ شَارِلْمَانُ قَائِمًا، وَقَبَضَ عَلَى سَيْفِهِ وَصَاحَ:
— إِنَّهُ قَرْنُ رُولَانَ إِنَّهُ قَرْنُ رُولَانَ

وَمَادَ رِجَالَ الْحَاشِيَةِ وَقَالُوا:

— إِنَّكَ وَاهِمٌ^(٥) يَا مَوْلَانَا، فَرِجَالُنَا لَا يُقَاتِلُونَ الْيَوْمَ،
وَأَكْبَرُ ظَنُّنَا أَنَّ رُولَانَ يَصْطَادُ فِي الْغَابَاتِ .

وَعَلَى حِينِ بَشْتَةٍ، أَقْبَلَ إِلَى مُعَسْكَرِ شَارِلْمَانَ سَاعٍ، يَحْمِلُ
نَبَأَ تِلْكَ الْمَعْرَكَةِ الْعَظِيمَةِ . وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ سَمِعَتْ نَقْرَةً
ضَعِيفَةً مِنْ قَرْنِ رُولَانَ، فَكَانَتْ كَأَنَّهَا صَرْخَةُ اسْتِنْجَادٍ
أَخِيرَةٍ . فَصَاحَ شَارِلْمَانُ، وَقَدْ اغْرَوْرَقَتْ^(٦) عَيْنَاهُ :

(١) اوغر صدره: اوقده من النيفظ. (٢) الخطوة: السكابة (٣) هزير الريح:

دوبها. (٤) ساوور والقلق واثبه. (٥) واهم: غطى في الحسبان (٦) اغرورقت عينه:

دمعت كأنها شرفت في دمعها.

— آم يا رولان ! يا فارسي الشجاع ! لَقَدْ أَبْطَأْتُ^(١)
عَلَيْكَ بِالنَّجْدَةِ طَوِيلًا .

ثُمَّ وَتَبَ إِلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ ، فَأَنْدَفَعَ بِهِ إِلَى شِعْبِ رُنْسِفُو .
فَأَلْفَى رولَانَ هُنَاكَ طَرِيحًا ، مُوَلِّيًا وَجْهَهُ شَطْرَ^(٢) إِسْبَانِيَا ،
وَقَرْنُهُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْ يَدِهِ ، وَسَيْفُهُ إِلَى جَانِبِهِ مَكْسُورًا ،
وَالْأَرْضُ حَوْلَهُ تَغْطِيهَا جُمْتُ أَصْحَابِهِ وَأَعْدَائِهِ . فَجَثَا شَارْلَمَانُ ،
وَقَبْلَهُ مُسْتَجِبًا وَقَالَ :

— لِإِذَا أَسْلَمْتُكَ إِلَى الْهَلَاكِ يَا فَخْرَ الْفِرَنْكِيِّينَ ... !
كَيْفَ أَرَاكَ صَرِيمًا وَلَا أَمُوتُ مَعَكَ ؟

وَقَدْ أَعْلَمْنَا الشُّعْرَاءُ ، الَّذِينَ كَتَبُوا قِصَّةَ رولَانَ ، أَنَّ الشَّمْسَ
فَقَسَهَا تَلَبَّثَتْ^(٣) فِي سَمَائِهَا ، لِتَشْهَدَ أَنْتِقَامَ الْمَلِكِ مِنَ الْمَغَارِبَةِ
وَأَحْلَافِهِمْ^(٤) ، لِإِيْقَاعِهِمْ^(٥) بِالْفِرَنْكِيِّينَ فِي رُنْسِفُو .

وَقَضَى شَارْلَمَانُ بِذَاتِ الْجَنْبِ^(٦) ، فِي الرَّابِعِ وَالْشَّرِينِ
مِنْ شَهْرِ كَانُونِ الْأَوَّلِ ، سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ بَعْدَ الْمِئَةِ الثَّامِنَةِ ، فِي

(١) أَبْطَأَ عَلَيْهِ بِالنَّجْدَةِ : أَخْرَجَ الْمَوْتَهُ . (٢) وَلَى وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَكَانِ : جَهْلَهُ تَقْلَاهُ .

(٣) تَلَبَّثَتْ : تَوَقَّعَتْ . (٤) الْأَحْلَافُ : الْأَصْدِقَاءُ الْمُتَحَالِفُونَ . (٥) أَوْقَعَ بِهِ : بِالْعِزِّ فِي فَتَالِهِ .

(٦) ذَاتُ الْجَنْبِ : مَرَضٌ ، وَهُوَ الْتِهَابُ غِلَافِ الرِّثَةِ .

السَّنةِ الثَّانِيَةِ وَالسَّبْعِينَ مِنْ مُعْرِهِ ، وَالرَّابِعَةَ عَشْرَةَ إِلَيْهِ
كَامْبَرِاطُور . وَلَمْ يَكُنْ الَّذِينَ خَلَفُوهُ عُظَمَاءَ نَظِيرُهُ ، فَلَمْ تَلْبَثْ
إِمْبَرِاطُورِيَّتُهُ الْعَظِيمَةُ أَنْ عَاجَلَهَا الْإِنْقِسَامُ .

وَقَدْ بَدَأَ مَوْتُ هَذَا الْإِمْبَرِاطُورِ الْعَظِيمِ لِعَاصِرِهِ ^(١) أَكْبَرَ
مُصَابٍ ، نَزَلَ بِالْبَشَرِيَّةِ ، مُنْذُ الطُّوفَانِ . وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ الْعُصُورَ
الْمُظْلِمَةَ قَدْ أَزْدَادَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ ظُلَامًا .



تم الجزء الأول

(١) المعاصرون : العاشقون في زمن واحد .

جدول الأزمات التاريخية

قبل المسيح	العهد المجرى التقويم الأول في مصر	قبل المسيح
نهاية مجد مصر وابتداء مجد فلسطينية		٤٠٠٠
الملك داود		١٠٠٠
تأسيس رومية		
خراب نينوى (٦١٢)		
لفاء البوذية والكنفوخية والزردشتية	بدء حياة الحضارة فيها بين النهرين	٣٥٠٠
خراب اورشليم (٥٨٧)		
الجمهورية في رومية . دارموس الكبير		٥٠٠
حرب مارتون		
عصر الوثنا الزاهر		
الاسكندر الكبير		
هنيبال في إيطاليا		
الرومانيون يستولون على اورعلم (٦٣)	عصر الأهرام	٣٠٠٠
بوليوس القيصر		
مولد المسيح		
الرومانيون يدمرون اورعلم (٧٠)	سرعون الأول	٢٥٠٠
رومية ابان مجدها		
	ابراهيم . جورابي	٢٠٠٠
قسطنطين الكبير		
هزوات البرابرة		
سقوط رومية	عهد الاقطاع في مصر	٥٠٠
نفاة الاسلام		٦٠٠
الاستيلاء على بيت المقدس	عصر كريت الذهبي	
شارلمان يوج إمبراطوراً	الامبراطورية في مصر (١٥٨٠)	١٥٠٠
	خروج الابريائيين من مصر	٨٠٠
	حرب طروادة	

فهرس الجزء الاول



الصفحة	
٥	تمهيد
٩	خوفوا بن النيل وقبره
٢٢	فجر الشرق
٤٤	ضحى الشرق
٦٢	حصان طروادة الخشي
٧٦	ابن الحجار
٩١	الاسكندر الكبير
١٠٦	الولد الذي ابغض رومية
١٢٢	يوليوس قيصر
١٣٩	مرقس اورليوس انطونينوس
١٥٧	قسطنطين الكبير
١٧٣	عمر بن الخطاب
١٩٧	شارلمان الرجل الحديدي
٢١٤	جدول الازمنة التاريخية

